دروس من
سورة الكهف

الدكتور
عبد العزيز كامل

المكتب المصري الحديث
www.almaktabalmasry.com

الطبـعة الأولــى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

المكتب المصرى الحديث

www.almaktabalmasry.com
info@almaktabalmasry.com

القـــاهرة: ٢ شـــارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شـــارع نوبـــار المنشـــية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبين وعلى آله وصحبه. ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين...

وهذه أحاديث عن سورة الكهف..

ولعل أول ما يسبق إلى الذهن عند ذكر هذه السورة. ما فيها من أنباء الغيب والمعجزات:

- فتية من القرون السابقة، ضرب الله على آذانهم في الكهف سنين عددا. ناموا دون أن يقصدوا النوم الطويل، واستيقظوا لا يدرون إن كان النوم يوما أو بعض يوم.
- قائد حاكم طاف المشرق والمغرب شارك في إقامة العدل وفي تصوير الفكرة عملاً ملموسًا، وحمى قوما بعرق الجباة وجهد السواعد، ودقة التخطيط وأقام بينهم و بين المفسدين سدا يدعمه حديد ونحاس.
- وقصة بين موسى عليه السلام وهو نبى من أولى العزم وبين رجل صالح آتاه الله من لدنه علما ظهر من وراء ستر الغيب وكانت له مع موسى صحبة من ثلاث مراحل ثم توارى وراء ستر الغيب لا نعرف يقينا من أين جاء ولا إلى أين ذهب وما يعلم جنود ربك إلا هو.
- وقصة صاحب الجنتين، وقد استطال بماله وزرعه وثماره، على صاحبه المؤمن وتسير القصة ويعلو الإيمان بصاحبه، ويعصف الجحود والغرور بالجنتين، فأصبح ثمرها حصيدا كأن لم تغن بالأمس.

هذه هى المعالم الرئيسية الأربعة في السورة، التى كثر الحديث عما فيها من أنباء الغيب والإعجاز.

ولكن جوانب أخرى غير أحداث السورة تستوقف النظر، هى العبر من القصص،ومنهج العرض التاريخى، وتكامل القصص الأربع، دون أخذها فرادى. وتكامل مشاهد كل منها دون اقتطاع مشهد عن السياق العام، ثم وضع المشاهد والقصص جميعا في نسق واحد يضم مدخل السورة وخواتيمها، والروابط بين مراحلها تمهيدا وتعقيبا بحيث تبدو السورة في وحدتها المتكاملة داخليًا، ومع السياق التاريخى والقرآنى للعهد المكى ثم مع الأهداف الدائمة والباقية، التى تنير لنا السبيل منهجيًا وعمليًا في حياتنا. وبهذا نجمع في الدراسة بين النظريتين الداخلية والخارجية. ولما كان القرآن الكريم مصدر إلهام دائم للمسلمين على امتداد الزمان والمكان وكان لكل عصر مشكلاته الكبرى التى تقابله مع الاشتراك في قضايا إنسانية مستمرة كان علينا أن نقرأ القرآن: أولاً على مستوى الفهم لألفاظه ومعانيه دون أن نحمل الآيات فوق ما تحتمل مستهدين في فهم القرآن بالقرآن ذاته وبالسنة النبوية وما جاء عن سلفنا الصالحين، ثم نقرؤه في ضوء مشكلاتنا التى نحياها نلتمس عنده الهدى فيما نستقبل من مسئوليات الحياة.

وإذا كان الغالب في القراءة الأولى عنصر الثبات والاستمرار، وهذا هو التفسير المأثور – فأن الغالب والمقصود في القراءة الثابتة هو عنصر التغير وهذا هو التفسير المعقول. أى أن نلتمس من القرآن النور فيما نواجه من مشكلات الحياة،وهى تجمع بين الاستمرار والتغير – أى بين العقل والنقل – هذا بعد أن جمعت بين النظرتين الداخلية والخارجية وهذه العناصر الأربعة أساسية في أى دراسة تاريخية.

ولننظر الآن إلى السورة في سياقها التاريخى:

سورة الكهف مكية وهى الثامنة والستون في ترتيب النزول: قبلها الغاشية وبعدها النحل.

وقد ذكر محمد بن اسحاق في سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس قال بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة ابن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما سلوهم عن محمد، وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى أتيا المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وبعض قوله وقالا:

إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا قال، فقالوا لهما: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل والإ فرجل متقول فتروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يامعشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد ! أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ أخبركم غدا عما ما سألتم ولم يستثن [أى لم يقل إن شاء الله] فانصرفوا عنه. ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له وحيًا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة،قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشىء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من خبر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل. ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٥).

ندع الآن أمر الروح، وتفسير قوله تعالى: قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى والمقصود من كلمة "أمر" هنا ثم التعقيب عليها بقوله تعالى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.

ونركز القول على تحدى قريش الرسول عليه الصلاة والسلام والاستعانة عليه بأحبار اليهود في المدينة. ولقد كانت لهم بعد هذا مواقف ومواقف مع الإسلام: رسالةً ورسولاً ومجتمعًا.

كان التحدى في الأسئلة الثلاثة عمليًا، كان تحديًا في المعرفة وكان اليهود على يقين أن علم هذه الاسئلة الثلاثة بعيد عن دائرة النبى عليه الصلاة والسلام إلا أن يأتيه خبر السماء.

فى هذا التحدى جانب إيجابى قوى هو يقين اليهود أن أهل مكة مسلمهم وغير مسلمهم بعيدون عن هذا العلم ويقين قريش أن هذه معرفة جديدة عليهم ليست من أساطير الأقدمين وملاحم التاريخ التى وصلت إليهم أطرافها وبهذا هى جديدة على الرسول بيقين. و يقودنا هذا إلى صورة تاريخية للعهد المكى أكثر تفصيلا.

ففي أي مرحلة كان هذا التحدي؟ ما علاقته بجوانب التحدى الأخرى؟

نستطيع أن نقسم العهد المكى إلى مراحل متميزة متصلة:

- **المرحلة الأولى**: من البعثة النبوية إلى السنة الثالثة، وهى مرحلة الإسرار بالدعوة
- **المرحلة الثانية**: إعلان الدعوة امتثالاً لأمر الله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) وما تلاها من محاولات فتنة المسلمين عن دينهم، وعدوان أقوياء كل قبيلة على من فيها من المستضعفين الذين أسلموا، وجهود أغنياء المسلمين كأبى بكر في شراء هؤلاء وإعتاقهم لله تعالى.. حتى أذن الرسول ﷺ للقادرين من أصحابه بالهجرة إلى الحبشة قائلا: لو خرجتم إلى أرض الحبشة،فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق. حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه. وكان هذا في العام الخامس للبعثة النبوية وكان من المهاجرين عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت المصطفى ﷺ والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف و جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهم و أقامو بالحبشة عشر سنين.
- **المرحلة الثالثة**: مرحلة الفتنة العامة التى استمرت من العام السابع إلى العاشر وهى مرحلة الحصار الاقتصادى والاجتماعى الذى فرضته قريش على المسلمين وألجأتهم إلى شعب بنى هاشم.
- **المرحلة الرابعة**: ومطلعها انتهاء الحصار الاقتصادى وموت أبى طالب وخديجة رضى الله عنهما وخروج الرسول ﷺ إلى الطائف وما لقى فيها من الأذى ثم الإسراء والمعراج. وكان إيذانا بفتح أبواب المستقبل.. فآمن أوائل الأنصار في موسم الحج عندما عرض عليهم الرسول الإسلام.. واستمرت هذه المرحلة الى الهجرة النبوية في العام الثالث عشر للبعثة النبوية..

من الناحية التاريخية، المراحل الأربع متصلة، والمعاناة مستمرة وإن تميزت كل مرحلة بضيوف من المحنة.

وما وجدت قريش وسيلة من وسائل الايذاء والامتحان إلا سلكتها مع المسلمين: الأذى البدنى. المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية. التشكيك في الرسالة والرسول، ورميه بالجنون والسحر وتحديه أن يأتى بمعلومات أو يأتى بمعجزات، ثم أخيرا تدبير قتله وكانت نجاته بالهجرة من مكة إلى المدينة واتخاذها قاعدة للإسلام ونشر دعوته في العالمين.

وواضح من هذا التقسم الرباعى أن تكون قصة التحدى في المرحلة الثانية من هذه المراحل الأربع وأقرب إلى خواتيمها من بداياتها.

٢ – ترتيب سورة الكهف في القرآن

من الموضوعات التى عنى بها المفسرون: ترتيب سورالقرآن وترتيب الآيات في السورة الواحدة.

وبين يدى عند إعداد هذا الحديث كتاب (تناسق الدرر في تناسب السور) "للإمام السيوطى المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة هجرية. ذلك العالم الجليل الذى إذا وزعت كتبه على سنوات عمره وأيامها، لرأينا أمامنا صورة من روائع العكوف على العلم والتفرغ له وتوفيق الله.. عاش السيوطى اثنين وستين عاما وتبلغ مؤلفاته ثلاثمائة ذكرها في مقدمة كتابه "حسن المحاضرة ".. امتدت إلى التفسير والحديث والقراءات و الفقه والتراجم و النحو والآداب.. فإذا أضيف إلى ذلك ما كتبه بعد "حسن المحاضرة " ارتفعت كتبه إلى أكثر من أربعمائة..

أقول هذه الكلمة عن السيوطى، ونحب سبيل سورة الكهف لنرى كم أحب آباؤنا كتاب الله، وعكفوا عليه، وأناروا به القلوب والعقول والحياة. وكانوا صورة حية لحديث المصطفى عليه الصلاة والسلام الذى يرويه الترمذى عن ابن عباس قال:

قال رجل: يا رسول الله٠أى الأعمال أحب الى الله قال الحال المرتحل. قال: وما الحال المرتحل؟ قال الذى يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل[1].

نعود إلى كتاب السيوطى وقد نشره وحققه عبد القادر عطا بعنوان "أسرار ترتيب القرآن"[2]، لنقرأ فيه ما قاله السيوطى عند ترتيب هذه السورة في المصحف ونحن نعرف أنها الثامنة عشرة وهى بعد سورة الإسراء، وتليها سورة مريم.

يقول: مناسبة وضعها (أى الكهف) بعد سورة الإسراء افتتاح تلك بالتسبيح. وهذه بالتحميد.

يقصد قول الله تعالى، في مطلع الإسراء: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾.

وقوله تعالى في مطلع سورة الكهف ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾.

والتسبيح والتحميد مقترنان في القرآن وسائر الكلام، بحيث يسبق التسبيح التحميد، مثل قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾

هذا مع اختتام سورة الإسراء بالتحميد أيضا. وذلك قوله تعالى:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف.

يقول السيوطى بعد ذلك:

ثم ظهر لى وجه آخر أحسن في الاتصال، وذلك أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبى ﷺ عن ثلاثة أشياء عن الروح وعن قصة أصحاب الكهف، وعن

(١) جامع الأصول لابن الأثير ٩: ٣٣٧ حديث رقم ٦٢٧٦.

(٢) طبعة دار الأعتصام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

قصة ذى القرنين، وقد ذكر جواب السؤال الأول في آخر سورة الإسراء، فناسب اتصالها بالسورة التى اشتملت على جواب السؤالين الآخرين.

فإن قلت: هلا جمعت الثلاثة في سورة واحدة؟

قلت: لمّا لم يقع الجواب عن الأول بالبيان (أى بإسناد علم الروح إلى الله وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾، ناسب فصله فى سورة.

ثم ظهر لى وجه آخر: وهو أنه قال فيها "وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" والخطاب لليهود واستظهر على ذلك بقصة موسى في بنى إسرائيل مع الخضر. التى كان سببها ذكر العلم والأعلم. وما دلت عليه من إحاطة معلومات الله عز وجل التى لا تحصى، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل لما ذكر من الحكم.

وقد ورد في الحديث أنه لما نزل قول الله تعالى ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال اليهود قد أوتينا التوراة، فيها علم كل شىء فنزل قوله الله تعالى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ في سورة الكهف فهذا وجه آخر في المناسبة وتكون السورة من هذه الجهة جوابا على شبهة الخصوم.

وأيضًا: فلما قال هناك - أى في سورة الإسراء - ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ شرح ذلك هنا وبسطه بقوله في سورة الكهف ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ وإلى قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾، إلى آخر آيات وصف مشهد الآخرة ٩٨ – ١٠٠ فهذه وجوه عديدة في الاتصال.

وإذا ذكرنا اتصال الكهف بالإسراء وهى قبلها – فلنذكر جانبًا من أسرار اتصالها بمريم وهى بعدها.

يقول السيوطى:

ظهر لى في وجه مناسبتها أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب: قصة أصحاب الكهف وطول لبثهم بلا أكل ولاشرب وقصة موسى والخضر. وما فيها من الخارقات وقصة ذى القرنين.

وهذه السورة - أى مريم - فيها أعجوبتان: قصة ولادة يحيى بن زكريا وقصة ولادة عيسى فناسب تتاليهما.

ونحن نعرف أن أم يحيى كانت قد بلغت سن اليأس وأن أباه زكريا (عليهما السلام) قد بلغ من الكبر عتيا فلا ينجب مثلهما أبدا. وكذلك أمر عيسى بن مريم.. ولادة بغير أب وبنفخة من روح الله..

وقيل أيضا: أن أهل الكهف من قوم عيسى. وأن قصتهم كانت في الفترة – أى بين عيسى ومحمد عليهما السلام – فناسب توالي قصتهم وقصة نبئهم[1]

ومن وضع سورة الكهف بين الإسراء ومريم ننتقل إلى وضعها العام في كتاب الله..

هى السورة الثامنة عشرة كما سبق القول، وسور القرآن مائة وأربع عشرة ولكن الكهف تقع في منتصف القرآن.. وعدد آياتها عند قراء الكوفة مائة وعشر آيات. وهو ما عليه المصحف الذى نقرأ. قد يختلف العدد عن قراء الشام والبصرة بناء على اختلافهم في تقسيم بعض الآيات إلى آيتين..

فنهاية الجزء الخامس عشر وبدء السادس عشر يقعان في وسط سورة الكهف وذلك عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

وكذلك بدء النصف الثانى من مجموع حروف القرآن يقع في هذه السورة وهو التاء في قولة تعالى ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ .. وبهذا كانت هذه السورة حروفاً وأجزاء في منتصف القرآن الكريم.

---

(١) السيوطى في أسرار ترتيب القرآن ص حتى ١١٣ الى ص ١١٦.

هى مفتتحة بالحمد حتى يكون افتتاح النصف الثانى من القرآن بـ "الحمد لله" كما كان افتتاح النصف الأول ب" الحمد الله " في فاتحة الكتاب. وكما كان أول الربع الرابع منه تقريبا ب ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

ونستطيع أن نرجع إلى تفصيل في هذا كنموذج إلى تفسيرين أحدهما قديم والآخر حديث:

- **أما القديم** فتفسير الإمام الفخر الرازى "مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير".
- **وأما الحديث** فتفسير التحرير والتنوير للإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عند دراسة سورة الكهف في كلا التفسيرين.

وبهذا نكون قد عرضنا للترتيب الموضعى لسورة الكهف بين الإسراء ومريم، ثم للترتيب الشامل لها في المصحف حيث هى في منتصف القرآن وذكرنا في الحديث السابق وضعها في السياق الزمنى في أحداث مكة، في فترة التحدى بعد الإعلان بالدعوة في مطلع العام الرابع للبعثة، وقبل الحصار الاقتصادى في مطلع العام الثامن.. فهذه الفترة بين الرابع والسابع كانت أشد فترات الأذى البدنى والصراع الفكرى والتضييق والهجرة إلى الحبشة و التآمر، والاتصال باليهود وغير اليهود بحثًا عن أساليب يهاجمون بها الرسالة والرسول عليه الصلاة والسلام، ويحاولون بها فتنته وفتنة أصحابه وصدهم عن النور الذى أكرمهم الله به.

ومن هذا الاطار الواسع زمانًا ومكانًا ننتقل إلى عرض وتحليل داخلى للسورة،ولعل من الأفضل أن نقدم لهذا بإبراز الترابط بين أحداث الدعوة الإسلامية،ما يلقاه المسلمون في مكة وما ينتظرهم وهم على طريق الحق، وما جاء في هذه السورة ردا على تحدى قريش وأشياعهم من أهل الكتاب وتثبيتًا للمؤمنين، وتمهيدًا وإعدادًا لما يستقبلون في يومهم وغدهم من أحداث ومحن، عدتهم فيها الإيمان والإخاء والعمل المنظم.

٣ - بين سورة الكهف والسيرة النبوية

أربع قصص أساسية نلقاها في سورة الكهف: أصحاب الكهف والرقيم قصة الصاحبين أو صاحب الجنتين. موسى والعبد الصالح. قصة ذى القرنين.

ولكل من هذه القصص الأربعة تشابه مع أحداث السيرة النبوية، ما سبق منها نزول السورة، وما حدث بعدها في مكة والمدينة.

وإذا تتبعنا خط الإيمان في القصص الأربع وجدناه في قصة الكهف يأوى إلى الجبل، مع فتية آمنوا بربهم. خرجوا به، أو خرج بهم، من مدينة ظاهرها اتساع في العمران، وباطنها كفر بالإيمان. كان الكهف عندهم - مع ضيقه - أرحب وأوسع ولنسمع قول الله تعالى:

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾. (الكهف: ١٦).

وتأمل هنا قوله تعالى: "ينشر لكم ربكم من رحمته" أين؟. في الكهف الضيق. فمع ضيق المكان، سعة الإيمان. ثم انتصار الإيمان وندع أصحاب الكهف إلى حين، لننتقل إلى قصة الصاحبين: ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾. (الكهف: ٣٢).

فى هذه القصة كان مع الغنى كفران، ومع الفقر إيمان، أحد الرجلين ممتلىء اليد بالمال فارغ القلب من الإيمان، والثانى فقير ولكنه معتز بإيمانه. ولم يستطع هذا الغنى مع اقترانه بالجحود والكفران أن يهز إيمانه بالله وثقته فيما عنده.. وهو واثق بوعود الله له سبحانه خزائن السماوات والأرض. وبهذا ينطلق لسانه: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ (الكهف:٤١). وينتصر الإيمان.

وندع القصة إلى موسى والعبد الصالح، لقد كان الإيمان معهما معًا، ولكن القصة درس في التواضع أمام علم الله مهما يكن مصدره، والتجمل بالصبر في محاريب العلم. وفوق كل ذى علم عليم.

كانت يد القدر تحرك الموقف. والموقف كله إيمان في إيمان والعنصر الذى تضيفه القصة إلى موسى، هو مزيد من الصبر والأناة في تناول أمر الدعوة، وعدم التسرع في الحكم. والالتزام بالكلمة يقولها، وبالوعد يرتبط به.

كانت القصة توثيقًا للصلة بين الإيمان والصبر والتواضع، هذا ما قدمه العبد الصالح امتثالا لأمر ربه، إلى نبى من أولى العزم هو موسى عليه السلام عاد العبد الصالح إلى الغيب الذى برز منه، ليغيب فيه.. وبقى موسى معنا، بعد هذا الإسراء العلمى، الذى رأى فيه من آيات ربه.

وندع هذه القصة إلى ذى القرنين. والموقف فيهما يختلف عما رأينا في قصة الكهف.. هناك في - الكهف - كان الإيمان مع القلة: قلة العدد السلاح والمال والرهط.. وهنا الإيمان مع قائد جمع العدة والعدد والقدرة على الإنجاز. فإذا كنا نعتبر الصور في الكهف بدءا وانطلاقا فهى في قصة ذى القرنين هدف وأمل منشود يتمثل في قول الله تعالى على لسان هذا القائد ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ (الكهف ٩٥).

وبماذا وصفه الله؟ ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الكهف: ٨٤، ٨٥).

إن الدعوة إلى الله تستهدف التمكين، والتمكين وسيلة إلى إعلاء كلمة الله تعالى: - ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾. (النور: ٥٥).

في قصة ذي القرنين نشهد كيف عبر الإيمان عن وجوده بالعمل المشترك والتعاون على بناء السد، وكيف استطاع أن يحول بين الإفساد وانتشاره في الأرض.. فالتعبير عن الإيمان في القصة محسوس. يبرز وسط نيران الصهر، ومعاول الحفر، وجهد السواعد، وحكمة القيادة..

وفي مقابل هذا: نستطيع أن نتتبع خط الكفر فترة في أول أمره متقدمًا ضاريًا.. وفي آخره متراجعًا مخذولاً:

في قصة الكهف كان الكفر إلى جوار السلطان المسيطر على المدينة ومضت السنوات والقرون، وتبدل الزمان والسكان، وطوى التاريخ صحائف الكفر،وهؤلا الفتية في أمن الإيمان، وقد ضرب الله على آذانهم في الكهف سنين عددًا ولما بعثهم كان البعث إجابة على المعركة المستمرة بين الحق والباطل: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ (الكهف:١٢)

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ (الكهف: ٢١).

وكذلك في قصة الصاحبين - أو الجنتين - هزم الله الكفر أمام الإيمان،وعلى مشهد من المؤمن والباغي ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (الكهف:٤٢، ٤٣).

وننتقل إلى قصة ذي القرنين فنرى فيها هزيمة الطغيان بأسلوب آخر، هو عجزه عن الوصول إلى هدفه بعد إقامة السد وفي السورة – إلى جوار- القصص – عرض موجز لبدء الخلق ومشاهد الآخرة والحساب والعقاب.. وفيها حمد الله وتوحيده وإخلاص العبادة له..

وإذا ضممنا هذه الخيوط كانت نسيجًا وحياة متكاملة: بدءًا وجهادًا ومعادًا، وإيمانًا يحمل في طياته كل بذور القوة، وإن بدا ضعيفا أحيانا، آويا إلى كهف أحيانًا، ولكنه المنتصر أخيرًا، لأنه كلمة الله ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾ (المجادلة: ٢١).

قصة جديدة....

وإذا رجعنا إلى السيرة النبوية وجدناها تمس سورة الكهف مسًا مباشرًا في أحداث بعينها، وتمسها مسًا مجملاً في إطارها العام:

الكهف: في حياة الرسول أكثر من موطن جبلي.

ولنذكر المعنى اللغوي أولا:

إن نقب الجبل إذا كان ضيقًا فهو الغار، وإذا كان متسعًا فهو الكهف. ونذكر غار حراء في جبل النور لأول الإسلام وبدء نزول القرآن فيه ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾؛ وغار ثور على طريق الهجرة من مكة إلى المدينة؛ وشعب بني هاشم وقد ألجأ الكفار رسول الله وأصحابه إليه ثلاث سنوات عجاف زادهم الإيمان، والقليل القليل الذي يصل إليهم خفية من طعام.

وفي قصة الجنتين، نذكر كيف كانت تستطيل قريش على الرسول وأصحابه وبما عندها من مال.. بل ويعجبون كيف يختار الله رجلاً فقيرًا ليكون رسوله إلى خلقه: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الزخرف: ٣١، ٣٢).

وكثيرة آيات القرآن التي تبين حجج الكفار، وربطهم بين الرسالة والغنى المادي، ورد القرآن على هذه الشبهة.

جانب الصبر والتحمل كان الغالب في قصة الكهف والجنتين. ولكن الله تعالى ذكر قصة ذي القرنين. وأكثر فيها جانب الأمل، وتعانق الإيمان والقوة،

وما يستطيعان أن يقوما به حفظا للحياة والأحياء، وأمانا وتأمينا.. ولم ير المصطفى عليه الصلاة والسلام ذلك إلا في المدينة: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الانفال: ٢٦).

أما قصة موسى والعبد الصالح، فغير بعيدة في بعض مشاهدها عن مشاهد الإسراء والمعراج.. صور العلم الإلهى الذى يسأل فيه المصطفى الروح الأمين: ما هذا يا جبريل، ثم يأتى التكريم الأكبر ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ (النجم: ١٨).

وإذا كانت قصة موسى والعبد الصالح أرضية محدودة المدى والمشاهد، فلقه كان الإسراء أرضيًا، والمعراج سماويًا طوى الزمان والمكان، وأبرز مشاهد لم يأت تشريعها إلا بعد أن استقر الإسلام في المدينة: كحدود شرب الخمر والزنا، وتحريم الربا.. فكان الإسراء ـ وهو بعد سورة الكهف حدوثًا ـ صورة مستقبلية للمجتمع الجديد.

٤ـ فاتحة سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ صدق الله العظيم.

* افتتاح السورة بالحمد لله.. والحمد في القرآن بدء ومسار وغاية..

- بدء نقرؤه في أول سورة الفاتحة: الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم

- ومسار: فهذا الكتاب المبين هو دليلك المستقيم في الحياة، هو الصراط والمنهج. ولم يجعل له عوجا.

- وغاية: وذلك حين تسير على هداه يهديك إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين تردد فيها مع المؤمنين والملائكة ما ذكره الله في هذا المشهد:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الزمر: ٧٣- ٧٥)

فالأمر: أوله حمد ومساره حمد وغايته حمد.

ولنذكر أن هذه السورة نزلت في أشد الأوقات عسرة في العهد المكى.. والمسلمون قد مستهم البأساء والضراء وزلزلوا.. والمصطفى لا يملك، وهو يمر على المستضعفين، إلا أن يدعوهم إلى الصبر قائلا: "لا أملك لكم من الله شيئا. إن موعدكم الجنة".

ولكن أذى الأجساد يزول وسيعود الظالم والمظلوم إلى الله، ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (إبراهيم: ٤٨) هناك يعلو الإيمان ويرتفع، ويسير المسلمون في نوره إلى جنة الرحمن.. ومن قبل هذا وفى - الدنيا- بعد الصبر والألم يشهد المؤمنون انتصار الحق ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ (غافر:٥١).

من أجل هذا ظلت الألسنة المؤمنة رطبة بحمد الله، مستهينة بالعذاب والبطش، متطلعة إلى النصر الحق الذى وعد الله به رسوله والمؤمنين في الكتاب المبين.

وهذه الآية الأولى رباعية البناء:

- أولاً: الخالق: وله الحمد
- ثانيًا: الرسول: وهو عبد الله الذى أنزل عليه الكتاب.

- ثالثًا: القرآن: وهو المنهج والنور
- رابعًا: المؤمنون: الذين يتبعون الرسول المنهج.. فالدين ليس أمرًا فرديًا بين الله تبارك وتعالى وبين رسوله، ولكنه طريق يسير عليه الرسول والمؤمنون معه القرآن قيم على أمر الحياة والأحياء.. قيم على الكتب السابقة، يعيد البشرية، إلى الطريق السوى بعد أن انحرفت بها الأهواء والشهوات والمطامع والجمع بين قول الله تعالى ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ ﴾ وقوله: ((قيما)) كالجمع بين ﴿ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾[1] في أوئل سورة البقرة. وذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾. (البقرة: ٢).

وننتقل مع الآية خطوة أخرى في قوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ ويأتى الإنذار في هذه الآيات سابقًا بشارة المؤمنين، ولاحقًا حمد الله تعالى.. وكأن السياق القرآنى يبدأ بالحمد، وينذر المكذبين، ويبشر المؤمنين.

ولكن نقف هنا عند الإنذار.. فهو عام: لينذر بأسا شديدا من لدنه. لمن؟ من هم المعنيون بالإنذار؟ ما صفاتهم؟ يأتى الإنذار بعد وصف القرآن الكريم بأن الله ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ ﴾ فالإنذار لمن انحرف عن المسار القرآنى ولم يرض به قيما وميزانا للحياة والأحياء، كل انحراف عن المسار أومحاولة للصبر عنه.. يدخل في دائرة النذير.

والقرآن لم يهادن كفار قريش في أمر التوحيد.. ولامن كانوا يتعاونون معهم من أحبار اليهود أو غيرهم.. وإنما أعلن النذير)) والمسلمون يخوضون معركة غير متكافئة بين عقيدة لا تملك إلا الإيمان، وبعض المال الذى أتت عليه مسئوليات تحرير المستضعفين وكفالتهم، ودين باطل متجبر يملك في مكة السلطان والسلاح والمال.

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٥: ٢٤٨.

وهذا البأس الشديد، من لدن الله تعالى: هو الذى أنزل على عبده الكتاب، وهو الذى جمع عليه العقول والقلوب المؤمنة.. وهو الذى يمكن لهؤلاء المستضعفين في الأرض، ويجعل لهم بأسا وسلطانا يؤمنون أن وديعة الله عندهم لا يرفعون السيف إلا بقانون، ولا يضعونه إلا بقانون.. مثلهم مثل الطبيب الذى لا يلجأ إلى الجراحة إلا إذا عز الشفاء بما هو دونها وهناك بأس آخر - والبأس شدة الألم - سيكون في الآخرة إذا ظل هؤلاء المكذبون على غيهم. أما إذا تابوا، ورأوا طريق الحق واتبعوه.. فهم في دائرة الإيمان التى فتحها الله تعالى بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

وكأن وضع النذير، بين الحمد و البشارة، دعوة لهؤلاء المكذبين أن يدخلوا دوائر الحمد والبشارة، ويسلكوا سبيل المؤمنين.

لنا أن نتأمل وصف جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات:

- أولا: أن لهم أجرا حسنا.
- ثانيا: ماكثين فيه أبدا.

فهم مؤمنون إيجابيون - إذا كان لنا أن نستخدم تعبيرًا معاصرًا - عمليون غير سلبيين، ولا منطوين على أنفسهم بعيدًا عن الناس والمسئولية.

وهم حين يعملون، يتحركون في دائرة الصالحات. فالعمل الذى يقومون به هادف، موجه إلى خير العقيدة والفرد والمجتمع.. عمل صالح بأى ميزان وزنته فرديا أو جماعيا. وهذا الميزان، نابع من صدر الآية.. فالقرآن قيم وليس له عوج والمقاييس النابعة منه، والأعمال التى تستلهم هذه المقاييس هى (الصالحات) وأوردها ربنا هنا بالجمع؛ تأكيدًا لتكررها وكثرتها، وإبرازًا لمعنى الاستمرار في العطاء، والرغبة فيه، دون انقطاع. بينما جاء الأجر في تصور موجز عميق ورحب ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ هذا التفكير في الاسم والصفة هو تتويج هذه الأعمال الصالحات. وهو القبول الإلهى لها.

ثم يصف ربنا هذا الأجر بقوله ماكثين فيه أبدا، فهو أجر غير مقطوع، فيه امتداد وشمول، وكما استمر المؤمنون حياتهم يعملون الصالحات، يستمر أجرهم الحسن في دار الجنة والمقامة.

ماكثين فيه أبدا: فإنها حياة مات فيها الموت.

وجود جديد في كون جديد.. ﴿ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ والإنسان ـ إنسان هذه الدنيا ـ ملول يحب التغيير.. فماذا يكون أمره وهذا قول الله تعالى أمامه ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

إن القرآن يفسر بعضه بعضا.. ولقد وصف الله جنته بقوله: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (آل عمران: ١٣٣). فإذا كان هذا عرضها، فما طولها وامتدادها ! لقد وصف الله الجنة في آية أخرى فقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (السجدة: ١٧) فلكل نفس ما تقر به عينيها.

وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (يونس:٢٦) فكل ما يطرأ على ذهنك بعده زيادة، في امتداد لا يتوقف وفى خواتيم سورة الكهف نقرأ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ (الكهف ١٠٧- ١٠٨).

هنا قف يا أخى عند قوله تعالى لا يبغون عنها حولا، هم الذين لا يبغون عنها حولا: أشواق النفس الجديدة في الكون الجديد، والفكر الجديد، والامتداد الجديد، في ضوء هذه الآيات نستطيع أن ندرك جوانب من قوله تعالى في صدر سورة الكهف ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾. ومرة أخرى نستحضر أن هذه البشارات الواسعة نزلت في أشد أوقات الضيق والمحنة في مكة، تحمل أقباسا من وعود الله بالنصر في

الدنيا، والأجر الحسن في دار الخلد و المقامة.. نزلت زادًا يعين على المسير وتحمّل أعباء الدعوة إلى الله.

٥ـ التوحيد

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ ﴾

تنقلنا هذه الآيات في النذير العام، إلى نذير في موضوع محدد تعددت صوره عبر التاريخ الدينى.. وبين يدى هذه الصور المتعددة نود أن نؤكد أن القرآن الكريم مرجعنا في الحوار الدينى. وأن القرآن قيم، ولم يجعل الله له عوجا، ومن أجل ذلك ذكر الكثير من العقائد التى سبقته، وحذر من الأخطاء التى قد نقع فيها من بعد.

ففى قضية التوحيد ـ وهى التى تعنينا في هذا الحديث ـ ذكر صورًا من التعددية مارسها أقوام شتى.

كان عرب الجاهلية يتخذون من دون الله أولياء: مرة يقولون الملائكة بنات الله. ومرة يقولون إن أصنامهم تقربهم إلى الله.. وفى هذا نقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝ ﴾ (النحل:٥٧).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (الزمر:٣).

وقص عن اليهود والنصارى ذلك أمرا في النبوة ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾ (التوبة: ٣٠).

والله سبحانه وتعالى لم يذكر في القرآن كل الأنبياء ولا كل الأديان، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِءَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (غافر: ٧٨).

ولكن إذا رجعنا إلى الأديان الأخرى التى لم يذكرها القرآن وجدنا فيها هذه "الأسر الإلهية". آلهة تتزوج وتنجب وآلهة تتشكل في أكثر من طور من أطوار الظهور. وآلهة تتجمع في جبل تسكن فيه معا، ولها علاقاتها فيما بينها وبين الناس. ونتاج نصفه إلهى ونصفه بشرى.. حشد كبير من الأساطير والعقائد والملل والنحل.. كان للقرآن منها موقف في غاية من الوضوح والتحديد

وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾ (الإخلاص). هذا الإفراد بالألوهية والربوبية جوهر العقيدة الإسلامية.

فالخطاب في هذه الآيات ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا، ليس مقتصرا على دين أو عقيدة. وهو مرتبط أوثق الارتباط وبصدر الكهف بأن القرآن ليس له عوج وأنه قيم.. وهو كما أنذر الذين كانوا على عهد النبوة يقولون بتلك العقائد أنذر بها كل من يدعيها على امتداد العصور والأماكن مهما تكن المبررات التى يستند إليها.. من تقريب الألوهية إلى البشرية أو الصعود بالبشرية إلى مستوى الألوهية أو ما يقاربها، أو تعطف الخالق على مخلوقيه بأن يسكن جسد أحدهم ليكون قريبا منهم حينًا من الدهر، ثم يعود إلى سمائه.. كل هذه المبررات يدينها القرآن الكريم وتبقى الألوهية فيه هى العقيدة المحورية الخالصة.

ومن هنا ندرك العمق في قول الله تعالى ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ﴾ فليس لهم أن يحتجوا بمواريثهم القديمة ولا بما قال الآباء.. بل إن فيها ضرورة عرض أقوال الآباء على محك العقل الذى كرّمه الله وكرّمه القرآن.. ثم يطلق القرآن هذه الإدانة المدوية في سمع الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين:

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ ونقف قليلا عند الصورة الأدبية لهذة الآية: كلمة تتضخم ثم تنطق من أفواههم. تتعثر فيها وهى تخرج.. حجمها لا يتلآءم مع حجوم الأفواه.. تصور صفا من البشر تخرج من أفواههم كلمة كبيرة.. كلمة من كل فم.. يكررون خروجها في هذا المشهد المنفر الكريه.. ويأتى وصفها الإلهى رغم كثرة قولهم وامتداده على زمانهم وزمان آبائهم ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ كذبًا مهما كثرت الأفواه.. كذبًا مهما مرت العصور كذبًا مهما تعددت الأماكن. كذبًا إذا قالها العرب في "الجزيرة" أو من حولهم من أصحاب العقائد الأخرى. أما أنت يامحمد، وأنتم أيها المؤمنون، فاصدعوا بما سمعتموه من ربكم: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾.

ليس في هذا هجوم على أحد إنه انتصار لكلمة الله وإعلاء لها. والوحى الذى نزل على محمد عليه الصلاة السلام هو كلمة الله وأمره، ما اختاره المصطفى لنفسه ولا اختار كلمات ربه، وإنما هو رسول أنزل الله عليه الكتاب ولم يجعل له عوجا. الله هو الله. والإنسان هو الإنسان. وليس هناك من إله إنسان ولا إنسان إله. هذا هو الدين الخالص الذي دعانا إليه الله في قوله مخاطبًا رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾ (الزمر: ٢- ٤)

وقبل أن نرتحل إلى آيات أخرى، نقف في صدر سورة الكهف عند كلمة آثرنا أن نجعلها مسك الختام في مقدمة السورة هى قول الله تعالى في وصف المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾

هذه العبودية.. أشرف أسماء المصطفى وقد ذكرها الله في كتابه في أشرف مواقفه عليه الصلاة والسلام. وكلها تشريف وتكريم وذكرها هنا في تكريمه بإنزال الكتاب عليه.

١) ذكرها هنا في تكريمه بإنزال الكتب عليه.

٢) وذكرها في سورة الإسراء. وهى في الترتيب المصحفي قبل الكهف مباشرة: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (الإسراء).

٣) ومن الإسراء إلى المعراج لنرى وصف الرسول ﷺ بالعبودية في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ (النجم: ٨ – ١٠).

٤) ومن موقف المعراج نعود الى مكة.. والقرآن يصف ثبات الرسول على دعوته رغم المحن الشديدة: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ (الجن: ١٩).

٥) ومن مكة ننتقل إلى المدينة لنرى دفاع القرآن عن الرسول أمام أهل الكتاب وتحديهم بالقرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (البقرة: ٢٣ – ٢٤).

هذه العبودية مقام كريم يتحرر فيه الإنسان من كل القيود ولا يبقى فوقه إلا أمر الله تعالى.. وأى إنسان يتحقق بالعبودية هو مؤمن مصدق بالألوهية وبالربوبية.

وهذا المقام الكريم من العبودية والاصطفاء والرسالة هو الذى ارتضاه الله لأولى العزم من الرسل وللنبين.. وعلى هداهم يسير المؤمنون عبر الزمان والمكان.

العبودية لله تكريم وتشريف. ولقد دافع الله تعالى عن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا السلام فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ (النساء: ١٧٢).

وقص علينا في القرآن الكريم حوارًا يدور يوم القيامة بين الخالق جل وعلا وبين سيدنا عيسى عليه السلام والله به أعلم

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (المائدة:١١٦ ـ ١١٩).

وتأمّل هنا ختام قول عيسى عليه الصلاة والسلام وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ولم يقل الغفور الرحيم.. فهذا أمر يتعلق بالعقيدة، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فالمغفرة هنا في مقام العزة والحكم.

فصدر سورة الكهف دعوة إلى حمد الله تعالى وإلى التحقق بالعبودية وإلى معرفة الكتاب، واتباعه. فهو الصراط والنور والميزان والمرجع. هو الداعي إلى

الوحدانية الخالصة،وإلى الإيمان، وعمل الصالحات،مع الإنذار لمن حادوا عن الوحدانية أو الصالحات، وتبشير المؤمنين بالأجر الحسن في دار الخلد والمقامة.

٦ ـ توجيه ورحمة

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

بعد أن كان الخطاب في الآيات الخمس الأولى من سورة الكهف عن القرآن: حمدا لله على إنزاله، ونذيرًا للذين ينحرفون عنه أو يشركون بالله، وبشيرًا للذين يتبعونه ووعدًا لهم بالأجر الحسن والخلود في النعيم، تحول الخطاب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في توجيه وحب ورحمة.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾
أى يا محمد أتريد أن تهلك نفسك حزنًا وأسفًا لأن قومك لم يؤمنوا بالقرآن الكريم؟

ونقف عند الكلمات: نطقًا ومعنى.

فلعلك باخع:. وتأمل شدة نطق الخاء ومن قبلها الباء ومن بعدها العين.. تأمل مخارج الحروف الباء من الشفتين، الخاء من أدنى الحلق إلى الفم،هو من الحروف المهموسة، والعين من وسط الحلق تحس كأنك تنزع شيئًا من مكان في نطق الكلمة دلالة على معاناتها حسًا ومعنى.. صوتًا وحياة.

وباخع نفسه: قاتل نفسه أو مهلكها غما وفى اشتقاق الكلمة تتعدد الآراء: قيل البخع مشتق من البخاع ـ بالباء الموحدة ـ على وزن كتاب. وهو عرق مستبطن في القفا فإذا بلغ الذابح البخاع فذلك أعمق الذبح. قال الزمخشرى في قوله تعالى لعلك باخع نفسك في سورة الشعراء. وانفرد به فيما (كتب يعنى في تفسيره الكشاف وفى قاموسيه الفائق وأساس البلاغة). ويقول ابن الأثير في النهاية في

غريب[1] الحديث والأثر "بحثت في كتب اللغة والطب فلم أجد أن البخاع بالموحدة أي بالباء". ويعنى أن الزمحشرى قد انفرد به ويعقب على هذا الإمام الطاهرى بن عاشور في التحرير والتنوير فيقول "وكفى بالزمخشرى حجة فيما أثبته". وقد اتبعه في ذلك صاحب القاموس المحيط (يعني الفيروز أبادى). فالبخع أصله أن يبلغ الذابح بالذبح إلى القفا ثم أطلق على القتل المشوب بغيظ[2]، وأنت يا محمد لعلك باخع نفسك على آثارهم ولم تقل الآية لعلك باخع نفسك عليهم. فما الفرق؟

على آثارهم: فيها استمرار الأسف عليهم. حتى بعد أن يبينوا عنه ويتعدوا، فهم قومه وأهله. لا يسألهم أجرا إلا المودة في القربى. إلا أن يحفظوا حق القرابة بينهم. فالمصطفى عليه الصلاة والسلام لا يريد لهم إلاّ خيرًا.. يخاطبهم إذا كانوا أمامه ويحزن على آثارهم، فهى تذكره بهم. والآثار ما يبقيه الماشي أو الراكب في الرمل أو الأرض من مواطيء أقدامه وأخفاف راحلته. وهو أيضا ما يبقيه أهل الدار إذا ترحلوا عنها من تافه آلاتهم التى كانوا يعالجون بها شئونهم كالأوتاد والرماد.

ولقد كان المصطفى عليه الصلاة والسلام حريصا على إيمانهم سالكًا إليه كل سبيل مشروعة، رأفة بهم ورحمة،يذكرهم في القرب والبعد ويدعو ربه "اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون "

و تأمل هذه المقابلة بين البعد والقرب في قوله تعالى فلعلك باخع على نفسك آثارهم.. إن لم يؤمنوا بهذا الحديث آسفا على آثارهم تحمل مفهوم غياب الشخوص أو بُعدها. ((وهذا الحديث)) تحمل الحضور الدائم للقرآن.. فهو هذا الحديث الذى أنزله الله تعالى على رسوله،وبلغه الرسول أصحابه، ودعا له قومه، وحملته الأجيال بعد الأجيال إلى الأقطار بعد الأقطار.

القرآن حضور دائم.. إنه دائمًا ((هذا الحديث)) المتجدد الهدى والنور. القرآن حاضر في نفسك يا محمد. حاضر في نفوس أصحابك. ولكن الكافرين حضور وغياب،تراهم مرة، وآثارهم مرة.. تتوزعهم أهواؤهم. وأنت والقرآن: رسول

(١) انظر الصحاح للجوهري مادة بخع.
(٢) التحرير والتنوير: ١٥: ٢٥٤.

وكتاب لا يفترقان، أنت الصور الحية لأخلاقه ودعوته. أنت اللسان المعبر عنه وبهذا كان الرسول والقرآن الحضور الدائم في التاريخ كله.

في هذه الآية حنان وحب من الله تعالى لرسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام،يدعوه فيه ربه إلى ادخار طاقته،لما هو أجدى من الأسف على آثار المكذبين الذين يجاهدون بالكلمة الغليظة واتخاذ الشركاء مع الله، مرتكزين على دنيا بين أيديهم هى عندهم الجاه والسلطان والمال. هى الحصن الذى يحتمون به ويستندون إليه،وهم يجاهرون الرسول عليه الصلاة والسلام بالجحود والكفر والتكذيب.

من أجل ذلك جاءت الآية التالية وصفًا للدنيا في حجمها القرآنى لا تعدوه، وبيان أنها دار اختيار وامتحان، وأن مادة هذا الامتحان كلها إلى زوال ولا تبقى إلا نتائجها يقابل بها كل إنسان ربه.. ولنقرأ معًا الآية التالية: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾.

نعم: إنها زينة. ولكن من جعلها كذلك؟ إنه الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل. زينة؟ نعم. فيها جمال؟ نعم. قد تغري البعض؟ نعم.. ولكن تذكر دائما أنها مادة الاختيار والابتلاء.. "لنبلوهم أيهم أحسن عملا"

لك أيها المسلم أن تحس زينة الحياة وأن تسعد بزينة الحياة من المال والبنين ولكن تذكر دائمًا ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

وأنت تستطيع أن تجعل أبناءك بالتربية السليمة من الباقيات الصالحات. وأن تجعل أموالك إذا كسبتها من حلال وأنفقتها في حلال، وأديت زكاتها،ووصلت بها رحمك، وواسيت الضعيف،وأعنت المكروب، وشاركت في صناعة الخير.. تستطيع بهذا أن تجعل مالك من الباقيات الصالحات..

فالآية الكريمة لا تضع المال والبنين في كفة، والباقيات الصالحات في كفة مقابلة. وإنما تضع ـ في كفة ـ الاشتغال بالمال والبنين لمجرد أنهم ذريتك ومالك ولو على حساب مصالح الآخرين.. إن الأبناء الصالحين هم أفضل الباقيات

الصالحات، وأموال الخير من أفضل الباقيات الصالحات.. ذلك لأن الولد الصالح هو الباقيات الصالحات المتجددة المستمرة، ينتقل الخير والبر و الرحمة من جيل إلى جيل. وبه يستمر العطاء والخير، ويعود جانب منه على الأب أو الأم ولو سبقا إلى الله تعالى.. ونحن نحفظ الحديث الشريف.

يموت ابن آدم وينقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له.

وفي كلمة "لنبلوهم أيهم أحسن عملا" نذكر موقف سليمان في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النمل:٤٠).

وإن المؤمن ليرى في زينة الحياة آيات الله.. يراها في الجبال الشامخة الراسية، والأنهار المتدفقة، والزهور الباسمة كأنها نجوم مضيئة بالفرحة والجمال. يراها في الفراشات. وكل جناح من أجنحتها لوحة رائعة.. صنع الله الذى أتقن كل شىء يراها في ملايين الوجوه وقد تشابهت حواسها واختلفت لونًا وتناسبًا وتعددت ألسنة وفكرًا، إن الكون متحف كبير.. متحف بلا حوائط ولا أبواب.. وفى كل شىء آية تدل على الله الذى أبدع الكون بما فيه من جمال وجلال.

وراء هذه الظاهرات كلها.. ووراء هذا الجمال والجلال كله، ووراء هذه القوانين التى يسير بها الكون.. هناك الحقيقة الكبرى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾.

وأنت أيها المؤمن لا يغرنك جاه ولا سلطان ولا ملك ولا مجد.. وتذكر دائما قول ربك: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ صالح هذا الكون وأحبه.. حب إيمان وعمران.. وتذكر أنك كما جاء في القرآن الكريم أبقى من السماوات والأرض.. واقرأ في هذا قول الله تعالى:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (إبراهيم: ٤٨).

تبدلت الأرض. تبدلت السماوات. وقام الناس كالفراش المبثوث. ووقفوا أمام الله الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم وبقيت أنت أيها الإنسان بعد أن تبدلت السماء والأرض، وجاء الجزاء. واستعدادًا لهذا اليوم تذكر دائمًا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ والصعيد التراب. والجرز القاحل و الأجرد.. الذى لا تصلح الحياة فوقه..

ومع هذه الآية الكريمة قف كثيرًا، وتأمل طويلاً، تمهيدًا لتنفيذ يستمر مع حياتك كلها: (لنبلوهم) إنه الاختيار.. الامتحان.. فأنت في حياتك في تجربة دائمة. في امتحان دائم.. ولكن مع استمرار الامتحان تذكر قول الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحجرات: ٧- ٨)، والمؤمن يستطيع بهذا أن يصعد بزينة الحياة إلى زينة الإيمان وحسن الجزاء.

٧ ـ مع أصحاب الكهف والرقيم

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

قبل أن نبدأ في فى عرض القصة التى تحمل السورة اسمها، هناك موضوع يتعلق بفضلها وتلاوتها، وأثرها في تكوين الفكر والموقف الإسلامى. وقد درج المفسرون على ذكر فضل السورة في صدرها.. وكان من الممكن أن نبدأ به أو

نذكره بعد مدخلها، بين يدى قصة الكهف والرقيم.. ولكن هذا الفضل يتعلق بالسورة في تمامها وبخاصة أوائلها وخواتيمها فآثرت أن أجعله بعد الانتهاء من العرض والتحليل.. ونكتفى الآن بذكر أحد الأحاديث الشريفة التى تحض على تلاوتها وتبين فضلها.

يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: "من حفظ عشر آيات من أول الكهف ثم أدرك الدجال لم يضره ومن حفظ خواتيم سورة الكهف كانت له نورا يوم القيامة" رواه أبو الدرداء وللحديث روايات أخرى ذكرها الإمام أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه وأبو داود في سننه[1] .

ولقد سبق القول أن التحدى في سورة الكهف كان "علميًا"، وكان الذين سألهم رجال قريش واثقين من أن هذه القصص بعيدة عن الحياة العربية ولا يمكن أن يعرفها الرسول إلا وحيًا، وعندما أخبرهم بها الرسول عليه الصلاة السلام، لم يملكوا معه ردًا ولا جدلاً.

ولكن إذا رجعنا إلى كتب التفسير وجدنا أكثر من قصة، وبين القصص تباين في الزمان و المكان.. وهنا يبدو الفارق الكبير بين المنهج القرآنى الربانى الذى جاءت به القصة، دون دخول في تفاصيلها وركزت على العبر الأساسية فيها، وذكرت من الأحداث والمواقع والمواقف ما يزيد هذه العبر وضوحًا، أقول هناك فرق بين هذا المنهج وبين ما جاء من أخبار المفسرين وقصصهم.

ولتوضيح الفرق أذكر مثالاً لا يبعد بنا كثيرًا عما نحن بسبيله من تأصيل المنهج القرآنى. وإثبات إعجازه، وتفرده عمّا جاءتنا به القرون السابقة من كتب الأديان الأخرى.

لقد تحدث العهد القديم عند خلق الكون الإنسان، تحدث عنهما القرآن، وذكر العهد القديم سلاسل زمنية محددة بالأعوام ولم يذكر القرآن أى شىء يحدد الزمان. إنما جاء فيه:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزى ٥: ١٠٢ ط ٠ المكتب الإسلامى

﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ (الكهف: ٥١).

وجاء العلم الحديث فأثبت بالبراهين القاطعة أن بدء الحياة أقدم بكثير مما ذكره العهد القديم. وكان القرآن بعيدا عن هذه التحديدات الزمنية.. وإلى هذا يشير موريس بوكاى في كتابه "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة" (ص ٤٧ – ٥١) فيقول: ولكي تكون أكثر قربًا من الحقيقة لنقل إن خلق العالم تقريبًا بحسب التقدير العبرى. يُحدد تقريبًا بسبعة وثلاثين قرنًا قبل الميلاد.

وهناك استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان، وبين أكثر المعارف تأسيسًا في عصرنا..

هناك إذن منهج قرآنى في عرض الكون وتاريخ الإنسان وأحداثه، وهذا المنهج يبدو واضحًا في سورة الكهف: عناية بالعبر الأساسية فيها، وذكر ما يفيد هذه العبر من تفاصيل.

ولكن: ما أكثر الشروح شيوعًا لأصحاب الكهف.. ومتى وأين كانوا؟ فلنقم معًا بجولة في كتب التفسير والتاريخ:

ولنعد إلى الطبرى شيخ المفسرين وقد تبعه غير واحد من مفسرى السلف والخلفاء فنوجز ما قالوا:

كان هؤلاء الشباب من أبناء ملوك الروم وسادتهم. وأنهم خرجوا يوما في بعض أعياد قومهم. وكان لهم تجمع في السنة يلتقون فيه بظاهر البلد وكان أهلها يعبدون الأصنام الطواغيث ويذبحون لها. ولهم ملك جبار يُقال له "دقيانوس" وأنكر الشباب ذلك، فالسجود وتقريب القرابين لا يكون إلا لله الذي خلق السماوات الأرض. فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز عنهم واتخذوا لأنفسهم معبدًا يعبدون الله فيه. وعرف قومهم أمرهم ووشوا بهم إلى الملك فاستحضرهم. وسألهم. فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل فتوعدهم الملك وهددهم وأمهلهم لعلهم يرجعون. فآثروا الفرار بدينهم والهرب من الملك ومن قومهم، ولجأوا إلى الكهف ففقدهم قومهم. وتطلبهم الملك. وعمى الله عليه

خبرهم وصحبهم إلى الكهف كلب. وألقى الله على آذانهم النوم. وكلبهم باسط ذراعيه بمدخل الكهف، حتى يبلغ الكتاب أجله.

وكما أرقدهم الله بعثهم صحيحة أبدانهم وأبشارهم. وذلك بعد ثلاثمائة سنين وتسع. لا يدرون كم لبثوا.. يوما أو بعض يوم وذلك في زمان حدث فيه شك في أمر القيامة، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة. وذكروا أن أحدهم ذهب ليشترى طعاما فإذا المدينة غير المدينة. والناس غير الناس. وعمد إلى رجل يبيع الطعام فدفع إليه ما معه من النفقة، فلمّا رآها البائع أنكرها فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم.. ويقولون: لعل هذا وجد كنزًا.. وسألوه عن أمره فقال: أنا من أهل هذه البلدة وعهدى بها عشية أمس، وفيها دقيانوس. فنسبوه إلى الجنون، وحملوه إلى ولي أمرهم. فسأله عن خبره حتى أخبره به. فلمّا أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهى إلى الكهف. فقال: دعونى حتى أتقدمكم في الدخول لأُعلم أصحابى فدخل. وهنا تتفرع الروايات بين دخول الملك واعتناقه وأنسه بهم وودعوه وعادوا إلى مضاجعهم وتوفاهم الله.. وبين قائل أنه دخل إلى الكهف واختفى. وأخفى الله أمرهم.. فكانوا على البعث والقيامة آية. وبنى القوم عليهم مسجدًا ،وسجلوا قصتهم في لوح هو الرقيم ووضعوه على الكهف أو فيه.

هذا هو الإطار العام للقصة كما جاء في كتب التفسير، ترجع بها إلى القرون الأولى لقيام المسيحية زمانًا، وإلى مدينة إفسوس في أقصى غرب آسيا الصغرى غير بعيدة عن أزمير مكانًا.

وعند الزمان والمكان نقف قليلاً.

ولنبدأ بالمكان.. فهو منا قريب· وآثاره من الأيسر دراستها..

تقع إفسوس إلى الجنوب الغربى من أزمير وعلى بعد ٧٣ كيلو مترا منها، وهذه المنطقة معبر حضارى بين آسيا وأوربا. والموقع الواحد فيها يشهد قيام مدن على أنقاض مدن.. والكهف المقصود في الدراسة على السفح الشمالى الشرقى لجبل بيون. وهذا اسمه القديم.. تعاقبت في المنطقة الحرب والحضارات.. وتتابعت فيها أيضا الديانات.. وشهدت الهدوء والثورات،والكفر والإيمان. وعندما عنيت البحوث الأثرية بموقع إفسوس في العشرينات من هذا القرن على يد بعثة ألمانية، ومن بعدها بعثة أمريكية في الستينات لم تعثر أى من البعثتين على أى بناء

لكنيسة أو صومعة أو مسجد فوق كهوف إفسوس.. (وهذه المعلومات اعتمد فيها على كتاب الأستاذ رفيق وفا الدجاني وعنوانه "اكتشاف كهف أهل الكهف"، وفيه يذهب إلى وجود الكهف في الأردن كما سنذكر فيما بعد[1] وأن أقرب كنيسه لكهف إفسيس تبعد عنه نحو ثلاثة كيلو مترات من الناحية الشرقية، والكنائس الأخرى في ضاحية تسمى سلجوق تبعد نحو نصف المسافة. وعلى هذا ينفى انطباق الوصف القرآنى على كهوف إفسوس استنادا إلى التوزيع المكانى لأماكن العبادة.

ويدعم وجهة نظره بأن المساجد هى الأخرى يقع أقربها على بعد عدة أميال من كهوف إفسوس، وأشهرها مسجد القلعة العثمانية على تلة أيا صولوك في ضاحية سلجوق. وحتى إذا كان المسجد قريبًا أو فوق الكهف، فإنه بيقين متأخر زمنا عن العهد الذى تتناوله الدراسة.

ورغم هذا كانت عناية المسلمين قديمة بالكهف ومحاولة التعرف على المزيد من المعلومات عنه لتكون للقرآن شروحا عملية ملموسة. ويذكر المؤلف أن هذه العناية ترجع إلى عهد الخلافة الراشدة وأنها استمرت في الدولتين الأموية والعباسية، وينقل عن ياقوت في معجمه (٢ : ٨٠٤) أن الخليفة الواثق وجه محمد بن موسى المنجم إلى بلاد الروم للنظر إلى أصحاب الكهف والرقيم

وذهب آخرون إلى أن إفسوس القريبة من أزمير ليست المقصودة وإنما مدينة أخرى تحمل نفس الاسم أو قريبًا منه، "أمسيس" من تغور طرسوس بين حلب وأدمينية وانطاكية وهى قريبة من"مرعش الحالية" وكان من أهلها صالحون من النصارى يقاومون عبادة الأصنام. وتلتقى هذه القصة مع السابقة في أنها حدثت في زمن دوقيوس أو دقيانوس.. الذى ملك في حدود ٢٣٧ ميلادية.. وكان متعصبًا للديانة الرومانية الوثنية شديد البغض للنصرانية.. فالقصة بهذه الرواية إلى بلاد الشام أقرب وباليهود أو النصارى الذين سألهم كفار قريش أشبه.. ولكن لماذا نتابع العناية بهذا الموقع وما علاقته بالتحدى؟

---

(١) يراجع في هذا:
رفيق وفا الدجانى: اكتشاف كهف اهل الكهف . مؤسسة المعارف بيروت ١٩٦٤ ص ١٠٦- ١٠٧

٨- متابعة لموقع الكهف

ذكرنا موضعين مقترحين للكهف أحدهما وهو الأشهر قرب إفسوس غير بعيد من أزمير في أقصى غرب آسيا الصغرى، وهو الذى ارتبط أكثر من غيره بالقصة، والثانى في جبال طوروس إلى الشمال من خليج الاسكندرونة.

وتتسع الدائرة لتشمل أماكن أخرى مقترحة نذكر منها أثنين قبل أن نعرض أقربها في الأردن الحالية، والذى تنطبق كثير من صفاته على الكهف القرآنى.

ويذكر القرطبى في تفسيره نقلا عن أبن عطية قوله: "وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى "لوشة" كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة(والرمة بالكسر: العظام البلية) وأكثرهم قد تجرد لحمه وبعضهم متماسك وقد مضت القرون السالفة، ولم نجد من علم شأنهم أثارة. ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف. دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة هجرية. وهم بهذه الحال، وعليهم مسجد وقريب منهم بناء رومى يسمى الرقيم كأنه قصر مخلق وقد بقى بعض جدرانه وهو في فلاة في الأرض حزنة (أى وعرة). وبأعلى حضرة (أى بلدة) غرناطة مما يلى القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دقيوس وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها[1].

وغير بعيد عن تونس الحالية كهوف ذكر بعض علماء الآثار من الرهبان النصارى أنها كانت مخابىء لليهود يختفون فيها من اضطهاد الرومان القرطاجنيين لهم[2].

ننتقل الآن إلى المشرق العربى وسنعرض الآن للموقع المقترح في الأردن الحالية، ومرجعنا فيه كتاب "اكتشاف كهف أهل الكهف".. للأستاذ رفيق وفا الدجانى الذى رأس بعثة الحفر في عام ١٩٦٣ م.

يقع كهف الرجيب (وهذا هو النطق الحالى للكلمة، وهو غير بعيد عن الرقيم) على مسافة ثمانية كيلو مترات جنوب شرقى عمان على مقربة من طريق القوافل القديم بين الشام والحجاز. وقد عرفه المسلمون الأوائل؟ ذكره المقدسى

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بين عاشور ٥:٢٦٤ تفسير القرطبى ١٠: ٣٥٨، وانظر التحرير والتنوير ٥: ٢٦٥

(٢) تفسير القرطبي ١٠: ٣٥٨، وانظر التحرير والتنوير ٥: ٢٦٥.

في أحسن التقاسيم، وياقوت في معجم البلدان، كما ذكره البيرونى في كتابه الآثار الباقية.. وغيرهم.

١) وبقايا الكنيسة فوق كهف الرجيب تمامًا. وعلامات الصليب على الحجارة واضحة وكذلك على الحجارة التى كانت تغطى المدفن.

٢) وإذا كان المسلمون منذ صدر الإسلام وهم في شك في مكان أهل الكهف،أهو في تركيا (غربًا أو جنوبًا) أم في الأردن، فإن حفريات الرجيب ألقت ضوءًا مرجحًا لهذا الكهف على الكهوف الأخرى.

٣) ولقد كان من نتائج الحفريات في كهف إفسوس وكهف الرجيب أن ظهرت مئات المدافن في كهف إفسس، مبنية من الطوب، أما في كهف الرجيب فظهرت ثمانية مدافن أساسية منقورة في الصخر وهى بيزنطية. استدل عليها من الزخرفة التى عليها ومن النقود النحاسية التى عثر عليها في أثناء الحفر ومن قطع الفخار أيضا.

٤) ولم يعثر في كهف إفسوس على نقوش وكتابات،كما عثر عليه في داخل كهف الرجيب. في كهف إفسوس مخطوطة واحدة بالخط اليونانى الحديث. وأسماء بعض زوار الموقع من القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى. أما كهف الرجيب فجدرانه مليئة بالخطوط والنقوش الكوفية واليونانية القديمة والثمودية.

٥) تبين أن باب كهف إفسوس من الشمال الشرقى · وباب كهف الرجيب من الجنوب (ولنا عودة إلى دراسة+ باب الكهف في الرجيب) ويقع كهف إفسوس على سفوح جبل يناير داغ من الجهة الشرقية. أما كهف الرجيب فيقع على سفح الجبل من الجهة الجنوبية.

ومن هنا يتضح - بقول الأستاذ الدجاني - أن آية الشروق لا تنطبق على كهف إفسوس كما أكد ذلك المؤرخ جيبون وغيره في كتابه "انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية" (الجزء الأول ص ١١٩٩) وهى تنطبق تمامًا على كهف الرجيب. إذ يقول سبحانه في سورة الكهف: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ (أى في الداخل) ولقد عثرنا على الفجوة - والقول للأستاذ الدجاني - في كهف

الرجيب. وقد ذكرها المقدسي في كتابه. ولم يعثر على فجوة في كهوف إفسوس..والشمس تدخل كهف أفسوس عند الشروق فتضرب بأشعتها لداخل الكهف (لأن الفتحة شمالية شرقية) أما في الرجيب فلا تدخله،وإنما تزاور عنه لا نحراف الفتحة نحو الغرب.. وأطراف الجبل من الشرق والغرب مفتوحة،وأمامه سهول واسعة يمتد في أفقها النظر إلى مسافات بعيدة.

٦) إن تاريخ أقدم كنيسة في أفسس يرجع إلى القرن الأول الميلادى.

وتاريخ هذة الكنيسة متقدم عن تاريخ أصحاب الكهف لأن أصحاب الكهف كما (أثبتته جميع المصادر الإسلامية والأجنبية قد ظهروا زمن الملك تيودوسيوس الثانى بين ٤٠٨،٤٥٠ م. وتاريخها يخالف منطوق الآية الكريمة ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ أقول: وكلمة "جميع" المصادر التى ذكرها الأستاذ الدجانى أتحفظ عليها مؤقتًا لأناقشها عند ذكر العبرة من القصة ومنهج القرآن في العرض. وكيف استقل بأهداف محددة،بحيث تقطع الطريق على أى خور مقبل في التفاصيل، وليتجه المسلمون إلى العبرة العميقة في هذه القصة بخاصة وفى التاريخ بعامة، وفى أسلوب الحوار مع قريش وأهل الكتاب..

فبناء المسجد ـ و هو مكان السجود لله ـ صومعة أو كنيسة ينبغى أن يكون في زمن تيودوسيوس أو بعده لا قبله. في الرجيب تبين أن تاريخ الصومعة فوق الكهف،والتى أحالها المسلمون إلى مسجد ترجع بتاريخها إلى زمن الملك جستيوس الأول بين سنة ٥١٨ ثمانية عشرة خمسمائة وسنة ٥٢٧ سبع وعشرين وخمسمائة. واستدل الباحث على ذلك بالنقود والفخار البيزنطى الذى عثر عليه في أثناء الحفر. وقد ثبت أن المسلمين الأوائل بنوا المسجد فوق جدران الصومعة تمامًا دون تغيير في المساحة وأضافوا المحراب إلى الحائط الجنوبى. وهو حائط القبلة ٠ ومن الشرق مكان الوضوء ودرج المئذنة مع بعض الحيطان وأقدم تاريخ للمسجد يرجع إلى عهد عبد الملك بن مروان أو ما قبله. ذلك بالعثور على نقود عبد الملك بن مروان عند المحراب مع الفخار الأموى.

وعندما زار ابن بطوطة مدينة آياسلوق (فى آسيا الصغرى) لم يتعرض لذكر الكهف مطلقا.. ولو كان حكامها الأتراك يعتقدون أنه الكهف المعنى في القرآن لبنوا عليه مسجدا..

وبتجميع هذه الخيوط يترجح كهف الرجيب وتكون عمان المدينة المعنية وزمن اللجوء إلى الكهف أيام الطاغية تراجان كما أثبت الحفر والتنقيب. وعمان مدينة مأهولة من قديم حصينة يسهل الدفاع عنها، والانطلاق منها، قديمة الحصون والأبراج والأسوار.

وقد فتحها تراجان عام ١٠٦ م وبنى فيها المدرج الرومانى أكبر مدرجات الشرق على الإطلاق، ويتسع لعشرة آلاف متفرج وأقام فيها الأبنية العامة والأسواق وشق الشوارع وأنشأ الحمامات، ولا تزال بقايا من هذه ماثلة حتى الآن. وكانت وقتئذ ملتقى طرق تجارية من الشمال إلى الجنوب والغرب ولها صلاتها بالبادية. وبنى المعابد.. مع العمران المدنى كان هناك إيغال في الوثنية ودفاع عنها.. مما يرجح وقوع الاضطهاد على أى مخالف لدين الدولة.

هذه أدلة ترجح بها كفة كهف الرجيب: المدينة هى عمان الوثنية قائمة فيها، يحميها حاكم باطش قوى، ازدهار الحياة وقتها، ولم يجد الشباب المؤمن أمامة وسيلة إلا أن يدع هذا الترف القاتل والوثنية الباغية إلى كهف يحتمى فيه من سيل الطغيان.

هذه هى أهم الأدلة التى ترجح كهف الرجيب، ولكن ـ مع كل هذا ـ هناك آراء أخرى حاولت أن ترشح أو ترجح أماكن أخرى ومن أهم ما قيل موقعان:

- الأول: كهوف البتراء: والبتراء مدينة كاملة منحوتة في الصخر ازدهرت مع التجارة، واضمحلت مع تحول طرقها. ولا ينطبق وصف الكهف عليها كذلك تتابع المبانى: ونقصد بناء المعبد فوق الكهف.
- الثانى: كهوف جبل قاسيون شمالي دمشق.. وفى هذا الموقع غيران تنسب إلى عدد من الأنبياء وذريتهم وصالحين: آدم. ابراهيم. مغارة الدم المنسوبة إلى قصة ابنى آدم. مغارة الربوة ويقال إنها مريم وعيسى عليهما السلام.. والبعض يربطها بقصة موسى والخضر..

ولا علاقة لهذه الغيران بالقصة وقد ذكرناها استكمالاً للحصر، وإن ذهب بعض كتاب الغرب مذاهب بعيدة فقالوا بوجود الكهف المعنى.. في الجزائر البريطانية.. بل ذهب به بعضهم إلى اسكندناوة الحالية..

والآن لماذا ذكرنا هذه التفاصيل؟ للمعرفة أولا، ثم لتحديد المنهج القرآنى الذى تجنب الكثير وركز على الأصيل.

٩ – زمان أهل الكهف

هناك جملة تستوقف النظر في تفسير الإمام ابن كثير عند شرحه قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾. وهى التركيز على الهدف الأساسى من القرآن توحيدا لله وعبادة وعمرانا للحياة..

ويُنقل عن ابن عباس " الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم". وقال محمد بن اسحق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

ثم يقول تعقيبًا على قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ يقول: وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم. فالله أعلم والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية فإنهم لو كانوا على دين النصرانية. لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم. وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذى القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب، وأنه متقدم على دين النصرانية والله أعلم.

وانتقل ابن كثير بعدها إلى شرح قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

هذا التعقيب الذكى من ابن كثير يثير تساؤلاً جديرًا بالوقوف عنده:

إذا كان المسئولون هم أحبار اليهود فلماذا يذكرون قصة عن النصرانية التى لا يؤمنون بها؟ والتى يرفضونها كما يرفضون الإسلام.. وإن وجدوا بشارات ذلك في كتبهم؟ من المنطقى أن يكون التحدى بأمر من كتبهم. هم به مصدقون، أو - على الأقل - من تاريخهم إذا كان بعد رسالة المسيح.

هذه النقطة. وقف عندها الاستاذ محمد أسد في ترجمته لمعانى القرآن الكريم التى نشرها في طبعتها الأولى عام ١٩٨٠ م باسم. رسالة القرآن[1] بمناسبة مطلع القرن الهجري الخامس عشر.

ومحمد أسد اعتنق الإسلام بعد دراسة علمية ورحلات واسعة في العالم الإسلامى وبخاصة في الجزيرة العربية. وباكستان وما بينهما. وله إلمامه الكبير بالدراسات الدينية المقارنة: اليهودية التى نشأ فيها، المسيحية التى عاش بين أهلها، الإسلام الذى اعتنقه، ثم الديانات الأخرى التى خالطها بوصفه صحفيًا أول الامر ثم دارسًا أكاديميًا بعد ذلك ومن أشهر كتبه (الإسلام على مفترق الطرق، الطريق إلى مكة، الحكومة الإسلامية) ثم ترجمات لأحاديث مختارة. والكتب الثلاثة الأولى مترجمة إلى أكثر من لغة. وفى كتابه الأوسط "الطريق إلى مكة " يشرح رحلاته في الجزيرة العربية واهتداءه إلى الإسلام.

وقف محمد أسد عند هذه العبارة من تفسير ابن كثير. وأن قصة أهل الكهف ليست أعجب من القرآن أو مما جاء فيه[2] وأن أغلب المفسرين يرجعونها إلى عهد الامبراطور دوقيوس في القرن الثالث الميلادى وما حدث فيه من مذابح المسيحيين. وأوى الفتية إلى الكهف في رقادهم الطويل وتغيرت في أثنائه أحوال المسيحية وأصبحت الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية. وكان الدليل على زمان الفتية ما معهم من نقود ترجع إلى عهد دوقيوس.. هى التى ربطت بين بدء النوم وزمن اليقظة، وهو الذى حدده القرآن "ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا".. هذا ما تذكره المصادر المسيحية وما ذهب إليه معظم المفسرين.. مع هذه الملاحظة العميقة لابن كثير.

---

(١) M .ASAD: THE Message af the Quran ١٩٨٠ · جبل طارق · دار الأندالس

(٢) محمد أسد: المرجع السابق حتى ٤٣٧ – ٤٤٠

يقول محمد أسد: ولعل القصة المسيحية هى تطوير لاحق لقصة قديمة تعود إلى ما قبل المسيحية وإلى مصادر يهودية. ولو أننا عزلنا عن القصة رداءها المسيحى وخلفيتها التى أضافها إليها المسيحيون فستكون القصة يهودية المصدر، ولو أردنا أن نلخص القصة كلها في حقائق محددة. لوجدناها انسحابًا اختياريًا من العالم مدة طويلة كأنها نوم طويل. مع غار منعزل،ثم يقظة معجزة بعد حين من الدهر.. هذا الانسحاب والاعتكاف الطويل يذكرنا تجربة دينية حدثت في القرون السابقة لمجيء المسيحية مباشرة وهى حركة الزهد التى قام بها الاخوان الاسينيون (ولعل المسيح في صدر شبابه كان من بينهم كما يقول محمد أسد) ولقد عاشت جماعات منهم في كهوف منعزلة في سفوح البحر الميت. حيث اكتشفت حديثا لفائف البحر الميت. وقد عُرِفَ هؤلاء باسم "مجمع قمران"، ولفظ "الرقيم" الوارد في القرآن الكريم يُعطي دعمًا لهذه النظرية والرقيم. ومرقوم. وكتاب تلتقى عند أصل واحد هو الكتابة.. ولقد أفرغ الاسينيون أنفسهم في مجتمع قمران لدراسة ونسخ وحفظ النصوص المقدسة وعاشوا في كهوفهم بعيدين عن الدنيا، وكان لهم في المجتمع الخارجى مكانة وتقدير.. ولعل نمط حياتهم كان له أثر عميق على التفكير المسيحي تبلور في قصة الكهف وأصحابه الذين "ناموا" سنين، وانقطعوا عن الدنيا سنين عددا، وأن يقظتهم تعنى عودتهم إلى الحياة العامة بعد أداء مهمتهم الروحية".

ومهما يكن مصدر هذه القصة،يهوديًا أو مسيحيًا – فإنها جاءت في القرآن الكريم تأكيدًا أولاً لقدرة الله على البعث والحياة بعد الموت. اليقظة في الآخرة.. بعد النوم الطويل في القبور. وثانيًا: لبيان موقف المؤمنين إذا فسد من حولهم الزمان، وألجأهم هذا الفساد إلى اعتزال عبث الحياة والأحياء، حتى يحفظوا دينهم نقيًا.. وأن رحمة الله تدرك هذه العزلة المؤقتة فترفعها إلى يقظة تعلو الموت والزمان.

هذا عرض لما ذهب إليه محمد أسد.. وقد لجأ إلى تفسير ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ بالعزلة عن الحياة العامة وإلى تفسير ثم بعثناهم. بعودتهم إلى الحياة العامة،بعد أن فرغوا سنين للبحث الخالص في النصوص المقدسة.

وقد نستطيع أن نذهب مع محمد أسد إلى المصدر القديم للقصة،ولكن لن نستطيع أن نخرج عن النص القرآنى فهو وحى الله الذى أنزله على رسوله عليه الصلاة والسلام ولنلاحظ هنا مرة أخرى أن النص القرآنى لم يحدد "زمانا" للقصة وبهذا ارتفعت الآيات فوق مستوى الحوار حول الزمان، كما ارتفعت من قبل فوق مستوى الحوار حول المكان.

ولكنها استبقت من المكان بعض أوصاف الكهف، واستبقت من الزمان ما كان فيه من صراع بين التوحيد والوثنية.

وهناك تفسيرات لمعانى القرآن باللغة الإنجليزية وبعض لغات العالم الإسلامى عرضت لقصة الكهف من زوايا أخرى.. ونكتفى منها بنموذج جاء في ترجمة معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزية والتى قام بها مولاى محمد على وصدرت عن "الجماعة الأحمدية لنشر الإسلام" وهي إحدى شعب القاديانية: في لاهور بباكستان.

هو يربط بين القصة وتاريخ المسيحية: فالكهف عنده هو رمز فترة الدعوة السرية في حياة المسيحية. أما الرقيم " والمقصود به الكتابة فهو بدء الإعلان بالدعوة"[1]. وهى المستمرة في المسيحية حتى الآن. يقول المترجم والشارح: وكأن القرآن قد اختار هذين الرمزين لهاتين المرحلتين الأساسيتين في التاريخ المسيحى: الأسرار والإعلان: الكهف والرقيم. أو دين رهبان تحول إلى دين أعمال (ولعله يقصد التحول من الترهب إلى التجارة والتكسب بالدين). وعلى هذا المنهج أخذ في تأويل الكلمات الأخرى: ضربنا على آذانهم،منعناهم من السمع أو قطعناهم عن العالم من حولهم عددًا من السنين. ثم يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إن القرآن لم يؤكد وجودهم في الكهف مئات السنين،ولا أكد أنهم ناموا هذه المدة.. وعندما جاء إلى آيـة ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ قال في الشرح إن بعض المفسرين يضيفون كلمة ويُقال قبل الآية كأنها قول قيل وليست حقيقة قرآنية. وأورد نص الترجمة مطابقًا للآية فقال: "ولبثوا في كهفهم"..

(١) مولاى محمد على: الترجمة الإنجليزية وشروح القرآن الكريم، .الطبعة السادسة ١٩٧٣ ص ٥٦٩–٥٧٠.

وانتقلت من تفسير مولاى محمد على القاديانى إلى ترجمة ظفر الله خان القاديانى وكانت طبعته الأولى عام ١٩٧٦ والطبعة التى أمامى هى الثالثة عام ١٩٨١. فإذا الذى ذكره مولاى محمد على في شرحه قد حمله ظفر الله خان إلى النص (وترجمة دون شروح) فقال في الآية الكريمة " يقول البعض: ولبثوا في كهفهم " وهى إضافة من عنده لا أساس لها في النص القرآنى..

وهكذا حمل القصة على الرمز.. والسنوات إلى أقوال.. والمدة مردها إلى الله، وهكذا سار بعض المفسرين بالقصة من الحقيقة إلى الرمز.. وتحركوا بها زمانا ومكانا.. وليس لنا ولا أمامنا إلا النص القرآنى نعود إليه دارسين وإذا كان على الملاح أن يعرف صخور الطريق.. فهو يعرفها ليتبين الطريق السوي، ويتجنب الاصطدام بالصخر.. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١٠ – طريق إلى الله ومعرفة بالأرض

يقول الله تعالى:

﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾.

نقف عند لفظ "الكهف" وتحديدا عند الألف واللام في صدر الكلمة. فهو كهف معروف لديهم ومحدد. ولم تقل الآية الكريمة إذ أوى الفتية إلى "كهف" أي كهف.

ولايأتى هذا التحديد إلا بعد معرفة. ولا معرفة إلا بعد دراسة. ولا دراسة إلا بعد تجول طويل وفهم لما حول المدينة. وكأن ما حول المدينة كان أقرب إلى نفوسهم مما فيها. وماذا كان فيها سيخبرنا الفتية بما كان في المدينة من كفران وجحود وبُعد عن الله تعالى. لاتقف الآية كثيرًا عند زمان ولا مكان وإنما تحدد أولاً أعمار هؤلاء المؤمنين.. "فتية" في عمر الزهور والشباب مظنة الإغراء، والانسياق وراء الملذات القريبة. ولكنهم انصرفوا عن ذلك،وأحبوا ما حول المدينة.. هناك يشاهدون الكون في امتداده وآفاقه. السماء فوقهم قبة مضيئة بالنجوم ليلا،حانية الأطراف نهارا. وفى سكون البادية تستطيع أن تسمع الوجود.. الصامت أمام كثيرين،الناطق أمام المؤمنين.. وفى كل شىء له آية تدل

على أنه الواحد. هذه المدينة المائجة بالفتنة والمقربات بعيد عن قلوبهم،وهذه البادية الطاهرة الأرض والأفق هى القريبة.. فلنتجول فيها، فقد نحتاج إلى غار نأوي إليه.

واضح من التحديد أنهم درسوا الكهوف والغيران حول المدينة،وأنهم قد اختاروا هذا الكهف ليكون مأواهم إذا احتاجوا إليه..

هل نستطيع أن نرى في هذا توجيها في هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام؟

لا نستطيع أن نقول إنه اختار غار حراء ليعتكف فيه دون دراسة،ولا نستطيع أن نقول إنه اختار غار ثور ليأوي إليه وهو على طريق الهجرة دون دراسة.

تمر كتب السيرة مرورًا سريعًا على "اختيار" موقع الغار الأول والثانى. ولكن منهج المصطفى عليه الصلاة والسلام في التحري الدقيق لأعماله لا يدع لنا إلا قولاً واحدًا: هو أن اختيار الغار كان عن دراسة، وأنه أمضى أيامًا وأيامًا يتجول في جبال مكة،ليحدد الغار الذى سيلجأ إليه.. قام بهذا أو قام بهذا أحد أقرب الناس إليه. بدليل أن الغار كان معروفًا عند تنفيذ الهجرة لكل من أبى بكر وأسماء وعبدالله بن أبى بكر وعامر بن فهيرة ثم عبدالله بن أريقط.. ومن المنطقي أن يكون معروفًا لأقرب أهل بيته فكما في أمر الهجرة وهو على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين.

فتية الكهف درسوا وأختاروا واستعدوا.. فما جاء الوقت المعلوم. أوى الفتية إلى الكهف فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا"

فهم قد خرجوا لله تعالى فرارًا من الفتنة وبطش الحاكم ومن معه. وما معهم: وصفهم الله: أصحاب الكهف والرقيم.. وفى الرقيم تتعدد الأقوال: ولعل أقربها صحائف مما آمنوا به، هى زادهم الفكرى والروحى. ومال قليل: ماذا يغنى وإلى أى أمد يستطيع أن يكفل أمرهم. وكلب حارس باسط ذراعية بالوصيد. وماذا أقل؟ أوراق ومال قليل وحراسة كلب.. هذا أمام جبروت المدينة وبطشها.

لكن كان عندهم مدد لا ينفد: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أمام جبروت المدينة وبطشها.

لقد خرجنا من أجلك، واعتمادنا عليك وامتدادنا منك وثقتنا فيك. فآتنا ربنا من لدنك رحمة.. وماذا بعد أن يفرغ المال وهو قليل،وعلينا أن نطعم أنفسنا وهذا الحيوان الأعجم الذى ربط مصيره بنا طعاما شرابا ومأوى.. كيف إذا احتجنا إلى طعام؟ وماذا لو دبرناه فترة ثم احتجنا إلى طعام جديد ومال جديد؟.. كل هذا جمعوه في دعائهم ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

ويأتى أمر الله دون أن يشعروا به ولا أن يقدروه: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾

وهذه مفارقة واضحة حين نقارنها بالهجرة النبوية من عدة زوايا:

الأولى: أن هجرة أهل الكهف كانت من المدينة إلى الكهف.. **أما الخطوة التالية** فلم تكن معروفة لديهم. وعندما أيقظهم الله.. لم يدروا كم ناموا.. وكان الذى فكروا فيه أن يحصل أحدهم على طعام من المدينة، دون أن يشعر بهم أهلها.. وحتى بعد هذه: لم تكن الخطوة واضحة.. نستطيع أن نقول: إنه خروج من المدينة إلى إيواء مؤقت.: وإذا أردنا له تشبيهًا أقرب في حياة الدعوة الإسلامية،كان من بعض جوانبه كالهجرة إلى الحبشة: هجرة إيواء حتى يجعل الله للإسلام مخرجًا من مكة.

أما هجرة المدينة فكانت محدودة المعالم واضحة البدء والنهاية ومراحل الطريق كانت عملاً علميًا مؤمنًا منظمًا وكانت فتحًا لأفق جديد وقاعدة جديدة ينتشر منها الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها.

ثم يلتقى خروج أهل الكهف وخروج المصطفى من مكة في رحمة الله السابغة بعد بذل الجهد:

أما في الكهف فيتمثل في قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ۝ ﴾
وأما في الهجرة فانظر قوله تعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ (التوبة: ٤٠)

تنزلت رحمة الله على فتية الكهف بعد أن اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله، وآووا إلى الكهف.. وكان هذا آخر ما عندهم من جهد.. وكما سبق القول: اختيار مكان الغار. كتب الدراسة: الرقيم. المال القليل الذى يملكون كلب الحراسة الذى صحبهم.

وتنزلت رحمة الله على رسوله وأنزل عليه السكينة. بعد الجهد الذى بذله في تنظيم أدق أمور الهجرة: اختيارًا للموقع والأفراد وتوزيعًا للمسئوليات بينهم، وإعدادًا للرواحل لمتابعة الهجرة إلى قاعدة الإسلام في المدينة..

ومع أن الآية الكريمة تنص بوضوح على إنزال السكينة على المصطفى عليه الصلاة والسلام وتنص على أن الله سبحانه تعالى " أيده بجنود لم تروها. فلا نستطيع التحدث فيها إنها من غيب الله المحجوب ظهرت آثاره في نجاة المصطفى عليه الصلاة والسلام وصاحبه الصديق أبي بكر رضى الله عنه، وفى الستر الذى ألقاه الله تعالى على كل من شاركوا في مسئوليات الهجرة رجالا وشبابًا ونساء: من بيت المصطفى أو بيت أبى بكر أهلاً أو أتباعًا أو أهل ثقة كعبد الله بن أريقط دليل الرحلة، ولم يكن وقتئذ قد اعتنق الإسلام.

ولقد كانت النجاة في قصة الكهف نومًا وانعزالاً وبعدًا عن واقع الحياة اليومية، وكانت النجاة في الهجرة النبوية تفاعلاً قويًا مع أحداث مكة والمدينة.

أخبار مكة كانت تصل يومًا بيوم مع عبدالله بن أبى بكر إلى الغار، الطعام يصل مع أسماء، اللبن مع أغنام عامر بن فهيرة.

الرواحل وهى وسيلة الاتصال بالمدينة معدة في الانتظار، مجهزة هى والدليل على إشارة من الرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن يتأكد من انقطاع البحث، ثم ينطلق الركب الميمون في طريقه إلى المدينة.. حتى العامل النفسى كان في حسابات المصطفى ﷺ.

الهجرة النبوية كانت يقظة دائمة.. وكانت هجرة أهل الكهف يومًا طويلاً. وكل من الهجرتين بأمر الله تعالى. هذه طاعة وهذه طاعة. ولكن هذا زمان ومنطق. وهذا زمان ومنطق، ومنطق أهل الكهف انعزال أمام القوة الباغية. والمنطق المحمدى تغيير للموقع لاتخاذ قاعدة جديدة ينطلق منها الإسلام ويتكون فيها المجتمع الجديد بتماسكه الداخلى وقوته الضاربة التي تستطيع أن تحمى العقيدة. وتقوم بنشرها.

ألا يفتح هذا المجال أمامنا لدراسة المنهج القرآنى، ومدى ارتباط كل قصة من قصصه بقصد وهدف.. لنخلص إلى الربط بين هذا القصص، وكيف جاء القرآن كما نصت على ذلك الآية الفاتحة في سورة الكهف: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا ﴾. إنه الصراط القيم على ما سبق.

١١ ـ الحياة في الكهف

يقول الله تعالى عن فتية الكهف: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾.

عاش الفتية في الكهف سنين عددا معزولين عن الحياة العامة " فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ".. حال الله بقدرته بينهم وبين السمع في هذه الفترة.. والضرب على الآذان كناية عن النوم الثقيل. فهو يستلزم عدم السمع. والسمع السليم لا يحجبه إلا النوم، هذا غير البصر الصحيح فقد يُحجب بتغميض الأجفان.

الآذان لا نغلقها حين ننام. ولكن العيون نغمضها.. وسيأتى ذكر العيون بعد ذلك. إن السمع طريق مفتوح دائمًا للعالم الخارجى: وما جرى عليهم ـ والله أعلم ـ جرى على كلبهم أيضًا. وهو أشد إحساسًا بالمسموعات من الإنسان.

وسنين عددا كثيرة. والعدد هنا مجمل لإجمال القصة قبل تفصيلها ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

والبعث هنا: الإيقاظ. ولفظ البعث هنا للربط بين القصة وبعث الآخرة.

وتنص الآية على حزبين أختلفا في مدة اللبث في الكهف ونحن نقرأ تعدد الآراء حتى بين أهل الكهف. كما سيرد في آيات تالية:

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ وكذلك أهل المدينة، بعد أن بعث الله أهل الكهف وتساءلوا: من أى عهد هم؟ ولم يصدقوا الشاب الذى جاء يطلب الطعام. السن سن شباب. والنقود التى معه قديمة تعود إلى ثلاثة قرون. فمن يصدقون الشاب أم النقود التى معه؟ وإذا كان صادقًا فكيف عاش والذين معه؟ وإن كان غير ذلك فكيف يجرؤ على هذا الافتراء في زعمهم.

ولا يزال الخلاف قائمًا.. حتى بين المفسرين المحدثين حتى ذهب بعضهم إلى الرمز وفسر النوم بالاعتكاف، والرقيم بالعكوف على الكتب المقدسة..

وخرج القرآن من هذا بقوله على لسان الشاب في أول الأمر: ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾.

ثم جاء التحديد في آيات لاحقة: ثلاث مائة سنين لو حسبناها شمسية وازدادوا تسعا لو حسبناها قمرية.

بعد هذا يقص الله علينا قصتهم مفصلة. والتفصيل فيها يخدم هدف القصة والعبرة: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ

هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾.

فالقرآن هو القصص الحق. وآياته يصدق بعضها بعضًا وعلينا في الدراسة أن نستحضر مرحلتين من الإعجاز الإلهى إحداهما سابقة للإسلام. والثانية هى حجة الإسلام.

ما قبل الإسلام معجزات كونية وحسّية: شق البحر أمام موسى. تحول عصاه إلى حية. يده بيضاء من غير سوء. تفجر الماء من الصخر... وينص القرآن على أنها آيات بينات تؤكد نبوته:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ (الإسراء:١٠١- ١٠٢). والمثبور هو الذى أصابه الثبور وهو الهلاك.

وفى نفس سورة الإسراء وهى السابقة مباشرة في الترتيب المصحفى للكهف نقرأ تحدي قريش الرسول أن يأتى بآيات كونية: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

لم تأت رسالة الإسلام مؤيدة بالمعجزات الكونية. وفى سورة واحدة أمامنا وهى الإسراء نرى لموسى عليه السلام تسع آيات بينات.. ونسمع قول الله بعلمه

المصطفى عند التحدى بالآيات الكونية: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾

ثم نقرأ بعدها مباشرة: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾

فلابد أولا أن يكون الرسول من جنس البشر.. ولقد جاءت الآيات الكونية، وكذبت بها الناس أو بعضهم. وأخذهم الله بذنوبهم: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

جاءت الآيات الكونية وذهبت: أين سفينة نوح؟ أين عصا موسى؟ أين الرجل الذى أحياه عيسى بإذن الله؟ أين من شفاهم بإذن الله؟ أين ناقة صالح؟ أين حمار العزيز؟... ذهب هذا كله وبقى الدليل الحق والحي عليه هو القرآن الكريم.

إن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى الباقية، التى تؤكد حدوث المعجزات الكونية السابقة، ولكن لتسلك بالإنسانية نسقا جديدا معجزها كلام الله الباقي الهادي.. ولنستمع إلى قول المصطفى عليه الصلاة والسلام موضحًا الفرق بين العهدين والمعجزتين والمنهجين وهما جميعًا من عند الله: "ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيت وحيًا أوحى الله إليَّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة". رواه مسلم عن أبى هريرة.

فالقرآن الكريم جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتاب مهيمنًا عليه. جاء قيمًا لاعوج فيه. يؤكد المعجزة الكونية ولا يتابع مسيرتها وإنما يضع في يد الإنسانية المصباح المنير الدائم الإشعاع: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم

﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ (المائدة: ١٥ — ١٦).

فرق كبير بين تأكيد حدوث معجزة قديمة وتكرار حدوثها بعد نزول القرآن الكريم، إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحي الموتى كما أحيا عيسى بإذن الله ولكن أحيا الإنسانية بنور القرآن الكريم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الانعام: ١٢٢).

وجاء هذا القرآن شفاء.. لا يشفى مجرد فرد من مرض ولكن يشفي نفوسًا على امتداد الزمان والمكان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (يونس: ٥٧ — ٥٨).

الفرق الرئيسي بين المعجزات السابقة وبين القرآن الكريم، هو الفرق بين التاريخ والحاضر المتجدد بين الماضى والاستمرار، المعجزات قبل الإسلام مضت وانطوت صحائفها، ولم تبق إلا نصوصا مكتوبة أما القرآن فالمعجزة الباقية، والتحدى به دائم متجدد.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ الإسراء. والتصديق بالمعجزات السابقة هو التصديق بحدوثها في وقتها لا بتجدد وحدوثها ولا تكرارها. والاطار المعجز والعقلى الذى نعيش به هو القرآن الكريم..

وما من معجزة جاءت في سورة الكهف إلا ولها نظائرها في مواطن أخرى من القرآن الكريم.. فليس فيها شيء فرد لو تأمل الإنسان السورة بعمق:

ما بين أهل الكهف والقصة التي ذكرها الله في سورة البقرة ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ (أى لم يتغير) وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ (البقرة: ٢٥٩)

١٢- المعجزة في ذاتها قانون

في القرآن الكريم نماذج متعددة ومتنوعة من النوم والموت القصير والطويل، في عالم الإنسان والحيوان.

ونستطيع أن نضع العبارة في صياغة أخرى: "في القرآن نماذج متعددة من الحياة والإحياء القصير والطويل في عالم الإنسان والحيوان".

وبهذا لا تكون قصة الكهف بدعًا في قصص القرآن ولا قصص الأنبياء، وأول هذه النماذج أبونا آدم عليه السلام يقول الله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ (ص: ٧١: ٧٢) ثم تأتى أمنا من ضلع أبينا حياة من حياة ويأتى الأبناء: حياة من حياتين، ويأتى عيسى: حياة من أم ونفخة من روح الله.

وتشهد التبادل بين النبات والحيوان في قصة موسى:

- عصاه: نبات هى أم حيوان زاحف؟ وأى حيوان؟ يلقف غيره من الحيوانات – أو الحيات – ثم يعود عصا فأين ذهبت الحيات المأكولة.. بل أين الثعبان الذى كان؟

والطيور في قصة ابراهيم؟ ما أمرها؟ نقرأ معا قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

(البقرة: ٢٦٠)، فصرهن: قطعهن.

كان سؤال إبراهيم عن "كيف" فلم يبين الله كيف وإنما أراه الظاهرة فقط: الإحياء. ووضع في يده – إلى حين- القدرة على أن تستجيب له الطيور الممزقة إذا دعاها. أما كيف " فهذه من عزة الله حكمته ومما استأثر بعلمه.

ويذهب بعض المفسرين إلى الرمز في هذه القصة: فإحياء الموتى هى الدعوة إلى الله. وصرهن إليك هى التربية الودود التى تلين بها القلوب وتستجيب لأمر الله فإحياء القلوب الميتة يكون بالدعوة إلى الله برفق وأناه...

ننتقل الآن إلى تباين فترات الموت أو الرقاد

ولعل أقصر الفترات ماحدث مع عيسى عليه السلام. في هذا تقرأ قوله الله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ (المائدة: ١١٠) ففى الآية ظاهرتان من الإحياء: الأولى من الطين والثانية بعد الموت.

وكان الذى أحياها عيسى بعد أيام من موته الأول كما هو مشهور وتطول المدة في قصة العزير التى سبق ذكرها حتى تصل إلى مائة عام.

ثم تطول في قصة الكهف بعد نوم طويل استمر ثلاثمائة سنين ازدادوا تسعا.

ثم تطول مع كل إنسان· معى. معك. مع كل حى. كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال الإكرام. تطول قرونا وقرونا. وأقرأ مشاهد القيامة في

كتاب الله مبثوثة من أول إلى آخر سورة.. اقرأ كنموذج قول الله في وصف هذا المشهد:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (الزلزلة)

ونصور البشر جميعًا على امتداد العصور والأقطار، يوم يقوم الناس لرب العالمين. الذين اختلطت عظامهم بالأرض، والأجساد التى تداخلت في أجساد، والذين طوتهم البحار، والذين التهمتهم حمم البراكين. والذين مزقتهم المعارك والحروب.. والذين امتصت أجسادهم النباتات،أو التهمتهم الحيونات، والذين طووا أجسادهم في الصحف – أو التوابيت. والذين أحرقوها أو جعلوها في حواصل الطير..

أيها أعجب؟. إطالة مدة النوم في مكان آمن سنين عددا؟.

أم جمع الخلائق بعد آلاف السنين من كل مظانها على امتداد العصور والأقطار؟.

إن كل إماتة أو إحياء من هذه قانون بذاتها. والقوانين كلها صنع الله تعالى.. الذى مات أياما ثم بعثه الله ٠ والذى أماته مائة عام،والذى أنامه ثلاثمائة سنين.. والذين أبقاهم آلاف السنين.. لكل حادث من هذه قانونه الخاص فالمعجزة التى نراها ليست خرقا لقانون إلهى، وإنما هى ذاتها قانون مضاف إلى قوانين يكشف الله لنا عنه ستر الغيب،فنراه مرة أو أكثر ثم يطويه الغيب إلى ما جاء منه.

ولك أن تقول إن كل هذه المعجزات تقع على نقاط في خط أوله خلق آدم وآخره البعث يوم القيامة.. نقاط تتحدد فيها فترات الإماتة والإحياء لحكمة لعلمها الله. بعض هذه الحكم نقرؤه في القرآن،وبعضها يدعونا القرآن إلى التأمل في ظواهر الاعتبار به دون أن ندرك الكنه أو الكيف ٠ فالكيف غيب وسر إلهى.

وإن فتية الكهف لم يطلبوا النوم الطويل ولا أحسوا به، وإنما أراد الله أن يجعلهم للناس آية والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ويصطفى من الناس من يجرى عليهم قوانين خاصة تعيد الناس إلى إيمانهم ورشدهم وتذكرهم بالحقائق الكبرى في هذه الحياة إذا صرفتهم شواغل اليوم والصراعات من أجل المناصب والجاه أو طلب الرزق.

وليس لنا أن نسأل فتية الكهف- ولو كنا في عهدهم- لماذا حدث لهم — ولهم وحدهم بالذات- هذا النوم الذى امتد قرونا فإنهم لم يكونوا أكثر من المادة البشرية المؤمنة التى أختارها الله تعالى تتجلى فيها آية من آياته.

لقد نفذوا ما عليهم الإيمان بالله تعالى. رفض الكفر والوثنية صارحوا أنفسهم وقولهم بذلك. توكلوا على الله ربهم ارتفعوا فوق شهوات المدينة الظالمة وأهوائها إلى مستوى الإيمان النقى بهذا ربطوا أنفسهم بحق الكون الكبير: - ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾

وهنا غير تأييد الله وعونه في قوله تعالى "وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ".

ونذكر في هذا ما كان من أمر أم موسى في موقفها العصيب، وابنها مهدد بالقتل، وهى عليه حريصة وقد ادخره الله للرسالة يقول تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (القصص: ٧).

ثم قول الله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (القصص: ١٠).

وبين الموقفين تشابه وتباين مع فتية الكهف:

إن الكهف تابوت ثابت. والتابوت كهف متحرك. ورحمة الله كانت مع فتية الكهف الذين ذهبوا مختارين، ومع أم موسى وقد ربط الله على قلبها وثبت إيمانها، كان مع موسى وهو لايدري من أمر نفسه شيئا.

رحمة الله التى حفظت فتية الكهف، هى رحمة الله التى حفظت موسى في التابوت الصغير، بين الماء والضفاف، السماء وهى التى حفظت المصطفى عليه الصلاة والسلام في الغار هى التى حفظت نوحا ومن معه في الفلك.

تتعدد صور الرحمة. والرحمة في ذاتها ربانية. والربط على القلوب تثبيتًا هو من آيات هذه الرحمة.. إن ربنا هو البر الرحيم.

١٣ـ معادلات قرآنية

فى قول الله تعالى:

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ معادلة لها طرفان: من الفتية الإيمان، ومن الله التأييد والربط على القلوب.

تسير أنت إلى الله في طريق هداك إليه، فتجد من الله العون والسند والتأييد.

وكثيرة هى المعادلات القرآنية التى تؤكد الترابط بين الإيمان وتأييد الله تعالى. واقرأ في هذا نماذج من القرآن الكريم:

- ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (البقرة: ١٥٢)
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (محمد: ٧)
- ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٦)
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الانفال: ٢٩)

ويضع ربنا قاعدة عامة لذلك في قوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ (غافر: ٥١)

وعند قول الله "والذين آمنوا" نذكر أن الإيمان عقيدة وعمل. عقيدة سليمة وعمل يتكافأ مع الموقف الذى يقفه المؤمن: قد يكون الموقف استعدادا علميا، قد يكون خطة تنمية، قد يكون صناعة عسكرية، قد يكون حاجة إلى ابتكار وإبداع يتفرغ له نفر من القادرين على ذلك..

فإيجابية الإيمان، هى مقابلة الموقف بما يستحق.. وفى سورة الكهف التى نحن بين يديها نرى الإيمان مرة آويا إلى غار، ومرة نراه مشروعا لبناء سد من حديد ونحاس. ونحس في الآية الجهود المبذولة، والمواد المجموعة والتخطيط الدقيق.. وهذا إيمان وهذا إيمان. ولكل من الموقفين عدته واستعداده.

ومرة نرى الإيمان صبرًا وتماسكًا داخليًا في نفس فرد كما في قصة صاحب الجنتين، ومرة نراه صبرًا وتماسكًا في جماعة محدودة العدد كما في قصة الكهف، ومرة نراه في جموع كبيرة تتحرك لهدف واحد كما في قصة ذى القرنين، ومرة نراه صبرًا على التعلم والاستزادة من أعماقه وأبعاده كما في قصة موسى والعبد الصالح.

قلنا خذ من قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ (والشطط هو الإفراط في مخالفة الحق والصواب) لنأخذ من هذا أمرين:

- **الأول**: الإيمان.
- **الثانى**: مقابلة هذا الإيمان للموقف، واستعداد الفتية بما كان بين يديهم من طاقة: لجوءا إلى الغار ومعهم كتبهم ومالهم وكلبهم ثم تولت رحمة الله توجيه القصة دون أن يكون للشباب في المرحلة التالية يد تعمل..

نقرأ بعد هذا قول الله تعالى: ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾.

ولنتأمّل كلمة "قومنا" بالضمير المتصل الدال على القرب. فهم إن كفروا أو آمنوا قومنا الذين ندعوهم إلى الله، ونرجو لهم الخير. وأفضل الخير التفكير السليم المبرّأ من التقليد وعبادة الآباء والأجداد وما كانوا عليه.

التفكير = نعمة، التفكير فريضة، التفكير نور، واقرأ قول الله تعالى موجهًا رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام أن يقول لقومه:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (سبأ ٤٦ : ٥٠).

كلمة "قومنا" هنا تذكرك بدعاء المصطفى عليه الصلاة والسلام: اللهم أهد قومى فإنهم لايعلمون.

لايعلمون، علاجها أن يعلموا وطريق العلم السؤال والتفكير والحوار..

وهذا ما قاله فتية الكهف: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ هو الله الواحد القهار. وقومنا أخطأوا من ثلاث جهات:

١- تركوا الواحد إلى التعدد.
٢- تركوا الأعلى إلى الأدنى.
٣- ساروا في طريق بغير بينة ولا سلطان.

هؤلاء الذين لا يرتضون لأنفسهم إلا حاكما أو رأسًا واحدًا للدولة.. يجعلون للكون آلهة متعددة، يوزعون بينها التخصصات، ويتنازعون بينهم، كما تروي الأساطير القديمة.. ما الدليل وما البينة؟

وإذا انعدم الدليل، فقد الغرم المستدل عليه: وهو هنا التعدد والدونية.. من أجل ذلك جاء في قول الفتية: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾.

فالذي فيه قومنا افتراء وكذب: كذب على الله، وعلى أنفسهم، وعلى الناس من حولهم.. وهذا أشد الظلم.. والظلم هنا ظلام يبعد بهم عن نور الحق واجتراء يبعد بهم عن الطريق السوى.

ولقد صارح الفتية قومهم بما يعتقدون أنه الحق، ودعوهم إلى الحوار الحر الموضوعى.. فلم يجدوا منهم آذانا صاغية ولا قلوبًا واعية،ولا عقولاً مفكرة.. وإن الذى يظلم التوحيد دينًا،والناس بغيًا وصدودًا عن الحق. سهل عليه أن يعذبهم أو يؤذيهم..ذلك لأن الإيمان حافظ للنفس من النفس،وحافظ للناس من البغى. فإذا انكسر سد الإيمان تدفقت الأهواء والشهوات والمظالم ولم يعد أمام الفتية وقد عرفنا حدود قوتهم إلا أن يعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله،خوف الفتنة والإيذاء. وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

ويأتى هذا عن تناصح وتشاور بين الفتية.. يشرح أسبابه ما جاء على لسانهم بعد أن أيقظهم الله: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

أصبح موقف المدينة منهم أحد أمرين: الرجم وهو أشد وأقسى أنواع القتل· أو الإكراه على العودة إلى الوثنية.. وحتى إذا كتموا أيمانهم وأظهروا الكفر،فبأي عناء يعيشون فيه وكيف يتحملونه؟.. إنه في ذاته إتلاف آخر وقتل.

كانوا مهددين بأمرين: فقد الدين وفقد الحياة. فقد العقيدة والتعبير عنها، وأن يعيشوها.. فلم يجدوا أمامهم إلا اعتزال قومهم.

بلغ الكتاب أجله، ووصل الظلم إلى أمده. وأمام الفتية إما القتل أو الفتنة في الدين.. فلم يجدوا أمامهم إلا أن يعتزلوا قومهم وما يعبدون.. وفى اعتزالهم هذا ظلوا متمسكين بالحق الأكبر " الله " جل جلاله.. يعتزلون القوم والمدينة والأهل والجيرة والعشيرة... إلا الله فهو الحصن الذى يأوون إليه.

وإذا كان الكهف إيواء لأبدانهم، فإن الإيمان إيواء لأرواحهم.. قل: إن الإيمان كهف أرواحهم.. ومعية الله والإيمان خير من الدنيا وما فيها..

وعلى بركة الله ساروا.. وفى الكهف اعتزلوا قومهم وما يعبدون وعاش الفتية في أنس الإيمان، أيقاظًا ورقودًا.

١٤- في كهف الإيمان

قال فتية الكهف بعضهم لبعض:

﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾

إلى هذا الكهف الحنون ذهبوا..

مهما يكن الكهف.. فهو صخر أصم، ولقد اختاروا كهف يتلاءم مع عددهم، لا يضيق بهم، ولا يتوهون فيه لاتساعه.. فسعة الكهوف لا تؤمن معها المفاجآت: الشقوق وتسرب المياه والهوام والزواحف.

وبين "الكهف" و "ينشر" مقابلة أخرى

الكهف تحمل معنى التحديد. تحديد المساحة.

ينشر تحمل معنى الاتساع والامتداد.

و "لكم": تحمل معنى أنهم هم المعنيون بهذه الرحمة و الطالبون لها، والداعون لأن يتفضل بها ربهم عليهم.

و "ربكم": الرب فيها التربية والرعاية. والضمير المتصل فيها يفيد القرب.

و "من": تفيد العطا، وتوالي العطاء.

رحمة الله لا تنفد. فكل خير هو بعض رحمة الله ووراء الفيض فيض آخر.

ومما يدل على أملهم في مزيد الرحمة، وتحديد حاجاتهم ما جاء في الآية الكريمة: " ويهيىء لكم من أمركم مرفقا "

هذا الأمل الكبير في رحمة الله.. أمل في أن يهيىء لهم من أمرهم مرفقا..

والتهيئة إعداد. والإعداد ملاءمة للمكان والزمان والموقف. وفى حياتنا نقول. هيأت للضيف القرى أو المكان أعددت له الأمر الملائم له. وهم يدركون الأخطار التى حولهم، وأن الملك وحاشيته لو عثروا عليهم لكان مصيرهم الرجم أو الفتنة. من أجل ذلك سألوا ربهم الحماية والستر والرزق.. ما يرتفقون به من طعام في هذا

الكهف.. سيكون عليهم السعى، كما كان منهم اللجوء إلى الكهف مع الرقيم والورق والكلب الحارس..و يسألون الله من واسع رحمته ورزقه وستره..

ونقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ ونبدأ بمعانى المفردات:

- تزاور عن كهفهم: تميل عن كهفهم.
- تقرضهم: تفطمهم وتبعد عنهم جهة الشمال.
- فى فجوة منه: في متسع منه.
- ذلك من آيات الله: من صنع الله وقدرته وتدبيره.
- من يهد الله فهو المهتد: أى من يوفقه الله إلى الإيمان فهو المهتدى حقاً.
- ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا: أى من يضلله بسوء عمله. وإذا كان الله خالق كل شىء. فإنه جعل للإنسان إرادة واختيارًا ومسئولية عليها الحساب والجزاء.

وأود أن أقف وقفة متأنية عند هذه الآية الكريمة من الناحية الكونية، بعد أن وقفنا معها من الناحية اللغوية والفقهية فلقد يسر الله زيارة كهف الرجيب في الأردن مرتين قبل كتابة هذه الأحاديث.

قرأت عنه قبل الزيارة، وراجعت ما كتب الزملاء الأردنيون الذين قاموا بالحفر العلمى أو تولوا مناصب مسئولة في دائرة الآثار وأعاننى الإخوة في وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية والمقدسات الإسلامية على تنظيم الزيارة والقيام ببعض القياسات والأرصاد العلمية الوثيقة الصلة بتفسير هذه الآية، التى تذكر بتفصيل حركة الشمس طلوعا وغروبا، وعلاقة أشعتها بالكهف و من فيه وهم في فجوة منه.

المفسرون والعلماء الذين رجحوا كهف أفسوس قالوا إن فتحته إلى الشمال (الجغرافى). وما دمنا في نصف الكره الشمالى على خط عرض ٣٧ شمالاً تقريبًا، فإن فتحة الكهف إذا كانت إلى الشمال مباشرة فلن تنالها أشعة الشمس

بأى حال من الأحوال، ذلك لأن أقصى تعامدها الشمالي في ٢١ يونيو من كل عام هو على مدار السرطان ٢٣.٥ شمالاً.

أما إذا كانت الفتحة نحو الشمال الشرقى بميل يزيد عن الفرق بين خط عرضها ومدار السرطان أى ما يزيد على ١٤ درجة فقد تنالها شمس الصباح بعض أيام السنة.. وإذا كان انحرافها نحو الشمال الغربى فتنالها شمس الأصيل بنفس النسبة.

ولقد وقفت طويلا عند قول الله تعالى ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ فللشمس علاقة بالفتحة صباحًا وأصيلا.. وهذا لايتأتى إذا كان أساس الفتحة نحو الشمال الجغرافى، مما يجعلنا نستبعد كهف أفسوس.

لماذا ذكر ربنا جل وعلا هذه التفاصيل عن الفتحة؟ إن الكهف ـ والله أعلم ـ كهف مختار من كثير، وهذه المناطق الجبلية في الأردن وتركيا كثيرة الكهوف. والفتية اختاروا كهفاً منها، وأكثروا من الذهاب إليه وعرفوه واطمأنوا إليه. هو مكان إيواء وهو غير بعيد من المدينة، بحيث استطاعوا هم ان يذهبوا إليه راجلين. واستطاع أحدهم بعد الاستيقاظ أن يذهب راجلاً إلى المدينة ليحضر الطعام.

ولو استأجر الشاب دابة لعرف صاحبها أمر العملة التي معه، ولكان الحوار قبل دخول المدينة.

وبهذا كان في الذهن استبعاد الكهوف ذات الفتحات الشمالية ودراسة الكهف ذى الفتحة الجنوبية، وهو كهف الرجيب ويقع على خط عرض ٣٢ شمالاً تقريبًا. وعند زيارة الكهف ورصد الفتحة لم تكن نحو الجنوب الجغرافى مباشرة وإنما كانت نحو الجنوب الغربى.

كان وقت الزيارة في الأصيل وشعاع من الشمس الهادئة يدخل باب الكهف. وأود أن نتامل في الآية الكريمة أمرا دقيقا: هو قول الله تعالى:

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ الشمس في الصباح تزاور عن الكهف، وضع خطا تحت الكهف هنا ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ

ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ وضَعْ خطًا تحت تقرضهم. لم يقل تقرض الكهف، أو تقرضه، وإنما تقرضهم فهي في الصباح تزاور عن الكهف، وفي الأصيل تقرض الفتية والفرق كبير.

وقول الله تعالى وترى الشمس إذا طلعت.. ما موقف الناظر هنا أو الرائى؟ الأساس هو الكهف ومن فيه. اليمين يمينهم. والشمال (المقابل لليمين) شمالهم وإذا كنت في الكهف وطلعت الشمس وكانت الفتحة نحو الجنوب الغربى، تزاورت الشمس عن الكهف ذات اليمين. تمر أشعة الصباح بقوتها أمامك، تكشف المرائى والآفاق. والكهف مرتفع عن الطريق العام على ربوة وحين تتوسط السماء لا تدخل الكهف ثم عندما تميل إلى الغروب تدخل بعض أشعتها في فجوة الكهف. وشمس الأصيل هادئة غير قوية كشمس الصباح. هذا الشرح العملى لا يستقيم معه القول بفتحة متجهة إلى الشمال الجغرافى أو كما جاء في بعض كتب المفسرين كان باب الغار مواجهًا لبنات نعش وهي من نجوم الشمال، وباب الكهف غير متسع.

ثم هناك الفتحة أو الكوه المحصلة بين قلب الكهف مخترقة الصخر فوقه إلى السماء،من فوقها صخرة.. ومن الممكن قفل الكوة أو إطلاق الهواء فيها حسب حاجة من بالكهف. هذه الفتحات العمودية معروفة في كثير من الأقطار المعتدلة والمدارية التى نحن في أرضها في بعض ديارنا يسمونها مساقط أو ملاقف الهواء في مصر أو الباجدير في الخليج. وهى من وسائل التهوية التقليدية المعروفة.. والذين استخدموا هذا إما أنهم أفادوا من الفتحة إن كانت على عهدهم،وهذا هو الأقرب، أو أفاد منها من جاءوا من بعدهم، وأفادوا من الكهف إقامة أو عبادة أو استراحة على طريق الرحلة.

وبهذا يبدو جانب هندسي في الكهف تعاملاً مع ظروف البيئة الطبيعية، أرضا وسماء،كما رأينا من قبل تعاملاً مع الظروف البشرية من حيث العلاقة بالمدينة، وما فيها ومن فيها.

١٥ـ وتحسبهم أيقاظا وهم رقود

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ في هذة الآية و للمرة الثانية، نجد الخطاب إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام. كان في الآية السابقة: وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال و هم في فجوة منه.

المنظر متسع.. الشمس في طلوعها وغروبها. ممتدًا زمانًا، يومًا.ومكانًا في الأفق العريض وفى المنظر الواسع تركيز على مكان معين جاء ذكره مرة واحدة في الآيه: كهفهم.. وفى فجوة الكهف الفتية الذين آمنوا.

مشهد يوحى بالاتزان الكونى والنفسى. ترى فيه الكل والجزء.

الشمس والكهف. الكهف والفجوة. الفجوة والفتية.. ولكن هنا وقفة من يستطيع أن يطلع على الفتية؟ وماذا لو أطلعت؟

ندع الدخول إلى الكهف إلى حين. ونقف في الخارج قليلاً في حوار مع قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾.

دعوة الحق جاءت كمطر الخير على المدينة،موهوبة الخير للجميع تمامًا كالريح الطيبة للسفن. والماء للظمآن. والنور للسالك.

فتتقبلها قلوب واعية كريمة.. هى قلوب الفتية. ونفرت منها قلوب مغلقة هى قلوب الملك وحاشية وسواد أهل المدينة.. من طلب الهدى أعانه الله على هداه ومن ترك سبيل الخير بعد أن دعاه الله، حاسبه الله على ضلاله وكفرانه..

وهل نجد بعد هداية الله هدى؟ ولا بعد إرشاد الله إرشادًا؟ كل طريق غير طريق ضلال، وكل ولاية غير ولايته خذلان.

وقد اعتصم الفتية بالله.. فكان الكهف ومن فيه قريبين من رحمة الله وكانت المدينة ورغم ما فيها بعيدة عن رحمة الله.

ولو تأملنا أيها المؤمن في حركة الشمس شروقًا غروبًا، وفى انتظام الليل والنهار.. لعلمت أن هذا كله بإرادة الحي القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم.

ويا أهل المدينة لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ولا أنواركم وأضواؤكم عن نور الله، ولا أوثانكم عن عبادة الله.. إن الله خلقكم وما تصنعون.. حتى حجارة أوثانكم لا تستطيعون أنتم ولا أصنامكم أن تصنعوها. أنتم قبضة من تراب لا تستطيع أن تكفل لنفسها الحياة، ولا أن تخرج عن قاموس الموت والحياة. أنتم لا تستطيعون التحكم في الفلك الدوار، ولا حركة الليل والنهار، ولا الشمس إذا طلعت أو غربت.. فعودوا إلى ربكم وآمنوا به.. فإن أبيتم.. فماذا بعد الحق إلا الضلال.

قضية فتية الكهف قضية دائمة متجددة.. التوحيد والوثنيات. عبادة الله أوعبادة من دون الله من الأهواء والشهوات المناصب والجاه. حب الله أو حب الشخوص والأوضاع الفانية.

فلتكن قصة الفتية قبل المسيحية أو بعدها.. فالذى نقف عنده طويلاً هو هذا المعنى الأصيل الذى قاله الفتية.﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾.

هم والكون في تسبيح دائم وسجود دائم لله.. والمدينة الباغية القريبة هى صوت الكذب.. هى النشاز في هذا الاتساق الكونى والعقائدى.. هى الجحود في هذا الوجود.. ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾.

وماذا بعد اللجوء إلى الكهف ومعهم الرقيم والمال والكلب الحارس؟ ومن قبل هذا وبعده الإيمان العميق بالله تعالى؟

دون أن يدرى الفتية انتهى من حياتهم دور. استقروا في الكهف.. ولعلهم جاءوا الكهف في ظلمة الليل.. أو في إطلالة الفجر والمدينة في نوم.. وشهدوا

الشمس في طلوعها وتحادثوا في أمرهم، ودعوا ربهم.. وشهدوا الشمس في غروبها.. وغلبهم النوم فناموا، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، (وهو مدخل الكهف).

وتعاقب الليل والنهار لا خروج من الكهف ولا دخول. لا طعام ولا شراب.

والآية الكريمة تراوحنا بين الإطلاع عليهم، والخوف من رؤيتهم.

ومع هذا تصف مشهدهم.. وتأمل تصارع الأحاسيس في نفسك وأنت تقرأ الآية الكريمة:

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ وكأننا الآن دخلنا الكهف وننظر إليهم. أبصارنا لا تصدقنا، أبصارنا تقول إنهم أيقاظ. وهم في حقيقة أمرهم رقود. ثم تنتقل بنا الآية مرحلة أخرى ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ فهم أحياء لا أموات. وما الراقد اليقظ؟ لماذا لا يجلس ويتحرك؟.

لو جئنا مرة لوجدناهم ذات اليمين. ولو جئنا مرة أخرى لوجدناهم ذات الشمال. ولكن كيف نأتي والله يقول: ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾.. كيف أعرف اليقظة من الرقاد، ولو اطلعت - مجرد اطلعت - لملأ الرعب قلبي. وهل يستطيع المرعوب أن يتحقق من يقظة أو منام أو رقاد؟ هذا وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد. والكلب مثله مثلهم تحسبه يقظًا وهو راقد. راقد باسط ذراعيه بالوصيد. كيف؟ هذه إرادة الله.. وتشرق الشمس وتغرب. تزاور عن كهفهم ذات اليمين صباحًا، وتقرضهم ذات الشمال عند الغروب.. وتمر السنون كأنهم أصبحوا جزءًا من حركة الكون. كالشمس شروقًا وغروبًا، كالقمر. كالسماء والأرض.. أما المدينة فيصدق عليها قانون الموت والحياة الذى أوقفه في الكهف قانون آخر.. والقانونان صنع الله الذي أتقن كل شيء الكهف محمي برحمة الله حتى من النظرة المتطلعة. وقضت حكمة الله أن يقلب أجسادهم وأن يحفظ أجهزتهم دون طعام ولا شراب.. وهل تأكل الشمس أو يأكل القمر.. مع كل الحركة الدائبة المبذولة؟ وهل تأكل الذرات وهى في طواف دائم لا يختلف عن طواف الأرض والقمر والشمس.. انتقل أهل الكهف من قانون إلى قانون، حينا من الدهر.. وبقى قانون الحياة والموت مطبقا

على المدينة.. أين الملك الباغي؟ أين من كان يحمل اسم دقيانوس أو دقانوس أو تراجات؟ طواهم الموت. والحاشية وأهل الظلم. أين هم؟ طواهم الموت.. حتى المشيعين. التراب الحي تحول إلى تراب صامت. وميت الغد شيع ميت اليوم.. كما شيع اليوم ميت الأمس.

وتتابعت الأجيال. صغار يولدون مع الفرحة. وشيوخ يودعهم الأهل والصحب مع الدمعة.. وبدأت النفوس شيئا فشئيًا تثوب إلى رشدها. ما وراء الأوثان وعبادتها؟ لماذا لا نعود إلى الله تعالى عابدين؟ وإلى ساحته تائبين؟ وشيئًا فشيئًا بدأت أنوار الحق تدخل القلوب. من قديم خرج من مدينتنا شباب مؤمن هربًا من البطش،وآثروا الهجرة مع قسوة الحياة،على الإقامة مع الضيم والوثنية.. أين هم؟ لا ندري طواهم التاريخ ولا ندري من أمرهم شيئًا.

أقبلت المدينة على الإيمان بالله. دخل الإيمان قصر الحاكم،كما دخل بيوت الأفراد. عاشوا به في الدور والحقول وأصبح نشيدًا على كل لسان وانتصر الإيمان وانطوى الكفران.

أما فتية الكهف ففى تناسق مع الكون. لهم قانونهم الخاص إلى حين تطلع عليهم الشمس وتغرب. وكلبهم باسط ذراعية بالوصيد، تقلبهم رحمة الله ذات اليمين وذات الشمال.

وأصبح حساب السنين بالمئات بعد العشرات.. ثلاثمائة سنين شمسية وازدادوا تسعا في الحساب القمرى..

وجاء اليوم الموعود: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ونبدأ بمعاني المفردات:

- الورق: الفضة. والمقصود هنا ما معهم من نقود. والنقود عليها عادة اسم الملك الذى ضربت في عهده. وقد يكون عليها عام الضرب. ورمز الملك أو أسرته. أزكى طعاما: أطيب وأنسب.
- " يرجموكم " يقتلوكم. والرجم أقسى أنواع القتل هو القتل التدريجى القاسى.
- يعيدوكم في ملتهم: يكرهوكم على عبادة آلهتهم. وحتى إذا كتم الشباب إيمانهم فيكفي ما يلقونه من عنت وحزن عندما يضطرهم القوم إلى عبادة غير الله.

١٦ – حوار بين الفتية

في الحوار الذى دار بين الفتية حين بعثهم الله. تحس الإخاء والمودة، وسرعة الوصول إلى الهدف انتقالا إلى أمر آخر هم في حاجة إليه ويحبون أن يتم بأسلوب اتفقوا عليه.

الحوار شريحتان:

- الأولى: تتعلق بالمدة التى لبثوها في الكهف.
- الثانية: بإحضار الطعام من المدينة.

وبدءوا بالأولى، فهي أول ما يشغل البال، واضح من الآية أن الله أزال عن قسماتهم ما يبعث على الرعب وهو الذى ذكرته الآية السابقة: ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ ولم يكن ـ والله أعلم ـ في منظرهم ما يشي بالزمن الطويل الذى قضوه.. ولو كان، لما كان لنصحهم معنى، حين قالوا لصاحبهم وقد كلفوه بإحضار الطعام: وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا وكيف يتأتى ذلك إذا كان سمته دليلاً على غربة الزمان أو المكان؟

تحاوروا في أمر الزمان

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ لم يجدوا بين أيديهم ولا حولهم دليلا على المدة.. وبهذا ينتفى قول الذين قالوا إن الكلب قد

أصبح رمة ولم تبق منه إلا العظام، وقول الذين قالوا إن وجوههم تغيرت أو ثيابهم تأثرت.. حتى الشعر لو طال كثيرا لاستطاعوا به حساب بعض الزمن.

ولكن الحوار بينهم كان بين "يوما" أو "بعض يوم" ولا دليل على هذا أو ذاك. فالتقوا جميعًا على إسناد الأمر إلى الله تعالى: قالوا ربكم أعلم بما لبثتم. لا داعى لأن يتمسك أحدنا بقول ليس له عليه دليل، إلا ما كان من حركة الشمس، لا تعدو أن تكون يوما أو بعض يوم.

ولننتقل الآن إلى أمر آخر..

صورة هذا الحوار الموجز ترينا أسلوبًا في التعامل والحرص على الوقت لإنفاقه فيما يجدى، وحسن تبادل الآراء ثم الالتقاء على كلمة سواء.

وجاء أمر الطعام، وكان التوجيه واضحًا لمن يذهب، مع إعطائه فرصة للتصرف.فما اتفقوا عليه كان يجمع الخط الرئيسى والمرونة معًا.

١- ما عدد الذاهبين؟ - يكفى واحد. "فابعثوا أحدكم".
٢- والثمن؟ - فليأخذ الورق؟ بورقكم هذه، هذه أموالكم من حلال كسبتموها، وفى حلال تنفقونها.
٣- أين يذهب؟ إلى المدينة. هو به عليم.
٤- **فلينظر أيها أزكى طعامًا.. وفى النظر دراسة واختيار، والأزكى تدل على زكى وأزكى.. فهو يطلب الأفضل، وهو لا يذهب لإحضار كماليات.. وإنما "طعاما".**
٥- **وهو يختار القدر المناسب: فليأتكم برزق منه. رزق مناسب للمال الذى معه، ولقدرته هو على الحمل، فلن يستعين بآخر لئلا يستدل على مكان الكهف.**
٦- **والاختيار حوار، يتلطف في قوله وحركته.. كأى مشتر.. بل كالشاري الكيس الفطن.**
٧- **ثم هو بعد كل هذا يحرص على ألا يلحظ أي أحد منه غربة قول أو فعل.. لماذا؟ ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾.**

إن يظهروا عليكم، وفيها معنى العلو والسيطرة، من الشاب قد يستدلون على الفتية. وسيُعادون إلى المدينة، وليس أمامهم إلا القتل رجماً، أو ترك الدين إكراهًا.. وليس فيهما أو أحدهما أي فلاح.

هكذا خرج الشاب مزودًا بهذه التوجيهات،تاركًا الكهف وراءه موليًا وجهه شطر المدينة.. المدينة التى خرجوا منها بإيمانهم.. ترى ماذا ينتظره فيها.

إن القرآن يمر مرًا سريعًا على مشهد دخول المدينة، يمر عليه دون أن يذكره لا يذكر حوارًا دار بين الشباب وأهل المدينة ولا يذكر موقف الشاب وقد انكشف أمره. فإذا هو أمامهم بين الكذب والجنون وشعاع عميق من التاريخ.. شعاع ضئيل يمتد قرونًا.. ولكن بالمنطق الإنسانى اليومى – أيعقل هذا؟ مرور سريع يطويه القرآن طيًا،لنعود إلى الكهف، الشاب أهل المدينة، الحاكم، هل كان معهم؟ علم ذلك عند الله. وليس أمامنا من الحق إلا قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

هذه هى العبرة الكبرى في القصة كلها ﴿ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾

أكانت قصة الفتية مما تناقلته الأجيال في المدينة. هذا الشاب المؤمن الغائب،الذى لم يعثروا عليه في بلد آخر، حيا ولا ميتا ؟ "أعثرنا عليهم". أعثرنا أهل المدينة عليهم. رسم قدرُ الله الأسلوب الذى يؤدي إلى العثور عليهم. ومعهم الدليل الذى لا ينقض على العهد الذى عاشوا فيه. ومن ورائه الدليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الموت والحياة، والبعث والنشور.

وأن الحياة بعد الموت هى وعد حق. وحساب الله وعد حق والبعث والحساب أساسان وفى الفكر الدينى على امتداده. جاء بهما كل نبي ورسول.

ولقد وضح الله تعالى أركان العقيدة الدينية في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (البقرة: ٦٢)

هذه الأركان الثلاثة هى: الإيمان بالله، الجزاء وهو البعث والحساب، العمل الصالح تنفيذًا للإيمان وهو مادة الحساب يوم القيامة.

بغير هذا يكون أمر الناس فرطا، وتصبح الدنيا غابة الحق فيها للقوة، والغلبة للعنف والبطش دون وازع من دين أو خوف من الله، أو انتظار لحساب:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الأنبياء: ٤٧)

هذه المحاور الثلاثة هى التى تدور حولها الحياة الإنسانية السليمة..

ويرد إلى ذهنى موقف المصطفى عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة.. بعد أيام غار ثور وسلوك طريق الساحل ثم الجبال إلى المدينة. وقد لقى الأنصار في ديارهم،والتقى من حوله المهاجرون والأنصار في إخاء عزيز.. ماذا قال لهم جميعا في أول خطبة بالمدينة؟

لك أن تقارن بين هذه الخطبة التى سنتلوها بعد قليل،وبين قول الله تعالى بعد أن بعث أهل الكهف ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ هذه بعد الغار وهذه بعد بعث أهل الكهف.. قال المصطفى عليه الصلاة والسلام بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله[1]:

أما بعد أيها الناس. فقدموا لأنفسكم. تَعلَمُنَّ والله ليصعقنَّ أحدكم (والصعق أن يغشى الإنسان من صوت شديد لسمعه، وربما مات منه ثم استعمل في الموت كثيرا)، ثم ليدعنَّ غنمه ليس لها راع. ثم ليقولنَّ له ربه، وليس له

(١) حياة الصحابة للكاند هلوى ٤: ٢٢٦ – ٢٢٧ عن البيهقي عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالا وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فينظر يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا. ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فكان مما قال:

" إن أحسن الحديث كتاب الله تعالى. قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر.. أحبوا من أحب الله. اعبدوا الله لاتشركوا به شيئا. واتقوه حق تقاته أحبوا الله من كل قلوبكم. وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم. إن الله يغضب أن ينكث عهده. والسلام عليكم رحمة الله بركاته[1]".

وتجمع الخطبتان أركان الإسلام: الإيمان بالله والجزاء الأخروي والعمل الصالح في هذه الدنيا، وتقيم الحياة على الإخاء والوفاء واتباع الكتاب المبين والهدى النبوى. من تمسك بها نجا وهُدي إلى صراط مستقيم.

١٧ – لنتخذن عليهم مسجدا

نتابع في هذا الحديث تفسير قول الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ ﴾

وفى هذه المتابعة أربع مسائل:

المسألة الأولى: ﴿ أَعۡثَرۡنَا ﴾ فإن الله جلت قدرته حدد الأسلوب الذى عثر أهل المدينة على فتية الكهف.. فالله سبحانه – أعثر أهل المدينة على الفتية، ولم يعثر أهل المدينة عليهم بجهدهم الذاتى.يد القدر كانت تحرك الموقف إلى غاية محددة: ﴿ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ ﴾. ومما يسترعى النظر في الأماكن الثلاثة المقترحة مع ترجيح كهف الرجيب. أنها جميعا جبلية

(١) نفس المرجع السابق وانظر البداية (٢: ٢١٤).

وغير بعيدة من المدن، وفى مناطق تكثر فيها الكهوف والغيران. ولمزيد من التحديد نذكر أن أفسوس تقع في بحر اليونان (ايجه) جنوب ازمير بميل قليل إلى الشرق وأن طرسوس تقع بعيده قليلا عن البحر غربى (لاشمال) خليج الاسكندرونة أما كهف الرجيب فقد فصلنا فيه القول، وذكرنا مراجع البحث فيه

المسألة الثانية: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ ونقف عند كلمة "يتنازعون" لماذا جاء هذا الفعل بالذات؟ وبينهم. بين من؟ وأمرهم ما الأمر؟.

نقارن بين كلمتين: عند حديث القرآن عن الفتية عندما بعثهم الله جاء قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ﴾ وهنا عن أهل المدينة ﴿ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾.. وفرق كبير بين التساؤل والتنازع. التساؤل بين إخوة عقيدة. بين أصدقاء. هو حوار ودود، انتهى بقولهم. قالوا ربكم أعلم بما لبثتم.. قول هو الإجماع. لم ينقسموا فريقين. ولا تعصب أحد لرأيه، وردوا الأمر إلى الله فيما قضوا من أمد، ثم انتقلوا إلى موضوع الطعام. أما أهل المدينة فاستخدم القرآن في حوارهم لفظ "إذ يتنازعون" من هم؟ ما عددهم؟ هل كان فيهم الحاكم أو علية القوم؟ إن الله أبهم هذا كله، وألقى القرآن الضوء على أسلوب الحوار وأنه التنازع.. وقد يحمل التنازع معنى تبادل الآراء. والكلمة "تنازع" تحمل معنى التبادل. مجرد التبادل. كما في قول الله تعالى. في وصف أهل الجنة ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

وفى تنازع أهل المدينة تعددت الآراء. ولم يلتقوا على رأى جامع.

كان هناك رأيان: ﴿ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾. كلمة "غلبوا" تدل على انتصار رأي على رأى بقوة: أى قوة.. رأى أو سلطان ٠ ولكن كان لهذا الفريق أن يغلب وأن يفرض رأيه. وبهذا تبدو جوانب من أعماق الآية الكريمة في استخدام لفظ دون

(١) انظر زاد المسير في علم التفسير لعبد الرحمن بن الجوزى ٨: ٥٢ ط ٠ المكتب الإسلامى دمشق بيروت.

لفظ. وفى تصوير الحوار وهو يدور بين فتية مؤمنة تجمعهم عقيدة،وبين أهل مدينة يغلب فيها الفريق الأقوى.

ولا شك في أننا نود من أبنائنا أن يتأسوا بالحوار الذى دار في الكهف: في تقسيم مراحله أولاً، ثم الانتقال من موضوع إلى موضوع. ثم الانتهاء إلى رأي جامع: كان في المرحلة الأولى تفويض الأمر إلى الله فيما لا يستطيعون له إثباتًا. وكان تخطيطًا دقيقًا واعيًا لمسار أحدهم وهو يحمل مسئولية إحضار الطعام وتأمين وجودهم في الكهف ولا يشعرن بكم أحدًا مع تقدير الأخطاء المحدقة بهم. وتصرفهم أمامها بكل بصيرة.

ولعل من حكمة الله أن جاءت معالم هذا الحوار الذى دار في الكهف واضحة ومحددة في الآية الكريمة. بينما جاء تنازع أهل المدينة مجملا. كذلك لم توضح الآية الكريمة المقصود بكلمة "أمرهم" في قوله تعالى. إذ يتنازعون بينهم أمرهم. أى أمر هذا؟ لقد بلغ الكتاب أجله وجاءت آية البعث والنشور أمام أهل المدينة. وأدى الشباب مهمته لم يختاروها لأنفسهم،وإنما اختارهم الله لها،وهو أعلم بهم.

المسألة الثالثة: قول الله تعالى: ﴿ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ﴾

ومرة أخرى تحس كأننا ننظر إلى فتية الكهف وبيننا وبينهم ستر من غيب الله.. ماذا حدث بعد أن أدوا مهمتهم وعاد الشاب ومعه أهل المدينة إلى الكهف، ونظر أهل المدينة إلى الفتية أيقاظًا ثم ألقى الله عليهم النوم، لعل هذه المرة الموت. من يدري؟ لقد ناموا قرونًا وهم في جلال العناية الإلهية، قرونًا كانوا فيها أقوى من عوامل الوجود حولهم، أو على الأقل معها في القدرة على التحمل وحتى إذا تحسس أهل المدينة أنفاسهم فوجدوها خمدت.

هل هو الموت أم النوم الطويل؟ أنهم آية من آيات الله، لا يحبون أن تتحول إلى قصة ومشهد يأتى الناس يوما بعد يوم ليشهدوه فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم. أعيدوهم إلى عزلتهم، والله الذى حفظهم قرونا هو أولى بهم ولا تجعلوا هذه الآية الكريمة متحفا ينظر إليه الناظرون، وقد تسوّل لهم أنفسهم أن يمسوا هذه الأجساد وأن يختبروا هذه الثياب. وأن يعبثوا بحرمة المكان. ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم.

المسألة الرابعة: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾ ولعل المقصود بقول الله "عليهم" أي في هذا الموضع الذى ظهرت فيه آية الله، أمّا الكهف فهو على الفتية مغلق، لا يعدو أن يكون قبرًا، أو جزءًا من الجبل بعد أن سد القوم فتحته. أمّا المكان وهو لا يختلف عن أي مكان آخر. فليتحول إلى مكان يُعبد فيه الله تعالى. ويذكر الناس فيه البعث والنشور، وينطلقون منه إلى صالح العمل في الدنيا.

ونستطيع أن نرجع إلى تفسير الإمام الطبري لنقرأ ما جاء عن هذه القصة من تفصيل، مرجعه فيه ابن إسحق ووهب بن منبه ومجاهد.

ويقول الإمام الطاهر بن عاشور[1]

الذين غلبوا على أمرهم ولاة الأمر بالمدينة وإنما رأوا أن يكون البناء مسجدًا ليكون إكرامًا لهم ويدوم تعهد الناس كهفهم. وقد كان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سنة النصارى. ونهى عنه النبي ﷺ كما في الحديث يوم وفاته ﷺ قالت عائشة رضى الله عنها.. "ولولا ذلك لأبرز قبره" أى لأبرز في المسجد النبوى ولم تجعل وراء جدار الحجرة.

واتخاذ المساجد على القبور، والصلاة فيها منْهي عنه، لأن ذلك ذريعة إلى عبادة صاحب القبر أو شبيه بفعل من يعبدون صالحى ملتهم.. وإنما كانت الذريعة مخصوصة بالأموات لأن ما يعرض لأصحابهم من الأسف على فقدانهم يبعثهم على الإفراط فيما يحسبون أنه إكرام لهم بعد وفاتهم، ثم يتناسى الأمر، ويظن الناس أن ذلك لخاصيته في الميت. وكان بناء المساجد على القبور سنة لأهل النصرانية فإن كان شرعًا لهم، فقد نسخه الإسلام. وإن كان بدعة منهم في دينهم فأجدر (أى فأجدر أن يُترك) انتهى قول الطاهر.

ونلحظ في الآية الكريمة :﴿ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾. نلحظ فيها فضلاً بين الأمرين، يمكن أن يكون من الناحية العملية تتابعًا. بعبارة أخرى: أن يبنى القوم البنيان على

(١) التحرير والتنوير ١٥- ٢٩.

الشباب، ويغلقوا عليهم الكهف. وبهذا تنتهي قصة أجسادهم ولا يبقى في الذكرى والحياة إلا عبرة البعث والنشور، ثم في المكان الذى أراد الله أن يكون موطن هذه الآية، يتخذون مسجدًا يذكر الناس بالله تعالى، وبالعبرة الحقيقية في القصة. إن نهاية القصة إيمان وانتصار إيمان، فلا يعقل أن انتهاء فيه شبهة من شرك أو وثنية أغلقوا على الفتية كهفهم وابنوا عليهم بنيانا. والذين يزورون هذه الأرض من بعد، لن يجدوا إلا المسجد والعبادة والتوجه إلى الله. هذا ـ والله أعلم ـ هو الأقرب إلى العقل عند النظر في نهاية القصة، والذى ينبغي أن تتجه إليه الأذهان: الإيمان بالله طاعة وسجودًا. العمل الصالح في الحياة. الإيمان بالبعث والنشور. أن يكون هذا المكان أرض عبادة وتوجه الى الله.. لايعقل أن تنتهي القصة بمزار يقدس فيه الخلف أجساد هؤلاء الشباب وتوابيتهم.. ولكن المعقول أن يكتب للعبرة البقاء، وإليها ينبغي أن تتجه الأذهان.. ولكن قومًا من بعدهم شغلتهم من القصة التفاصيل دون الجوهر فماذا كان من أمرهم؟

١٨ – منهجان في تناول القصة

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

إن المستوى الأساسي في قصة الكهف هو مستوى العقيدة: البعث والنشور ولكن قومًا تركوا هذا المستوى وأخذوا يبحثون في تفاصيل ليست جوهرية في القصة.

ما الفرق بين أن يكون الفتية ثلاثة رابعهم كلبهم. أو خمسة سادسهم كلبهم أو سبعة وثامنهم كلبهم.

إن عبرة القصة لاتتحدد بعدد الفتية. فقد تحدث آية الإحياء والبعث مع إنسان وحده كما في قصة الرجل الذى أحياه سيدنا عيسى عليه السلام بأمر الله. وقد تحدث مع إنسان ودابته كما في قصة الرجل: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ

خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ وكان معه حماره، وحدث له ما حدث للرجل وأكثر.

وقد تكون مع عدد أكثر، كما في قصة الكهف.. وقد تكون مع أكثر والله تعالى يعلمنا أن كلمة "كن" يستوي فيها الواحد والجميع، يقول تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (لقمان:٢٨) أمر تستوي فيه الخلائق مولدًا وبعثًا ونشورًا.. وبين ذلك آيات لها قانونها من نوم طويل أو بعث بعد موت: آية للناس.

هذه هى القضية التى يود القرآن أن يعمقها في نفوسنا جميعًا، لتكون مصدرًا لعمل الخير وخشية الله وحب عباده..

ولكن الناس في كل زمان ومكان نجد من بينهم من يعتني بأمور فرعية ويدع الأصول، أو يهبط بالأصول ويعقدها بتفاصيل كان في غناء عنها.

ولنذكر لذلك مثالاً قرآنيًا جاء في سورة البقرة عن بنى إسرائيل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾

هذا أمر إلهى يكتفى فيه القوم بالتنفيذ فيذبحوا بقرة – أى بقرة. فهى هنا نكرة وغير موصوفة بأى وصف يحددها. ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ وهذا موقف سخرية؟ إنه أمر إلهى يقوله نبي مرسل في مناسبة محددة. وعجب موسى ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ هذا ليس موقف استهزاء مني بكم، ولا شك منكم في أمر من الله أخبركم به. وكان من الممكن بعد هذا أن يقوموا بالتنفيذ. ولكنهم هبطوا من المستوى الثانى إلى مستوى ثالث: الثالث بعد الشك وبعد تأكيد موسى لأمر الله. وعادوا ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ ضيقوا على أنفسهم فضيق الله عليهم ليريهم الثمار المرة لهذا الأسلوب ۰ قال: إنه يقول إنها بقرة لافارض ولابكر عوان بين ذلك بقرة متوسطة السن. ثم أمرهم أمرًا صريحًا ﴿ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ وهبطوا إلى مستوى أدنى في تضييق على

أنفسهم ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ ونستطيع أن نتابع القصة في سورة البقرة.. وبعد كل سؤال تضييق يصل بنا إلى قول الله تعالى ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

لماذا كل هذه الأسئلة وكان من الممكن الاكتفاء بأى بقرة كما جاء في الأمر الأول، ثمَ الانصراف بعد هذا إلى ما هو أجدى عليهم في حياتهم؟ ولك أن ترجع أيضًا إلى مشكلات ذبائحهم وعباداتهم وما فيها من تفاصيل.

فهل كانوا يريدون أن تتحول الدعوة الإسلامية إلى سؤال عن فتية الكهف ثم تهبط إلى أسئلة تفصيلية عن أعدادهم.. ثم تنتقل إلى أسمائهم وأعمارهم، وأهلهم؟ أبهذا يتأكد الإسلام وينتشر؟.

من أجل ذلك ذكر الله تعالى هذه الأقوال عن القوم: ثلاثة وخمسة وسبعة، وكلها أعداد فردية.. ولكل رقم من يقول به ويدافع عنه. ومع ترجيح القرآن أنهم سبعة وثامنهم كلبهم بدليل قول الله تعالى بعد هذا. ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾،ومع اعتبار الثلاثة والخمسة ﴿ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ﴾ إلا أن القرآن يعقب على هذا بكل القطع والوضوح. ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾

والتمارى مقصود منه إيقاع الشك من الجانبين، وكثرة الجدال فيما لا يجدى، والمقصود من المراء الظاهر: هو الذى لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه من قوله ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ وقوله ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فهذا مما لا سبيل إلى إنكاره،وما وراءه محتاج إلى الحجة،فلا ينبغى الاشتغال به لقلة جدواه".

وغنى عن القول أن البعد عن هذا النوع من الجدل الذى لا يغنى والمراء الذى لا يأتى بخير، لا ينفى العناية بالحوار العلمى والجدل بالتى هى أحسن ابتغاء إظهار وجه الحق،وهو جزء من الدعوة إلى الله في قوله تعالى:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾
(النحل: ١٢٥)

فهذه ثلاثة: الحكمة، الموعظة الحسنة، الجدال بالتى هى أحسن ولعلمائنا فيها أقوال: الحكمة مع العلماء ومن في مستواهم. الموعظة الحسنة مع العامة الجدال بالتي هى أحسن فيمن لايؤمن بقولك مثل أهل الكتاب حين يدور الحوار بينكم.. وهذا كله في مجال الدعوة إلى الله))

وهذا أيضًا غير النقاش العلمى الموضوعى بقواعده المعروفه القائمة على الملاحظة والتجربة واختبار كل منهما ومحاولات الوصول من الفروع إلى الأصول ومن المقدمات إلى النتائج ومن تعداد الحالات إلى النظريات ثم القوانين.

بل إنك تدخر جهدك من التمارى لتوجهه إلى الحوار الخصب ولك أن تسمى هذا "اقتصاد الجهد" أو "اقتصاد الحوار" لتصل إلى أعلى مردود في أقرب وقت وبأيسر طريق.

ويرتبط بالنهى عن التمارى إلا المراء الظاهر الواضح، قول الله تعالى فى آخر الآية: ﴿ وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾ أى يامحمد لا تستفت في أمر الكهف من قريش أو أهل الكتاب أحدًا.. واقطع بكل الحسم طريق التمارى، والدخول في مسالك التفاصيل والاختلاف فيها.

ولا تعدو قصة "عدد" أهل الكهف أن تكون "صورة" من صور الفكر اليهودى، ينهانا الإسلام عن اتباعها.

ومع أن الآية فيها ترجيح "السبعة" إلا أنها تنهي المصطفى عليه الصلاة والسلام عن استفتاء قريش وأهل الكتاب عن أى شىء يتعلق بفتية الكهف. فإن شاء الله أعلمك. وقد أعلمك. ولكن – حتى مع هذا العلم – لاتمار أهل الكتاب ولا قريش إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا.

هذا الاقتصاد في الجهد، والتوجيه إلى الأحسن، أمر تؤمن به العقول الكبيرة التى تدرك قيمة الحياة وقيمة الإبداع فيها بما يعود على الإنسانية بأكبر خير.

وعندما كنت أكتب هذه السطور عن الجهد، واحترام الوقت والاهتمام بما هو أجدى.. جاءت إلى ذهنى صورة حديثة قرأتها في كتاب عن حياة مارى كورى مكتشفة الراديوم. والتى حصلت على جائزة نوبل في الفيزياء. عن هذا الاكتشاف عام ١٩٠٣. عاشت حياتها مع زوجها راهبة علم، كل جهدها مسخر لبحوثها. وعندما تأكد كشفها واعترفت به الدوائر العلمية، طبعت بحوثها من صور وأرسلتها إلى جميع المراكز البحثية الرئيسية، وجعلت نتائجه ملكا للإنسانية دون أن تحاول الحصول على أي مكسب مادى منه. ولقد أثر إشعاع الراديوم على جسمها وكانت تحس أنها تعيش معادلة صعبة بين متابعة الجهد، والموت الزاحف البطىء مع الإشعاع الذى تسرب اليها.. وزاد من ألمها أن أصبحت محط الأنظار، أما العلماء فيعنون بالعلم.. وأما الزائرون السطحيون، وكتاب مقالات الطرائف.. فكانوا يسألونها عن أشياء لا علاقة لها بالعلم: أى الألوان تفضل؟ أى الأطعمة؟ أى الثياب؟.. وضاقت وهى الهادئة العاقلة فعبرت عن ألمها بأن قالت لأحد هؤلاء السائلين: إنكم تعنون بالأشخاص والأشياء أكثر من الأفكار والبحوث.. كان نظرها إلى المستقبل والبحث، ونظرهم إلى ثوب وطعام ولون.. نفس المشكلة التى يعاني منها مخطط ينظر إلى الأمام وباحث طموح وعالم جاد.. من عقليات صغيرة تبحث عن التفاصيل والأصداف تتلهى بها عن الكليات والجواهر..

ألا تحس في هذا خلود الأصول القرآنية في التفكير وامتدادها عبر الزمان والمكان، نهتدى بها وحيًا يلتقى معه الفكر السليم والنظر الطموح.

١٩ ـ وقل عسى أن يهدينى ربي لأقرب من هذا رشدا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

والآيتان أقسام ثلاثة:

- الأولى: ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله
- الثاني: واذكر ربك إذا نسيت.
- الثالث: وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا.

والمعاني اللغوية واضحة، فلننتقل منها إلى التفسير بادئين بالقسم الأول وفيه مسائل:

أولاها: لماذا جاءت هذه الآية في هذا الموضع:؟ هي متعلقة أساسا بقصة الكهف، ونذكر هنا ما رواه ابن إسحق أن المشركين عندما سألوا رسول الله ﷺ عن أهل الكهف والرجل الطوّاف والروح، وعدهم بالجواب غدا، ولم يقل "إن شاء الله" وتأخر الجواب أيامًا. وكان تأخر الجواب عتابًا من الله لرسوله. عتابًا ذكره الله بعد أن قص على رسوله ما سأل عنه.

لم يأت العتاب في أول السورة، وإنما جاء في أولها الحمد وبشارة المؤمنين وإنذار الذين قالوا اتخذ الله ولدا. وجاءت المودة ورحمة الله برسوله في قوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

ثم جاء في قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴾ ثم ذكر ربنا بعد هذا القصة وما فيها من العبر، وأسلوب الحوار مع قريش وأهل الكتاب.. وبعد هذا كل قال لرسوله: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾..

وسنرى بعد الآيتين أن الله يذكر جوانب من قصة الكهف، ثم تنقل الآيات بعد هذا إلى توجيه للرسول عليه الصلاة والسلام إلى أن يصبر نفسه مع أصحابه المؤمنين الذين يريدون وجه الله. فهم أولى بالعناية من كفار قريش وأهل الكتاب. الذين لا يبغون إلا تعويق مسيرة الإسلام. وصرف جهد الرسول القائد إلى مسالك جانبية.

العتاب الإلهى إذن لم يأت في مطلع القصة ولا جاء في خاتمتها، وإنما في سياقها، وقرب خواتيمها، وغير بعيد عن الانتقال منها إلى المشكلات التى يقابلها الرسول ﷺ في الحياة الإسلامية اليومية.

وسرى هذا التوجيه الإلهى للمصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الأسلوب النبوى في توجيه الصحابة.. من ذلك ما جاء في الصحيح أن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله فأعطانى، ثم سألته فأعطانى، ثم سألته فأعطانى، ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة. فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع. واليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: يا رسول الله ! والذى بعثك بالحق لا أرزأ (أى أسأل) أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا "

فعلم حكيم أن قول رسول الله ﷺ له ليس القصد منه منعه من سُؤله، وإنما قصد منه تخليقه بخلق جميل، فلذلك أقسم حكيم: أن لا يأخذ من أحد غير رسول الله شيئا، ولم يقل لا أسألك بعد هذه المرة شيئا[1] .

والمسألة الثانية: في معاني قول الله تعالى: ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله. ذكروا فيها معنيين.

الأول: أي لا تقولن إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله أن تقوله ومشيئة الله تعلم من إذنه بذلك. بعبارة أخرى: لا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يأذن الله لك بأن تقوله.

الثانى: لا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله أن يحدث.

ففي التفسير الأول تكون المشيئة متلبسة بالإذن بالقول، وفى الثانى متلبسة بحدوث الفعل.. وفى الأمرين مشيئة الله هى الغالبة.

والقول بدء والحدوث غاية مرجوة، والتفسير الثانى أقرب وإليه ذهب الطبرى.

(١) التحرير والتنوير: ١٥: ٢٩٦ – ٢٩٧

وبجمع المسألتين الأولى والثانية يبدو تكريم الله لرسوله ﷺ إجابة عن سؤاله، وتعليمه علمًا عظيمًا من أدب النبوة، وأن العلم جاء بعد الإجابة، استئناسًا لنفسه دون أن يبادئه بالنهى أو التوجيه.

ننتقل بعد هذا إلى القسم الثانى وهو قول الله تعالى:

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾.

والقول هنا مرتبط بما قبله: أى يا محمد: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فلا تعد بوعد في أمر الوحى، فإن نسيت ووعدت، فتدارك بهذا وقل: إن شاء الله. فالذكر المطلوب هنا هو التدارك، والامتثال. يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه: (أفضلُ من ذكرِ الله باللسان، ذكرُ اللهِ عند "أمرِه ونهيه").

ولعلمائنا دراسات متصلة في ذكر الاستثناء وهو القول "إن شاء الله " أيصح في نفس القول والوعد والعقد، أم تصح وبينهما فاصل زمنى؟ وإن كان فاصل. فما طوله؟ يوم. أسبوع. شهر. عام. أكثر؟

ونستطيع – كنموذج – أن نرجع إلى الطبرى في شرحه.

وننقل عن الفخر الرازى قوله:

- أما الفقهاء فقالوا لو جوزنا ذلك (أى الفصل بين القول وذكر المشيئة) لزم أن لا يستقر شىء من العقود والأيمان. ويحكى أنه بلغ المنصور (الخليفة العباسى) أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس في الاستثناء المنفصل (وابن عباس يذهب إلى جوازه) فاستحضره لينكر عليه. فقال أبو حنيفة: هذا يرجع عليك فإنك تأخذ البيعة بالأيمان (أى تأخذ بيعة الخلافة بأن يقسم الناس عليها أمامك) أفترض أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك؟.(أي أن يقولوا بعد خروجهم إن شاء الله ويتحللوا من البيعة) فاستحسن المنصور كلامه ورضى به.

والذى نود أن نخلص إليه، ليس الدخول في تفاصيل الأحكام الفقهية في هذا الأمر، وهى مبسوطة في كتب الفقه والأحكام، ولكن معرفة العبد حدود قدرته: فما كان من أمر الوحى عند المصطفى عليه الصلاة والسلام، فلا يعد

فيه بما هو من إرادة الله في الإنزال والهداية. ورد المشيئة إلى الله في العقود ليس تحللا منها وإنما ذكرًا لقدرة الله وإرادته الغالية. والله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ (المائدة:١) وقال ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (النحل:٩١) فمن أتى بعقد أو عهد فعليه الوفاء به. ولفظ الاستثناء وحده وهو القول، إن شاء الله لا يقيد شيئا، فهو يجرى كما يقول الرازى مجرى نصف اللفظة الواحدة. وجملة الكلام: أى الوعد والمشيئة كالكلمة (أى الجملة) الواحدة المفيدة.

القسم الثالث هو قول الله تعالى: ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾

وفى الآية إشارة إلى نبأ أصحاب الكهف. ومعناه: لعل الله يؤتينى من البينات والدلائل على صحة أنى نبيٌ من عند الله صادق القول في دعوى النبوة، ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشدا من نبأ أصحاب الكهف. وقد فعل الله ذلك وآتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ثم بالتشريعات الباقية التى ينتظم بها أمر الحياة أخلاقيًا واجتماعيًا واقتصاديًا و سياسيًا آتاه من كل ذلك ما هو أعظم من قصة الكهف وأوسع مدى وأبقى أثرًا.

وعند هذه النقطة ينبغى أن نطيل الوقوف..

فإن القرآن الكريم ذاته: وحيًا ونزولاً وحفظًا واتباعًا، هو معجزة الإسلام الكبرى. بل هو معجزة الأديان الكبرى. ذلك لأنه النص الوحيد الكامل الذى يستطيع أهله أن يقولوا بكل الصدق واليقين أنه القرآن الذى أوحاه الله لرسوله ونزل به الروح الأمين على قلبه بلسان عربى مبين.

أهل الأديان يعترفون أن الذى بين أيديهم، كَتَبَه كُتَّابُهم مؤيَدين بروح القدس أو كَتَبه أحبارُهم بعد وفاه نبيهم بسنين، أو تكاملت أسفاره بعد قرون.

وهذا القرآن الذى أعجز الإنس والجن. ولا يزال الإعجاز والتحدى قائما، يسر الله حفظه حتى لأبناء المسلمين يتلونه حق تلاوته وتستقيم به ألسنتهم وتلين

له القلوب. وهو النور الهادى في الحياة، والنبع المتدفق بالخير والصراط المستقيم. هو الصاحب في السفر والأنيس في الوحدة، والدليل في المسير. هو الظل من شمس الأيام وهو السراج في ليلها وهو الحصن من شرورها وهو السلاح أمام أعداء الحياة.. هذه الآفاق المتسعة التى جاء من أجلها الإسلام وشق طريقه أرادت قريش أن تحصرها مستعينة بأهل الكتاب على سؤال عن فتية غابوا في القرون أو رجل طواف.. وأخبر الله رسوله بذلك.. ثم دعاه إلى متابعة مسيرته كما أرادها الله في طريقها الواسع العالمى وعلمه أن يدعوه قائلا: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾.

٢٠ – ختام قصة الكهف

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ۝ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾

وهذه الآيات هى تمام قصة الكهف، وسنرى فيما نستقبل من الآيات الربط بين القصة وواقع الحياة الإسلامية. أما هذه الآيات الخاتمة ففيها مسائل.

الأولى: مُدة اللبث. ذهب بعض المفسرين إلى أن: "لبثوا" حكاية عما يقول أهل الكتاب. وبهذا يكون قوله تعالى: " قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ" تفويضا إلى الله في علم ذلك كقوله: ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ وذهب آخرون إلى أن هذا إخبار من الله عن مُدة لبثهم. ولقد جاء في صدر الآية. ويكون قوله تعالى بعدها " قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ " قطعا للمماراة في مدة اللبث المختلف فيها بين أهل الكتاب أى أن الله أعلم منكم بمدة لبثهم وأنتم يا أهل الكتاب قد اختلفتم بينكم في حساب المدة.

الثانية: قول الله تعالى ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا. فيها توجيه إلى منهج علمى في حل الخلافات: ثلاثمائة سنين شمسية، تساوى زمانا ثلاثمائة سنين وتسعا قمرية. فقبل أى بحث – ينبغى الاتفاق على القواعد والمقاييس.

وحتى لو قلتم بمدة دون ذلك وأنها مائتان وأربعون، أو أن المدة المقصودة هى بقاؤهم في الكهف بعد موتهم إلى زمن نزول الآية. فإن آية الله تبدو بطول اللبث عما تعودتم أن تروه، وأن يحسب اللبث بالأعوام والقرون بعد أن كان يحسب بالساعات في تقلب الإنسان اليومى بين النوم واليقظة.. لا تقفوا عند عددهم، ولا عند طول لبثهم وقفوا عند العبرة العميقة من القصة وهى الإيمان بالبعث والنشور، والتوجيه من العقيدة إلى العمل والإبداع في الحياة.

المسألة الثالثة: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾

ردوا العلم إلى الله إن اختلفتم · وخذوا بما جاءكم من عند الله بعد أن سألتم، وأفاض الله على رسوله من علمه، فلا تماروا بعدما جاءكم من الحق فغيب السماوات والأرض لله – تبارك وتعالى –

(أبصر به وأسمع) صيغتا تعجب من عموم علمه تعالى بالغيبات من المسموعات والمبصرات. هو الذى لا يشاركه فيه أحد.

المسألة الرابعة: ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ وهذا الجزء من الآية قسمان: الأول حديث عن المشركين. والثانى قاعدة عامة وأصل تقوم عليه الحياة الدينية وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾

فهؤلاء المشركون ومن ساندهم من أهل الكتاب، لو نظروا في حقيقة أمرهم لما وجدوا لهم وليًا حقيقيًا من دون الله. وهذا التواصل بين مشركى مكة وأحبار يهود، والذى بدأت ملامحه في العهد المكى، وقويت أواصره في العهد المدنى، وبلغ ذروته في غزوة الأحزاب ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (الأحزاب: ١٠)

هذا التعاون بين المشركين من أهل مكة وقبائل اليهود في المدينة.. والذى يعلم فيه اليهود بيقين أن مشركى مكة عباد أوثان، ومع هذا نصروهم

وناصروهم على الإسلام الداعى إلى التوحيد والمصدق بكل نبى ورسول.. هذا التعاون هو تولى شرك وجحود، لايقف على أقدام أمام الحق الذى جاء به الإسلام.

ولقد أعلنها الله قوية: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ هو أحكم الحاكمين. هو الأحد الفرد الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد هو الحى القيوم. ما اتخذ صاحبة ولا ولدا. ولا يشرك في حكمه أحدا. فمن أين جئتم بالشركاء والأنبياء والبنات والأوثان والأنداد؟ من أين جئتم بعبادة من دون الله يحللون لكم ويحرمون، ويأمرون فتطيعون، وأنتم على الصراط السوي ناكبون.

إن أساس الإسلام هو التوحيد، هو تأصيل قوله الله تعالى ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ تأصليها في كل مرافق الحياة الإسلامية الدينية.

نسأل أنفسنا: ماحكم الله في هذا الأمر؟ أمامنا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ – وقد فتح الله لنا باب الاجتهاد في دينه، بشروط وضحها علماؤنا استمدوها من كتاب الله السنه النبوية. وبينوا آفاق الاجتهاد وشروط المجتهد وما ينبغى أن يتوافر فيه، وتطور هذه الشروط والأساليب والآفاق مع تطور الحياة.

ونحن حين نتبع هذا إنما نتبع أمر الله وحده. هو الذى أمرنا بالإيمان به وبرسوله، وهو الذى دعانا إلى السير في الأرض، وهو الذى دعانا إلى سؤال أهل الذكر وإلى الاستنباط وإلى الجهاد والاجتهاد.

وهو الذى دعانا إلى إعمال الرأى في تعاون وحوار لنصل إلى القرار الأقرب للتقوى.

وبهذا نجد أن قصة الكهف إذا كانت قد بدأت بجوانب من أحداثها، إلا أنها ركزت في مطلعها وفى سياقها وفى خواتيمها على الركائز الأساسية للإسلام: عقيدة وشريعة وأخلاقًا، منهجًا وسلوكًا. وحذرتنا أن ننساق وراء دروب ضيقة من قصص أهل الكتاب. إذا هبطنا إلى أغوارها قطعنا أنفسنا عن أنوار السماء واتساع أفق الوحى وسرعة الحركة، فى ميدان الحياة.. تماما كما يدع السالك الطريق السوى إلى أخاديد وأغوار وسراديب يضيع فيها بهاء الوحى. وتستهلك الطاقات في صراعات ضيقة لا تعود على الإسلام ولا على الناس بالنفع.

نعم: إن القرآن أجاب عن بعض الأسئلة، ولكنها إجابة؛ لتعرفنا عن هذا المنهج لا لِتُزيدنا إيغالا فيه..

من أجل ذلك، لم تأت بعد قصص هذه السورة، سورة أخرى مماثلة لها في وحدة طويلة تجمع هذا النسق كله. لا نقرأ هذا فيما نزل بعد هذا من القرآن في مكة أو المدينة، قد تأتي قصص قصيرة فيها جوانب من هذا الإعجاز كما في سورة البقرة مثلا – ولكنها جاءت لتخدم هدفا قرآنيًا محددًا، دون أن تكون ثمرة حوار جديد بين المسلمين وأهل الكتاب أو تحديًا معرفيًا كما جاء في سورة الكهف، أو تأصيلاً لمنهج جديد. فالمنهج في هذه السورة قد تأصل، في أكثر من موضع فيها كما رأينا وكما سنرى إن شاء الله.

ولقد انعكس هذا على التفكير الإسلامى، أولاً في الدراسات الخاصة بالإسلام، وثانيًا في الدراسات المقارنة بين الإسلام والعقائد الأخرى وبدا هذا في أمور نود أن نجملها فيما يلى:

١- أن ما قبل الإسلام تراث إنسانى، علينا أن نستفيد مما فيه من العبر والقرآن يلفتنا إلى السير في الأرض والبحث في التاريخ ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الروم:٤٢) وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك ١٥) وبهذا اتسع الفكر الإسلامى زمانًا ومكانًا وموضوعًا.

٢- أن المسلمين نظروا إلى هذا التراث الإنسانى في نظرة ناقدة فاحصة لم يقبلوا عليه بتسليم أو رفض. وإنما عرضوه على محك العقيدة إن كان دينًا وعلى محك العقل والملاحظة والتجربة إن كان من أمور الدنيا. والله تعالى يعلمنا فيقول مخاطبًا رسوله والمؤمنين من بعده ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ (الإسراء: ٣٦) وبهذا نستطيع أن نفسر مدى إقبالهم وأسلوب إقبالهم على تراث الهند والفرس واليونان والرومان

٣- أنهم أبدعوا لأنفسهم علومهم التى ينقدون بها حتى متون الحديث النبوى وأسانيدها وكانت لهم لغتهم العلمية المتميزة واصطلاحاتهم التى أثروا بها التراث الإنسانى كله. وهذا من أهم إضافات الحضارة الإسلامية إلى الحضارة الإنسانية في شمولها.

٤- أن المسلمين جمعوا في العلم بين دقة المنهج والمستوى الأخلاقى الذى يزنون به الأفكار والناس ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٨).

٢١ – العقيدة والمجتمع

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾.

أود أن نقف عند هذه الآيات وقفة تأمل.. فهى بدء مرحلة جديدة في سورة الكهف، سبقتها مرحلتان هما مقدمة السورة وتبين أهدافها العامة ثم قصة الكهف والرقيم وما تخللها من منهج وتوجيه وحوار وحقائق. وأمامنا الآن رحلة مع هذه الآيات حتى نصل إلى قصة موسى والخضر. وتضم الآيات من السابعة والعشرين إلى التاسعة والخمسين.

هذه المرحلة الثالثة فيها انتقال من قصة الكهف إلى واقع الحياة الإسلامية في مكة وتمهيد لبناء المجتمع الإسلامى في المدينة. ويأتى هذا بتحديد المنهج والعناصر البشرية التى تستطيع أن تحمل تبعاته. ووصف لما أعد الله لعباده المؤمنين من طيب الجزاء وما أعد للظالمين من العذاب وضرب الله لهذا مثلين هما قصة صاحب الجنتين أو الصاحبين والجنتين. ومثلا آخر لهذه الدنيا وثيق الصلة بمدخل السورة.. ثم يذكرنا ربنا بقصة الخلق وأبينا الأول، وفيها ثنائية أخرى: الخير والطاعة، والعصيان التمرد. آدم، الملائكة، إبليس، وعودة إلى التذكير

بالحساب والعقاب، وتأكيد على اتباع القرآن الكريم وتحذير من الإعراض عنه، ثم تذكير بمغفرة الله ورحمته وبالوعد الحق ﴿ مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾.

هذا هو الإطار العام.. العبر بين القصتين: الكهف وموسى وبينها مثلان: صاحب الجنتين ومثل الدنيا، وهذا المعبر ليس مجرد وصل بين قصص، وإنما هو توجية أساسى في بناء الفرد والمجتمع الإسلامى.. فلننتقل من العرض العام إلى الآيات التى نحن بين يديها.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ فهذا أمر أول: اتل ما أوحى اليك.

ثم يأتى الأمر الثانى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾

فهذان أمران أولهما متعلق بالكتاب: القرآن: قراءة واتباعا، والثانى متعلق بالمجتمع إخاء وتماسكا: بين القائد والصحابة، وبين الصحابة فيما بينهم، وبينهم جميعا وبين القرآن الكريم.

وبعد الأمرين يأتي نهيان: أما الأول فقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

وأما الثانى فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ وفى النهى الثانى تبدو صفات المشركين والظالمين، وهى ثلاث أساسية: (١) "أغفلنا قلبه عن ذكرنا"، (٢) "واتبع هواه"، (٣) "وكان أمره فرطا": الغفلة والهوى والضياع.

والآيتان تجمعان بهذا بين أمرين ونهيين وثلاث صفات للضالين.

ولنبدأ بالمجموعة الأولى: القرآن والمجتمع ؛ القانون الإلهى والناس وتحس وأنت تقرأ الأمرين بالتحديد الواضح،واستواء الطريق أمامك. وتأمل قول الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ ولقد تعلمنا من أصحاب المصطفى ﷺ مفهوم التلاوة عندهم: فهى قول وعمل. فهم وتصديق واتباع ربط وثيق بين كلمة الله وتنفيذها.

الخطاب موجه أولا إلى الرسول ﷺ والمؤمنون بالقرآن من بعده ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ وكلماته وما فيه من عقيدة وشريعة وقصص وأخلاق ودعوة إلى إعمال العقل وعمارة الحياة بالعمل الصالح وحماية العقيدة والمجتمع داخليا وخارجيا..

﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾: أى لن تجد من دونه ملجأ في البيان والإرشاد. وبهذا صرفه عن مماراة المشركين وأهل الكتاب والتمسك بكلمات الله،ومعية الله في كل أمر.. فمن وجد الله لم يفقد شيئا. ومن فقد الله لم يجد شيئا. هو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

ويأتى الأمر الثانى متعلقا بالمجتمع ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ وليس المقصود من ذلك العكوف في الغداة والعشى في المساجد دون عمل،أو الانصراف عن عمران الحياة بالعمل الصالح فدعاء الله هو بكل عمل صالح وجهد صالح. إن الطالب المخلص في طلب العلم، والعامل المخلص في انتاجه. والباحث المخلص في معمله وتجاربه والجندى المخلص في تدريبه واستعداده، ورجل الأمن المخلص في حفظ النفوس والأعراض.. كل أولئك يدعون ربهم. دعوة الله ليست مجرد كلمة على أطراف الألسنة،أو مجرد رفع الأكف بالدعاء،ولكنها بالعمل المبدع إذا قصدنا به وجه الله وخير النفس والناس.. كل هذا دعاء وعبادة.

ولماذا خص بالدعاء الغداة والعشى؟. المقصود الاستمرار في الغداة وهو الصباح. هو الانطلاق من راحة الليل إلى مسئولية النهار، والعشى هو العودة من مسئولية النهار إلى السكن. والعكس صحيح لمن تحمله مسئولياته على العمل

ليلا والراحة نهارا. إنها تحديد أوقات الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أو من مسئولية إلى مسئولية.

وهى تنصرف إلى المنقطعين في سبيل الله لا يجدون حيلة إلا الاعتكاف حتى يفتح الله لهم من الرزق والعمل بابًا.

كان المقصود الأول منها فقراء الصحابة، الذين أقبلوا على الإسلام فحاربهم أهلهم والمجتمع في أرزاقهم، والمستضعفين الذين عدا عليهم أغنياء قومهم حتى فداهم القادرون من الصحابة كأبى بكر وعبد الرحمن بن عوف بأموالهم.. كانوا فقراء لايكادون يجدون ما يستر أبدانهم. أجسام ضعيفة من الجوع والفقر، وقلوب ملؤها الإيمان بالله تعالى.

ولقد حاول أغنياء قريش التأثير على المصطفى ﷺ من هذه الناحية، وأخبروه أنهم لا يغشون مجلسه لمن فيه من الفقراء والضعفاء بثيابهم الزرية وأوضاعهم الاجتماعية. فأكد الله تعالى للنبى أن هؤلاء الضعفاء هم الأقرب إلى الله بإيمانهم، وهم الأثقل في ميزانه في الدنيا والآخرة. ونلاحظ أن الله وصف هؤلاء بصفات عقائدية وأخلاقية مفتوحة الأبواب لكل مؤمن: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أى إنسان مهما يكن وضعه الاجتماعى أو الاقتصادى ودعا ربه وأراد وجهه، كان على المصطفى ﷺ أن يصبر نفسه معه.. ولم يقل الله له: واصبر مع الذين يدعون ربهم. وإنما قال: ((واصبر نفسك)) في مزيد من التأكيد نفسك من الداخل. قلبك يامحمد يكون مع هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه.

وننتقل بعد هذا إلى النهيين: ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

فكلما صبرت نفسك معهم، اجعل عينك عليهم ومعهم حبًا وإخاء فأنت يامحمد بالمؤمنين رءوف رحيم. ولا تعد عيناك عنهم. لا يمتد نظرك إلى من وراءهم من أغنياء قريش. إنهم مجرد زينة الحياة الدنيا. أجسام وثياب ومنظر خشب مسندة، مظهر دون مخبر. فاجعل المؤمنين قرة عينك، احبس عليهم نظرك كما

حبست عليهم نفسك. إنهم معدن الإيمان والإسلام وعدتك ليوم الإسلام وغده. وبنائه وجهاده. وبهذا يتأصل التماسك القوى بين القيادة والقاعدة وفيما بين القاعدة وبين الجميع والمنهج الربانى الذى جاء به القرآن.. لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا..

ويأتى النهى الثانى والأخير يحمل معه الصفات الثلاث للضالين: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ لا تطع هؤلاء الأغنياء في إبعاد الضعفاء. وصارحهم بما جاء به القرآن وأنت له متبع.. أما هؤلاء الضالون ففيهم صفات ثلاث: قلوب غافلة عن الحق صرفها متاع الدنيا وزينتها عن الفكر العميق المؤدى إلى الإيمان، واتباع الهوى ومظهريات الحياة وتراث الأجداد وإن كان باطلا، مواريث الجاهلية أو جحود أهل الكتاب.. فماذا كانت النتيجة.. وكان أمره فرطا.. لاضابط له.. وتصور - كمثال - مسبحة نزعت منها سلكها. وانتثرت حباتها.. كل حبة في اتجاه.. هكذا مصير الفكر والقلب.. إذا توزعته الشهوات والأهواء.. قارن هذا الأمر الفرط بالدقة الدقيقة والصراط السوى الذى تجده في صدر الآية الكريمة:

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾.

وصدق الله العظيم: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

٢٢- ثنائيات في سورة الكهف

يقول الله تعالى:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

هذه آيات ثلاث: واحدة في وصف الظالمين، واثنتان في وصف المؤمنين. الوصف الأول ينتهى بقول الله: وساءت مرتفقا، والوصف الثانى ينتهى بقوله: وحسنت مرتفقا. المقابلة واضحة بين الظلم والإيمان، والسوء والحسن. وكلمة "مرتفقا" ختام كل من الوصفين. فأمامنا مقابلة هى الرابعة حتى الآن في سورة الكهف، والتى تبرز فيها هذه الثنائيات:

١- فى صدر السورة مقابلة بين المؤمنين وبين الذين قالوا اتخذ الله ولدا.

٢- وتأتى قصة الكهف وفيها المقابلة بين المؤمنين والذين اتخذوا من دون الله آلهة.

٣- وتنتهى القصة لنرى ثنائية ثالثة: بين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجه الله وبين أصحاب القلوب الغافلة واتباع الهوى الذين انفرط أمرهم.

٤- ثم تأتى الثنائية الرابعة، وهى ثنائية ممتدة فيها وصفان وأول كل وصف عمل في الدنيا وآخره جزاء في الآخرة.

وستتوالى في السورة ثنائيات أخرى.. فبعد هذه الرابعة تأتى ثنائية خامسة مباشرة مطلعها قول الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴾.

ذكرت هذه النماذج الخمسة المتوالية لأبين جانبا من نسيج سورة الكهف، وأننا نجد فيها خيوطًا ممتدة من أولها إلى آخرها. السورة كلها وحدة، تستطيع أن تتبعها في ثنائياتها، وتستطيع أن تتبع الإيمان في آفاق ظهوره عملا في الدنيا وجزاء في الآخرة وتستطيع أن تتبع الظلم والكفران في آفاق ظهوره: كيف يتسرب أولا إلى النفس، وكيف يعشش فيها. ويفرخ ويتكاثر وما أثره في دنيا الناس، ما جزاؤه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وتستطيع، وأنت تعيش مع خط الإيمان في السورة، أن ترى امتدادها عبر الزمان والمكان، فتزداد بالإيمان ألفة ومودة، وبالمؤمنين صداقة وحبا، وتحس — وأنت على طريق الإيمان — أنك لست وحدك، ولست في قلة، ولا في طريق مسدود.

طريق الإيمان مفتوح مع بدء الحياة. وستأتى إشارات إلى قصة آدم في سورة الكهف. والصراع بين الإيمان والجحود قديم.. أول قصصه ما كان بين آدم وإبليس، وأن إبليس قبل أن يغوى آدم، كان قد فسق عن أمر ربه فنصحه لآدم مردود عليه. فوسوسته له ولأبنائه هى الخطر الكبير. ولازال. وتتعاقب الثنائيات: أمثلة وقصصًا وأزواجًا.. ومع هذا الفيض من علم الله نقرأ في خواتيم السورة: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾

وبعد هذه الرحلة السريعة في السورة نعود إلى الثنائية التى أمامنا والتى تبدأ بقول الله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾

قل لمن؟ إن نظم الآية الكريمة يحتمل وجوها، نصاحب في عرضها ما ذكره الإمام الفخر الرازى في تفسيره:

الأول: أنه تعالى لما أمر رسوله بأن لا يلتفت إلى أولئك الأغنياء الذين قالوا: إن طردت الفقراء آمنا بك، قال بعده: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أى: قل لهؤلاء إن هذا الدين الحق إنما أتى من عند الله، فإن قبلتموه عاد النفع إليكم إن لم تقبلوه عاد الضرر إليكم، ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى، والقبح والحسن والخمول والشهرة.

الوجه الثانى: يمكن أن يكون المراد أن الحق ما جاء من عند الله. والحق الذى جاءنى من عنده، أن أصبر نفسى مع هؤلاء الفقراء، ولا أطردهم، ولا ألتفت إلى الرؤساء وأهل الدنيا.

الوجه الثالث: أن يكون المراد أن الله تعالى لم يأذن في طرد من آمن وعمل صالحا، لأجل أن يدخل في الإيمان جمع من الكفار. فإن قيل: أليس أن العقل يقتضى ترجيح الأهم على المهم؟ فطرد أولئك الفقراء لا يوجب إلا سقوط حرمتهم، وهذا ضرر قليل. أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر، وهذا ضرر عظيم، قلنا: أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر فمُسلّم، إلا أن من ترك الإيمان لأجل الحذر من مجالسة الفقراء فإيمانه

ليس بإيمان، بل هو نفاق قبيح، فوجب على العاقل أن لا يلتفت إلى إيمان مَنْ هذا حاله وصفته: اهـ

وبهذا شرع الإسلام من أول الأمر - نظريًا وعمليًا - المساواة بين الناس في أمر الإيمان،وحفظ كراماتهم. فمن أقبل على الإسلام،فله كرامة الإسلام غنيا كان أو فقير،من سادة الناس أو من عامتهم وسوادهم. وجاء تطبيق ذلك في مرافق الحياة الإسلامية جميعا.. أقربها بيت الله. يجلس في الصف الأول من جاء مبكرا، ولا علاقة لهذا بغنى أو فقير. ليس صفوف المسجد الأولى للأغنياء وأوسطها لأواسط الناس وآخرها لفقرائهم.

كذلك مجالس العلم،أقرب الناس مجلسا إلى العالم من جاء مبكرا، وتتسع من حوله الحلقة دون تخطى أعناق الناس واختراق صفوفهم والجلوس في سماحة وأخوة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ (المجادلة: ١١).

وانشزوا: قوموا بعد انتهاء الدرس. ففي المجلس أدب جلوس وأدب قيام لا علاقة لهما بأى وضع اجتماعى أو اقتصادى

وتبلغ هذه المساواة ذروتها في موسم الحج، حين نتجرد من ثياب هى بين الناس - أو كثير من الناس - شارة تميز، وبيان لوضع اجتماعى أو اقتصادى ونرتدى جميعًا ثياب الإحرام. والإحرام حرمته. حرمة الإنسان: دمه وعرضه وماله وكرامته.حرمة الإخاء الداعى إلى المساواة،وتحس في المطاف أنك نقطة من هذا النهر الطواف حول الكعبة.. تتحول نفس الدائرة إلى مستطيل في السعى إلى نهرين هما نهر واحد.. يختلفان في الاتجاه ويتحدان في القصد،ثم أنتم جميعا في عرفات ضيوف الرحمن،أيديكم مرفوعة بالدعاء للواحد الأحد هنا يجمعكم الزمان والمكان والإحرام، ويجمعكم الخضوع للرحمن هنا الولادة الجديدة.. هنا التجدد: تجدد الإخاء والمساواة.. في عرفات اعرف نفسك،وفى الشهر الحرام أشعر قلبك ووجودك في هدوء ليل تضيئه النجوم والقمر. هذه المعانى النبيلة، وفى منى حوِّل هذه المعرفة وهذا الشعور إلى حب وتعبير عملى.. رجما للشيطان وطاعة

للرحمن وإطعاما للبائس الفقير.. ويأخذ إخاؤك صورته العملية تعبيرًا عن حب الخير وكراهية الشر..

الإسلام كله إخاء ومساواة، إخاء ترتفع به العقيدة وأداء المناسك إلى أن يصبح جزءا من نسيج حياتك. بل يصبح هو الإيمان أهم معالم حياتك: وما الإسلام؟ إنه توحيد الله ووحدة المجتمع. ومن الوحدة والتوحيد تنطلق إلى بناء الحياة خذ الإسلام من أى زاوية شئت.. اقترب إليه من أى فج عميق، ستجد كعبة التوحيد، والمؤمنون من حولها رموز المساواة عقيدة وسلوكا.. حتى الزكاة: هى مقاربة بين القادر وغير القادر، حتى الصوم أساسه المساواة.. ولا يباح فيه الإفطار إلا بشروط صحية أو طوارئ حياة حددها علماؤنا للرجال وللنساء.. للشباب والشيوخ و في غير هذه الطوارئ.. كلنا سواء، نتحرك أول الشهر بحركة القمر، وفى أثناء الشهر بحركة الشمس و في ختام الشهر مع القمر كأننا كون في الكون يتسق مع حركة الوجود..

لا يا كفار مكة.. ولا يا من تسيرون على دربهم، وإن حملتهم من الإسلام أسماء وشارات..إن الإسلام إخاء وكرامة، لا يذاد فيه فقير لفقره عن مجلس أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام. إنه مجلس الإيمان، وبطاقة دخولك إليه أن تكون مؤمنا أو راغبا في الإيمان، أو محترما لإرادة الإيمان.

أرأيت كيف تحددت معالم الإسلام الكبرى من أول أمره: الإيمان وكرامة الإنسان. وقول الله تعلى ينير لنا الطريق: وقل الحق من ربكم.

٢٣- فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

بعد أن بين الله لنا بأكثر من مثال طريق الحق قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

وهذا التخيير تحذير من الكفر ودعوة إلى الإيمان في هذه الآية ينسب المشيئة إلى الإنسان: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وفى آيات أخرى تأتى المشيئة منسوبة إلى الله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

وفى آيات أخرى تأتى إرادة الإنسان مرتبطة بمشيئة الله ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

ومرة يأتى الفعل منسوبًا إلى الله (لا مجرد المشيئة) مثل قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة: ٧).

هذا بعد أن نسب الفعل إليهم في الآية السابقة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة: ٦) ولقد أطال علماؤنا القول في أمر المشيئة. والأقوال والمذاهب فيها متعددة. ولا أظن – ولا أريد أن أضيف جديدا أو أفتح حوار في أمر طال فيه القول. وليس منا أحد إلا سأل نفسه مرات عن سر القدر وحدود قدراته في هذه الحياة، وما أراده الله له ومنه.

والشباب بخاصتهم والمقبلون على الدين بأخص، يشغلهم موضوع المشيئة..

أما الكثير من أهل الغرب، فقد طرحوا الموضوع من أذهانهم. ألقاهم في المؤتمرات الدولية، وقد تسنح فرص للحديث في أمر الدين والألوهية والتقدم العلمى. وهم قوم لهم حياتهم واهتماماتهم. وأود أن أذكر في هذا الحديث ثلاثة صنوف في هذا الأمر، ثانيهم أقرب إلينا من الأول..

أما الصنف الأول، الغالب في الغرب، فقد جعلوا الإنسان محور الحياة والكون. البحوث والاهتمامات تبدأ منه وتنتهى إليه. الآخرة عندهم جذبوها إلى الدنيا. فالدنيا عندهم هى الدنيا والآخرة. هى العمل والجزاء والثواب والعقاب لا يمدون أنظارهم إلى ماوراء هذه الحياة، إلا قليلا. جاءوا من التراب وإلى التراب يعودون. والقليل القليل عن وصف الآخرة والحساب تجده حتى في كتب دينهم أو في عظاتهم. ولقد أرجع الأستاذ أرنولد توينى المؤرخ العالمى وهو من أعظم مؤرخى القرن العشرين أرجع هذا العالم الكبير تفشى الانتحار في العالم الغربى إلى هذا الاتجاه الفكرى أنه عمليًا - لا آخرة ولا إيمان بها عند القوم - أمّا الذين يؤمنون بعقيدة الآخرة وبالبعث والنشور فالانتحار عندهم محدود حين يقارن بالاتجاه السائد في الغرب. ذلك لأن الآخرة امتداد وعدل وأمل.. وراء هذه الحياة حياة، أما

في الغرب فوراء الحياة فناء ومن هنا جاء اندفاعهم العنيف إلى ملذات الحياة كما جاء احتفالهم الكبير بالتقدم فيها والتفوق. فهى ولا شىء وراءها.. هكذا يؤمنون. وجعلوا التحدى هو تحدى التقدم. التحدى العلمى. التفوق. الابتكار وأسلوب التنافس والصراع المحموم والفردية التى تصل إلى حد الشراسة في معاملة الخصوم أو الضعاف. والمجتمع العالمى أصبح معسكرات تحميها أسلحتها. الدولة بقوة سلاحها. المعسكر بقوة سلاحه. والتفوق والحرب دائرة عمليًا في المعامل ومراكز البحوث. ابتكار يقتل ابتكار. وسلاح يتفوق على سلاح. وحرب الأرض انتقلت إلى حرب النجوم.

ننتقل إلى اتجاه آخر يحاول أن يجمع بين الأخلاقيات والتفوق العلمى. إنسانيات هذا الاتجاه لا تجدها ـ في الأغلب ـ عند رؤساء دولهم إلا بعد أن يتركوا السلطان والمسئولية. أما وهم في سلطانهم فلا حديث إلا عن القوة والردع والتفوق. ومن دون الدول الكبرى يدورون في فلكها راضين أو مجبرين أو إلى حين.

وأذكر حديثًا مع مسئول منهم أن قال: إن التقدم العلمى قوة لاشك فيها ولكنها المارد الذى لا عقل له. لقد سيطرنا على طاقة هى قادرة على تدميرنا ومع النمو العلمى نعانى من ضمور في أخلاقيات التعامل العالمى. ارتبط القول بالأخلاق بالضعفاء. أما الأغنياء فسندهم هو القوة.

فهل يستطيع أصحاب الأديان أن يتقدموا إلى الإنسانية. بميثاق أخلاقى؟ وأذكر تعقيبًا لمسئول آخر أن قال: هذا حديث يقال عند المقابر وفى المعابد ولا يقال في ساحات السياسة وهى الصورة الأهدأ من ساحات الصراع ومن ورائها قاعات الأسلحة ومن ورائها ميادين القتال.

وانتقل إلى الاتجاه الثالث وهم أصحاب الأديان الذين يبدءون من ((الله)) لا من "الإنسان" يبدءون من الله إيمانًا به: خالقًا للإنسان، باعثًا الرسل، منزلاً الكتاب، تقرأ في أول كتابه: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

الله الذى أكرم عباده أولا بنعمة الوجود وجعلهم خلفاءه في أرضه، والإنسان هو المخلوق الوحيد الذى له تاريخ.. هو كائن قادر على ربط الماضى والحاضر

والتخطيط للمستقبل. وهو الكائن الوحيد القادر على حرية الإرادة وتسجيل هذه الحرية وتطويرها ونقل تجاربها. وحياته تفاعل بين توجيهات ربانية وجهود إنسانية. وأقصد بإنسانية: تجاربه وتجارب الآخرين الذين يقتربون أو يبتعدون عنه في الزمان والمكان.

هذا هو الإنسان

أمّا الله فقد عرّفنا بذاته وصفاته في كتابه وعلى لسان أنبيائه ورسله، هو المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقص. ومن كمال الله كمال علمه، علم يستوى فيه ما نقول عنه نحن أنه الماضى أو الحاضر أو المستقبل: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: ٣) المستقبل في علم الله - كما نحدده نحن - يستوي مع الماضى. فعلم الله لا يزيد بالزمن، ولا تُضاف إليه معلومات مما يحدث منا، ولا ما تنتهى إليه إرادتنا الحرة.

هذا العلم المطلق لا يقيّد حرية إرادتنا. والله تبارك وتعالى المحيط بكل شيء يعلم ما تنتهى إليه إراداتنا. هذه صفة كمال لله وليست صفة جبر ولا قسر.

وأنت تحس هذه الحرية. ولكن لها حدود. حدود من القدرة البدنية والقدرة الفكرية والعصبية. حدود من التناسب الخَلْقى والخُلُقى. حدود من الوضع الاجتماعى أو المورد الاقتصادى.

ولن يسألك الله عن أمر هو خارج حدود قدرتك ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقد رسم لك دائرة إمكانات تتحرك فيها، وفى حدودها يكون حسابك. حسابك كفرد ﴿ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾. (مريم:٩٥).

حسابك في أمور ينبغى فيها التعاون مع غيرك. ولا تقوم الحياة إلا بالتعاون فيها. ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ (المائدة:٢) ومثل قوله تعالى في الدفاع عن المجتمع: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ

ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال: ٦٠).

والله يحاسبك على مدى ما أفدت من قدراتك، والمواهب التى أعطاها لك فرق بين حساب الذكى الموهوب والخامل المحدود، فرق بين حساب من كان على خزائن الأرض ومن قدر عليه رزقه، فرق بين حساب من آتاه بسطة في العلم والجسم وبين المستضعفين في الأرض. كل أولئك محسوب دقيق. والله تعالى يقول: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

وأعتقد بهذا تتحدد الأبعاد الأساسية في قضية المشيئة. والملاحظ أن الإنسان لا يتجه إلى البحث فيها ـ في أكثر الأحوال ـ إلا إذا كان راغبًا في التهرب من مسئولية أو إلقاء العبء على غيره، أو كان مغلوبًا على أمره.

أما الناجح والمنتصر فهو أكثر الناس إحساسًا بحرية إرادته. وهو إذا كان مؤمنًا، كان أكثر الناس إحساسًا بفضل الله عليه إذ رضيه أهلاً للنجاح والانتصار.

وأذكر هنا كلمة عميقة لفيلسوف الإسلام محمد إقبال يقول فيها "إن المؤمن الضعيف يحتج بقدر الله. أما المؤمن القوى فهو قدر الله ينفذ الله به مشيئته"، وقد تناول إقبال موضوع المشيئة تحليلاً علميًا في كتابه. "تجديد الفكر الدينى في الإسلام" وتناولها أدبيًا في أكثر من كتاب من كتبه أذكر منها "أسرارى خودى"، "أسرار الذات". ورموز بى خودى ((رموز الذات)) أحدهما عن الفرد والثانى عن الجماعة الاثنان عن الإيجابية في مواقف الحياة، ثم بلغ الذروة في المقارنة بين المواقف الإنسانية من حرية الإرادة الإنسانية في حدود المشيئة الإلهية في أهم كتبه "رسالة الخلود" أو "جاويد تامه" وجاويد معناها الخلود. وهو في نفس الوقت اسم ولده، وتامة معناها كتاب.

وننتقل بعد هذا إلى عرض الثنائية الرابعة بعد هذا المدخل عن الحق والإرادة

٢٤ـ الظالمون والمؤمنون

بعد أن وصف الله تعالى الكفروالإيمان، والباطل والحق، أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والأعمال الباطلة،ويذكر الوعد على الإيمان والعمل الصالح[1] ولنبدأ بالوعيد كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾.

ونبدأ بالمعانى اللغوية لكلمات الآية: السرادق هو الحُجزة تكون حول الخيمة تحيط بها من كل جهاتها. المهل: ضرب من القطران أو صهير المعادن. والمرتفقة: المنزل أو ملتقى الرفقاء.

وهذا مشهد عذاب نستعيذ بالله منه ونسأله سبحانه أن يجعلنا من عبيد إحسانه، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ولا أكثر.

وعند كتابة هذه السطور طافت بذهنى ذكريات النشأة الأولى والبيت قريب من المسجد. وكان من عادة المؤذنين في بعض مساجد الإسكندرية قبل صلاة الفجر أن يتوسلوا إلى الله تعالى بالدعاء. وكانوا ينشدون بعض الأشعار بصوت فيه إنابة وتوجه إلى الله وحنين.. و استعاذة من النار وسؤال الله الجنة والمبادرة إلى التوبة.. ووقر في نفسى من قديم قولهم (الأبيات للأمام الشافعى رضى الله عنه):

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت رجائى نحو عفوك سُلَّما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ... ربى كان عفوك أعظما
فلازلت ذا عفو عن الذنب ... لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

وقوله:

إلهى لست للفردوس أهلا ... ولا أقوى على نار الجحيم
فهب لى توبة واغفر ذنوبى ... فإنك غافر الذنب العظيم

فإذا ذكرنا وصف النار في كتاب الله تعالى فهى نذير للعصاة أن يتوبوا ونذير للمؤمنين أن يزدادوا عن طريق الشر ابتعادًا.

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى ١١: ١٢١

ووصف الجنة من بعدها ترغيب للعصاة أن يتوبوا ويتخذوا إليها سبيلاً وللمؤمنين أن يزدادوا استمساكًا بالحق الذى بأمره يعملون،وعلى صراطه يسيرون.

وصف النار في القرآن من مظاهر رحمة الله تعالى. فهناك نفوس يكفى لكى تتجه إلى الخير أن تحس حلاوته. يكفى أن يأمر به الله وهناك نفوس تقبل على الخير خشية النار والعذاب. والإسلام يجمع هذه الجوانب جميعًا.والله سبحانه وصف المؤمنين - بل صفوة من المؤمنين بقوله:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ (السجده: ١٥ — ١٨).

ولقد وصف الله تعالى المؤمنين في موضع آخر في كتابه فقال: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر: ٢٣).

فوصف النار كما جاء في كتاب الله تحذير. هو مظهر رحمة يسعد به المؤمن ويلقاه الظالم.. ولكن كيف يصل إليه؟ هنا لنا الوقفة تصور هذا الظالم يسير في طريق.. يمر على آيات الله في الأنفس والآفاق فلا يلتفت إليها أو يراها ثم ينصرف عنها. ويتابع سيره. فتعرض له أحكام الله وحدوده، فلا ينفذ حكما ولا يرتدع من حد. ولا يخشى عاقبة الليالى. ويتابع سيره. فيمر على ما وعد الله المؤمنين من نصر في الدنيا وتأييد وفى الآخرة من جنة عرضها السماوات والأرض، فلا يقف عند نصر الدنيا ولا ثواب الآخرة، ويتابع سيره.. يمر على حقوق الناس، وهي حقوق حياة كفلها الدين وكفلها القانون، فلا يردعه دين

ولا قانون. ويتابع سيره.. هذا الذى تخطى في مساره حقوق العباد، ونهب مال الفقير واليتيم، واغتصب وفجر، هذا الذى لا يرتدع من قانون أو دين.. ماذا يجد بعد أن تخطى كل هذه المراحل. وافرض أنه في الدنيا كان له من السلطان ما يجعله هو القانون، ومن البطش ما يجعله هو القوة.. فهل يتفق مع عدل الله أن ينجو هذا الباغى إذا جمع إلى البغى السلطان والبطش؟ إن عدل الله يقضى حسابا إذا عز حساب الدنيا وجزاء أخرويًا إذا استطاع الظالم أن يتابع ظلمه حتى يموت.. لن يجد أمامه بعد أن تخطى كل هذه المراحل إلا النار بعد الحساب العادل يوم يقوم الناس لرب العالمين.

والله سبحانه وتعالى أنذره هذه النار وهو في الدنيا وحذره منها، ووصفها له وصفاً دقيقاً كأنه يراها، فلا يلومن بعد هذا إلا نفسه. أرأيت أن من رحمة الله بعباده أن يبصرهم بما أعد للظالمين من عذاب، وللمؤمنين من ثواب؟.

ونعود إلى الآية الكريمة لنرى فيها وصف العذاب أعاذنا الله منه: ﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا ﴾.

أعتدنا: فعل ماضى. والفعل الماضى يفيد الحدوث أو يقينًا كأنه الحدوث وقبل أعتدنا "إنا" تأكيدًا لهذا الإعداد. ونسبة الإعداد إلى الحق العادل الواحد القهار، وهي معدة للظالمين، هم الذين بدءوا بظلم أنفسهم وظلم الناس، أما الحق جل وعلا فلقد أنبأنا المصطفى ﷺ عن رب العزة في الحديث القدسى الذى يرويه عن ربه "ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا".

ووصف ربنا النار بقوله: ﴿ أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا ﴾ وما سرادق النار. كأنها نار من حولها سرادق من نار. هل هو دخانها؟ هل هى شعبها.. نستحضر في هذا قول الله في وصف النار في آية أخرى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ۝ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴾ (المرسلات: ٣٠ ـ ٣٤).

وكيف تكون النار: ظلاً لا ظليلا، تتصاعد ألسنته، وترمى النار بالشرر ويختلط ظل النار بالنار ولا يدفع الظل لهبًا كما يحاول الإنسان في دنياه أن

يستظل من حر الشمس، ويندفع شررها قطعًا كبيرة كالحجارة الصفراء.. أو كالإبل السود (والصفر سود الإبل[1])..

سرادقها تحمل معنى الحجزة التى تكون حول الخيمة، فليس للظالمين مخلص ولا مهرب من النار. النار تكتنفهم والدخان من حولهم.. لا فرجة حتى للنظر وليس إلا الدخان والنار و إلا حوار جاء ذكره في موضع آخر مع أهل النعيم.

وأى جسم يتحمل هذه النار؟ وأى صدر يتحمل هذا الدخان؟ نار واحدة كانت بردًا وسلامًا،وكان هذا مع إبراهيم أبى الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام. أما هذه النار فالذى فيها لا يموت ولا يحيا، هى ليست كنار الدنيا الحارقة القاتلة. وأجسام الظالمين ليست كأجسامهم في الدنيا قابلة للحريق، ولا صدورهم قابلة للاختناق. وإنما إقامة في النار. لاهى موت يستريحون به، ولاحياة يطمئنون إليها.

ثم ذكر ربنا بعد هذا صفة ثانية للنار..

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾.

إنهم يستغيثون من حر النار ويأتى الفعل بعد هذا مبنيًا للمجهول "يُغاثوا" من يغيثهم؟ من يسقيهم؟ كيف؟ وكيف نعرف والفعل مبنى للمجهول زيادة في تصوير الهول.. الذى يُغاثون به "ماء" ولكن أى ماء؟ إنه ماء كالمهل: وتصور مصهور المعادن. تصور حمم البراكين السائلة، وقد سال فيها الصخر واندفع فوق الأرض حارقًا كل ما يجد.. هذا هو الغوث معدن مصهور.. وكيف تتحمله البطون.. إنه من بعيد بحرِّه واشتعاله يشوى الوجوه.. وهل لهذه الوجوه قدرة على مزيد من تحمل الحرارة.. النار التى تكتنفهم. الدخان من حولهم. معادن من صهير المعدن يشوى الوجوه وهو يقترب منها.. ويوضح ذلك قول الله تعالى في وصف مصدر هذا المهل ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ (الغاشية: ٢- ٥) هذه العين الحارة هى مورد الماء الذى يردون. ثم يعقب ربنا على هذا بقوله ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ألم يكونوا من قبل في

---

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزى ٨: ٤٥٠- ٤٥١

دنياهم ناعمين، وكانوا يستطيعون فعل الخيرات وإقام الصلاة والبر بالضعفاء وكفالة العدل. كانوا. ولكنهم عن هذا عدلوا إلى الشر والحرام. فهذا شرابهم يوم الجزاء، وساءت النار لهم منزلا ،وأهلاً لهم صحبة ورفقة. ومن تفسير (مرتفقا) ومكانًا يتكئون عليه بالمرافق. والاتكاء راحة. ولكن أى راحة.. لاشراب ولاراحة ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

أعاذنا الله من عذابه وجعلنا من أهل رحمته وجنته.

٢٥- الإيمان والعمل والجزاء

بعد أن وصف الله تعالى جزاء الظالمين في تركيز وإيجاز انتقل إلى وصف المؤمنين في تفصيل يحمل إلى النفس روح الجنة وريحانها. عدد الكلمات المحدود في وصف النار والعذاب كأنه نظرة عميقة جامعة سريعة. كأن بابًا فُتح فرأينا من ورائه صفحة العذاب ثم انتقلنا منه إلى باب آخر. باب كله خير ونور. هو باب النعيم.. باب على طريق،أوله الإيمان والعمل الصالح ،وغايته ومنتهاه. جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار.

ولنقرأ معًا ما جاء وصفًا للإيمان وجزائه:
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾.

الربط بين الإيمان والعمل. وبينهما وبين الجزاء. قد يتأخر الجزاء. قد يأتى بصورة غير متوقعة. ولكن لايضيع عند الله أبدًا. قد يكون بعضه في الدنيا، وبعضه في الآخرة. أو كله في الآخرة كما يحدث مع الشهداء.. ولكن الله تعالى أخبرنا، أنهم وهم في جواره، وقبل القيامة، يحسون ويفرحون ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ويصف الله ما أعدّ لهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾.

وفى وصف هذا الجزاء مسائل:

الأولى: لهم جنات.. والجمع يفيد التعدد والتنوع، يلتقى هذا مع قول الله تعالى ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٧).

- وقوله ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن: ٤٦).
- ومرة نقرأ: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣).

ففى آية نقرأ "جنة" ومرة نقرأ "جنتان"، ومرة "جنات"، ومرة هى "عدن"، ومرة "فردوس". لكل جنة ولكل جنة وأكثر.

((وعدن)) معناها الإقامة أو هى جنة هى جزء من الجنة الكبرى،جنة الجزاء..

المسأله الثانية ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ وتأمل في هذه الآية قول الله ((من تحتهم)) هذه الشبكة من الأنهار التى يراها كل من أسعده الله بالجنة. والنهر ليس مجرد ماء يجرى. إنه في دنيانا هذه: حركة متجددة. صورة. لون هدير. خرير. موسيقى من التدفق. ولازلت أذكر في زيارة لقصور الحمراء في غرناطة، وكيف صنع الإنسان – والإنسان مخلوق – كيف صنع من الماء موسيقى،لها سلم في تدفقها،وكيف صنع منها حجومًا وأشكالاً.. تتناغم مع درجات لون الخضرة.. هذا في دنيانا.. ولقد كان الماء ولازال من أهم ما تغنى به الفنانون وبخاصة الفنان المسلم: النافورات. أماكن الوضوء في المساجد. إن قول الله تعالى: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ تحمل من معانى الجمال والجلال ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. إن ربنا أعطانا – نحن البشر – جانبًا من القدرة على الإبداع.. وأرانا جوانب من الإبداع في خلقه، وهو سبحانه – بديع السماوات والأرض – ووراء كل جمال تصورناه جمال في دار الخلد والمقامة.

المسألة الثالثة: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾.

وقفت عند هذه الآية وفيها ذكر الذهب والسندس والاستبرق؛ والسندس هو الحرير الرقيق، والاستبرق هو الحرير الصفيق أى السميك، والثياب خضرا والخضرة أكثر الألوان إراحة للنظر.. نحن نستبشر به يقظة ومناما.. وحتى في دعائنا ندعو الله أن يجعل الحياة خضراء، والخضرة رمز الشباب المتجدد. واللون في ذاته لغة..

نربط بين هذه الحلية من ذهب واللباس من حرير، وما جاء في آية أخرى في وصف حلية أهل الجنة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (الحج: ٢٣ - ٢٤). والآية تضيف اللؤلؤ إلى الذهب والحرير.

وفى آية سورة الإنسان. ﴿ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (٢١) إضافة الأساور الفضية والشراب الطهور.

ونقف قليلا عند اللباس والحلية:

جاء في الحلية قول الله تعالى "يُحَلَّوْن". الفعل مبنى للمجهول من الذى أو الذين يحلونهم؟ هل تحليهم الملائكة؟ هل يحلى بعضهم بعضا،أهلا وأصدقاء؟ كما يتهادى أو كان يتهادى أهل الدنيا الحلى؟ وما مصدر الحلى في الدنيا؟ البر والبحر. وما حلى البر؟ الذهب والفضة وما يلحق بها. وما حلى البحر؟ اللؤلؤ وما يلحق به. والحلى للتجمل. والتجمل تنوع في الحلى شئ من الفاكهة التى وصف الله أمرها وتناول المؤمنين لها في جنته فقال: ﴿ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ (الواقعة: ٢٠) وفى التخير إحساس بالجمال. إنه متعة ذهن وفكر قبل أن يكون متعة تناول.

أما اللباس فللستر والتجمل أيضا.. فهى تشترك مع الحلى في التجمل وتنفرد دونها بالستر.. والسندس والاستبرق يشتركان في أنهما حرير ويتباينان رقة وسمكا.

المسألة الرابعة: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ والأريكة في ذاتها ستر آخر. والأريكة سرير في حجلة. والحجلة، بيت يزين بالثياب.. فالأريكة مكان جلوس واتكاء، عليه ستر متى شاء صاحبه أرخاه، ومتى شاء كشفه وفي هذا مزيد من الحرية والتمتع.

المسألة الخامسة: ﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ في هذا مقابلة، مع ما جاء عن الظالمين وجزائهم ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ومع المقابلة تباين: هناك بئس الشراب. وهنا نعم الثواب جاءت بئس وصفًا للشراب. ونعم وصفًا للثواب. وفرق كبير بينهما. جزاء الظالمين حق وعدل. ولا يوصف الحق والعدل ببئس.. وإنما يوصف به طعامهم وهو من ضريع، وشرابهم وهو من حميم.. أما الثواب فيوصف بأنه "نعم" الثواب المتمثل في كل ما حولهم من ماء وظل وأنهار وشراب ولباس وحلى ورفقة، وقلوب مبرأة من الغل، وألسنة حامدة شاكرة هذا كله "نعم الثواب.." ووراء كل خير زيادة هى من فيض الرحمن وفضله. ويعقب ربنا على هذا بقوله: (وحسنت مرتفقا) هذه الصورة كلها بتفاصيلها وزياداتها التى لا تقف عند حد بنعيمها ورفقتها = حسنت مرتفقا.

٢٦- حوار مع صاحب الجنتين

تأتى بعد هذا ثنائية أخرى. صورة من صور الدنيا بين اثنين: أحدهما سعيد بإيمانه، والآخر بما بين يديه من متاع الدنيا.. ونحس نوعًا من التشابه- أقول نوعًا لا أكثر - بين ما جاء في وصف جنة الجزاء، وما جاء في وصف جنة الاختبار والابتلاء.. ثم يمضي الأمر، فإذا الجحود يعصف بجنة الابتلاء، ويمضى الإيمان على طريقه السوي حتى يصل إلى جنة الجزاء التى لاتفنى ولا تبيد.

ولنقرأ معًا قول الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾.

هذان رجلان. صاحبان. أو أخوان. لأحدهما جنتان وتستخدم الآية لفظ. جعلنا لأحدهما جنتين.. فهما من فيض الله وإرادته. والأفعال في وصف الجنتين كلها منسوبة إلى الله تعالى: " وحففناهما. وجعلنا بينهما زرعا. وفجرنا خلالهما نهرا. الجنتان وما فيهما من أعناب. النخل. الزرع وهذه ثلاثة. والأرض طيبة بدليل أن الجنتين مثمرتان. والماء متوفر، "وفجرنا" تفيد الكثرة والتدفق والجريان وكان له ثمر..، والثمر هنا تحمل معنيين: الأول ثمار الأرض نفسها وهى الأعناب والنخيل والزروع. أو أثمان هذه الغلات فالثمر هنا تعنى الغلات ذاتها أو أثمانها.

ومرة أخرى المقابلة بين الفقر والغنى. بين الفقر المصحوب بالإيمان والغنى المصحوب بالكفران. مرة أخرى نرى صورة المستضعفين من المؤمنين والمستطيلين عليهم من سادة قريش وكبرائها. مرة أخرى ترى انتصار القرآن للإيمان حينما كان موقعه في المجتمع، وردعة للكفران وإن اغتر بالمال والجاه والسلطان.

وتتوالى الأمثلة تؤكد الخط الرئيسى في السورة، وهو الخط الأساسى في القرآن كله.. الانتصار للإيمان حينما كان.

يقول الله تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾.

ونستحضر من مدخل القصة أمرين:

الأول قول الله في وصف أُكُل الجنتين: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ فالأرض والماء والزرع آتى أُكُله ولم يظلم منه شيئا. بينما صاحب الجنة. هو ظالم لنفسه. مقومات الزراعة سارت كما أراد الله لها أن تسير. وهذا الظالم انحرف عن الطريق الذى أراده الله فكان ظالما لنفسه.. فأصبح منذ أوائل القصة دون الماء والنبات.. دون الأرض التى يسير عليها، والتى يظن أنه مالكها والمتصرف فيها.

وظن أنه صاحب هذا كله، الصاحب الحقيقى والمالك، فقال:

﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾.

لقد ظلم الرجل الماضى والحاضر وها هو يظلم المستقبل ويتجرأ على غيب الله، فيحدد مصير الجنة – وأنها على الأقل – ستكون أطول عمرًا منه فلا يراها تبيد أمامه ولو تأمل قليلاً لرأى الأمر على غير ذلك:

هذه الأرض التى عليها يسير. كم من الأجيال عمرتها وزرعتها وملكتها من قبله، هذا الطين من أين جاء؟ هل حمله نهر من جبال بعيدة ثم أرسبه هنا؟ هل هو تفاعل بين الصخر الذى يقف عليه والهواء الذى يحيط به، والماء المتدفق من النهر. آلاف السنين تمر على هذه الأرض الهادئة الصامتة، وهى تستقبل أجيالا، وتودع أجيالا. يلقون فيها البذر فتثمر. ويشقون فيها القبور فيثوى فيها الناس جيلا بعد جيل حتى يقوم الناس لرب العالمين.

والماء المتفجر؟ من أين جاء؟ ما مساره فى الأرض؟ إن كل الذى يراه صاحبها أن الماء يتدفق. والماء رحلته طويلة، تبدو هنا فى قول الله تعالى: (وفجرنا) والتفجير اندفاع. والاندفاع ضغط. ما مسار هذا الماء؟ كل الذى يراه نهاية مرحلة فى مسار الماء فى باطن الأرض، وبدء مرحلة فى مساره على سطحها. ولو تأمل قليلا هذا المسار لرأى فيه عجبا: هو يشرب بعض هذا الماء، وبهائمه تشرب قسما، والزرع يمتص قسما يحوله بعد هذا إلى جذور وسوق وأغصان وأوراق وأزهار وثمار، وجزء يعود إلى الأرض يرويها وجزء يتبخر فوقها، وجزء لنظافته وطعامه.. كيف تكوّن هذا الماء الذى جعل الله منه كل شئ حى؟ ونستطيع أن نتابع التأمل فى النخيل والأعناب والزروع. ونتأمل فى الثمر - وهو فى بعض التفاسير - إما الثمار ذاتها أو أثمانها. وتحمل الآية أن الثمر هو المال والولد. فنرى الآية ((وكان له ثمر)) أى: وكان للرجل ثمر هذا بعد أن وصف الله الجنتين فالثمر هنا أمر مضاف إلى أكل الجنة وقد سبق ذكره، وكأن الله أعطى الرجل الجنة بنخيلها وأعنابها وزروعها ونهرها وأعطاه فوق ذلك مالا وولدا..

أى نعمة من هذه تستوجب من العبد لله شكرا. ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

والإنسان هنا ليس كل إنسان. ولكن من الناس ظلوم كفار وهذا هو النموذج وسيأتى من بعده نموذج الرجل الصالح.

لم يقف هذا الظلوم الكفار عند نعمة واحدة من هذه النعم، إلا رأى أنه صاحبها لم يتأمل الماضى ولا الحاضر. وطغى على المستقبل فقال: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ ؟! وهل تستطيع ياصاحب الجنتين أن تتحكم في عوامل الجو؟ هل تستطيع السيطرة على العواصف؟ هل تستطيع التحكم في جريان الماء المتدفق من النهر، وقد فجره الله لك؟ بل هل تستطيع التحكم في أنفاسك أنت وتردد الهواء في صدرك؟ لا.. ولكنه الطغيان الذى اندفع هذا الظالم في تياره وهو يظن أنه مسيطر على التيار، واندفعت من فمه كلمة غليظة يتحدى بها نظام الكون كله فقال ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ وأنت تحس الشطط البعيد والكفران والجحود في هذه الجملة؟ ما دخلها في حوارك أيها الظالم الكفور؟ وما الذى أدخل الآخرة في الحوار، وأنت واقف في جنتك تظن وأنت فيها أنك صاحبها؟ ولكنه الغرور والبغى..

ولا يكتفى بإنكار الآخرة، فقد تحدث، فما عندك أيها الظالم إذا حدثت؟ لقد أعد جوابه: إننى هنا أهل للجنة وعندى بدل الجنة جنتان. حولهما النخل وفيهما الأعناب والزروع وعندى المال والولد. فأنا متعود على هذا النعيم. فإذا جاءت الآخرة أخذ الله أهل النعيم الدنيوى ليكونوا سكانا للنعيم الأخروى! أرأيت أو سمعت جحودا أو جنونا أشد من هذا؟ إن هذا الظالم يريد أن يشرع للآخرة لائحة تسير عليها. واللائحة عنده بسيطة؛ أغنياء الدنيا وأهل النعيم فيها مدربون على الحياة في النعيم، فهم أولى بالجنة. أما هؤلاء الفقراء فماذا يصنعون في الجنة الأخروية؟ وهم لم يروا ولم يتمرسوا بشيء من جنّات الدنيا ونعيمها؟ هكذا قال، وهكذا أخذ الظالم يشرع حتى في نظام الحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وانظر كيف تدرج به الكفر والجحود من ظلم نفسه إلى الجرأة على الماضى والحاضر، إلى الجرأة على المستقبل، إلى إنكار الحساب الأخروى، ثم إذا افترض

وجود حساب فقد أعدّ له هو الذى أعد قاعدة الحساب ليسير عليها اليوم الآخر.. تعالى الله عمّا يقولون علوًا كبيرًا.

بلغ هذا الظالم آخر المدى.. وقبل أن نذكر رد صاحبه المؤمن نقف عند كلمة في القصة وهى كلمة (جنة) وهى تحمل هذا الاسم لأنها تجن صاحبها أى تستره. ومادة (جن) أى ستر. نستطيع أن نتابع هذه المادة في اشتقاقاتها: المجن هو الذى يستتر به المحارب. الجن خلق مستور غير الإنس والإنس يقتضى الظهور. وجن الليل إذا ستر الوجود. والمجنون من كان عقله محجوبًا أو مستورًا لا تظهر آثاره.. فقول الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ الجنة هى التى تستره هى أكبر منه. إذا دخلها غاب فيها واستتر. هو أصغر منها وهو فيها مستور. ألم يكن يكفيه هذا المشهد ليعلم أن جزءًا ضئيلاً من خلق الله، وهو هذه الجنة، قادر على ستره فلا يراه أحد. وأنه عند دخول الجنة هو الأصغر لا الأكبر، هو المستور لا الساتر ولكن فوران البغى.. رأسه ذهب به بعيدًا حتى إلى جحود الآخرة وما هو أكثر من الجحود هو وضع نظام لتوزيع جزائها بين الأغنياء والفقراء دون نظر إلى الإيمان والجحود.

ننتقل إلى الآية التالية ونرى فيها قول صاحبه المؤمن ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

وصاحبه تفيد الاقتراب منه، ومحاولة استمالته بالحجة والبرهان. ثم قول الله تعالى: (وهو يحاوره)

تدل على المحاولة واستمرارها. وتحمل الآية أيضًا وقوف الصاحب خصمًا في الرأى لهذا الظالم لنفسه.

والأصل في الكلمة (حَوَر) ومنها الحوار - وهو فصيل الناقة - لأنه يعود إليها آمنًا ورضاعا كلما ابتعد عنها. ومما قيل في معنى الحواريين "أصحاب عيسى"، عودتهم إليه والتفافهم حوله.

قال هذا الصاحب الصالح لذلك الظالم: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ وهذا استفهام إنكارى لأن الصاحب كان يعلم أن صاحبه مشرك بدليل قوله: ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾.

وكلمة كفرت تحمل أنك تعرف حقيقة الإيمان ولكنك تؤثر البغى والتعدى. ومادة (كفر) معناها غطى. ولهذا سمى الزارع كافرًا لأنه يكفر البذر في الأرض أى يضعه ويدسه فيها. وبهذا نفهم قول الله تعالى ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ أى الزراع.. وهم الذين تتبّعوه من وقت أن كان بذرة حتى أخرج شطأه واستوى على سوقه.. وكأنه يقول له: أزل هذا التراب الذى يغطى الإيمان. تراب الغرور الذى انهال على قلبك وأعد إلى قلبك نقاءه وصفاءه. فأنت أيها الظالم من تراب هذه الأرض. الفرق الرئيسى بينكما أنك من (نطفة) وبقى التراب ترابا ومن النطفة استويت رجلا. ومن غير النطفة بقيت الأرض أرضا وبالبذرة صار جزء من الأرض نباتا.. والكل من التراب وغذاه الماء.. وأعلن الصاحب إيمانه بكل قوة قائلا.

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾.

كل ما في الكون أمامى مادة إيمان لا مادة كفران.. والآخرة خير وأبقى.

٢٧ – إعلان الإيمان

قال الصاحب المؤمن: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

وأعلن إيمانه قويًا أمام غرور الجاه والمال. ولم يهتز هذا الإيمان أمام زهرة الحياة الدنيا وزينتها. فالمؤمن يحس قدرة الله في كل ما خلق الله: الأرض. الماء الزرع. الإنسان.. هذا الكون الكبير.

كل ما حول المؤمن ناطق بقدرة الله لأنه ليس بينه وبين رؤية آثار هذه القدرة حجاب. حجاب من الغرور أو الغفلة أو التكاثر في الأموال والأولاد.

من أجل ذلك قال: (لكنا هو الله ربى) ومعناها اللغوى لكن أنا شأنى هو الله ربى. أى إن شأنى أن أعترف بأن الله هو ربى.

- لكن: استدراك على قول الظالم، واستعلاء بالإيمان أنا المدغمة فيها تدل على اعتزازه بأنه المؤمن.
- هو: الفاصلة هنا مزيد من التأكيد كقولك: إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين. الله: لفظ الجلالة الذى لا يشاركه فيه من تدعون من الآلهة أو هو الله الذى به أؤمن، وبه تجحدون.
- ربى: الذى ربانى ورعانى. وضمير المتكلم المتصل يدل على القرب وشدة الاتصال، وفى التركيب قصر صفة ربوبية الله على نفس المتكلم بالنسبة لمخاطبه، أى: أن الله هو ربى أما أنت أيها الظالم لنفسه – فتعبد آلهة غير الله. وهذا القصر مزيد من التأكيد.

كل هذه الجوانب جاءت في الآية تساند بعضها بعضا لتأكيد إيمان المؤمن وثباته أمام مغريات الحياة واستطالة الغنى بغناه، وصاحب الجنة بجنته.

يقول الرجل الصالح ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾

وفيها اعتزاز آخر. وتأمّل هنا كيف كرر لفظ ربى بعد أن جاء في صدر الآية (لكنا هو الله ربى) فهو لا يعدل عن هذا الإيمان، ولا يشرك بربه أحدا.

ولم يقف الصاحب المؤمن عن حد إدانة الكفر والاستعلاء وإنما فتح لصاحبه الظالم لنفسه طريقا إلى الإيمان إن شاء سلكه.

والطريق يسير: أن لا يقف عند ظواهر الأشياء التى يملكها، ولكن يمد بصره إلى الحقائق وراءها، ويؤمن بالمالك الحقيقى لهذا كله. هو الله سبحانه وتعالى ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٤).

ونتابع الآية الكريمة: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

وهذا عطف إنكار على إنكار. كان عليك وأنت تدخل هذه الجنة ألا تقول ما قلت وهو ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ ثلاث جمل كل واحدة منها درجة في الكفر. لم يكن لك أن تقول ذلك. وإنما عليك أن تقول إذا دخلت جنتك: ماشاء الله لاقوة إلا بالله، فهذه الجنة مشيئة الله: أرضها وماؤها وزرعها وثمرها.

وصدق الله العظيم: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ[1] ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ[2] ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ[3] أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا[4] فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾

(الواقعة: ٦٣- ٧٠).

نعم: يا ربنا: لا نقدر على إيجاد القوة التى تنبت الزرع في الأرض، ولا الماء النازل من المزن. وكل ما خلقت هو مادة رزق وإيمان معا. غذاء لأرواحنا وعقولنا وأجسادنا.

هذا هو طريق الإيمان. وتأمل قول الله: ((لا قوة إلا بالله))

مرد جميع القوى التى تراها والتى لا تراها إلى الله خالق كل شيء.

وكأن المؤمن يقول لصاحبه: رد المشيئة إلى الله. ورد القوة إلى الله،ولا تعرض نفسك وثمرك وجنتك لغضب الله عليك.. ولاتقف بقامتك الهزيلة أمام قوة الله وجبروته،وإنما اسجد في محاريب فضله وقدرته وقوته..

وهل كل طغيانك أنك قارنت نفسك بى وبغيرى ممن هم دونك في المال والولد.. هذا كل طغيانك.. بل إنك بمنطقك هذا لو نظرت حولك – وأحسب أن الآية تحمل ذلك والله أعلم لرأيت من هم أغنى منك وأكثر تواضعا لله تعالى. وما

---

(١) تفكهون: تتعجبون.
(٢) مغرمون: مهلكون بهلاك أقواتهم.
(٣) المزن: السحاب الممطر.
(٤) أجاجا: ملحا.

من غنى إلا ومن حوله من هو أغنى منه ومن هم دونه مالا وولدا. كل إنسان منا يقف على نقطة في هذا الخط. ولكنه ليس الخط الوحيد في مقياس الإنسان، هناك خطوط كثيرة؛ خط الإيمان. خط العقل، خط العلم، خط الأخلاق، خط الصحة.. كثيرة هي الموازين، وسبحان من قسم هذا كله على عباده ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

يقول الصاحب المؤمن: ﴿ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ ولكن هل وضعت قولى هذا في ميزانك: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ هل وضعت القلب المؤمن الخاضع لله في كفة، والقلب الجاحد الكافر في كفة ورأيت النتيجة؟ إن جنتك وزروعك وماءك وولدك و مالك إذا أضفت إليها الجحود أصبحت هشيما تذروه الرياح.. فحصِّن جنتك وولدك وزرعك بالإيمان فإنه أقوم قيلا.

لم تقل الآية أن هذا الصاحب المؤمن لم يكن يمتلك شيئا، أو لا يجد قوت يومه، أو محرومًا من المال والولد.. ولكنها ذكرت استطالة الغنى بالفرق بين درجتين في الغنى.. ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾.. أقل تفيد الوجود الأقل لا الانعدام.. وبهذا يبدو طغيان هذا الطاغى. فمالك وصاحبك تستطيل عليه لأنك تملك أكثر منه؟.

ولكن ألا ترى في دنيانا التنافس القاتل على من يملك أكثر؟ وما أخطر (أكثر) هذه.. فليس لها حدود. وصدق رسول الله ﷺ: (لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب. ويتوب الله على من تاب) متفق عليه رواه ابن عباس وأنس بن مالك ﷺ. أي لا يزال حريصًا على الدنيا حتى يموت ويمتلىء جوفه من تراب قبره وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: (إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها) (متفق عليه. رواه أبو سعيد الخدرى).

وتوجه الصاحب الصالح إلى ربه داعيًا وإلى صاحبه محذرًا وهو يقول: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾

دعا ربه. وتأمل هنا تكرار لفظ ربى للمرة الثالثة، أن يؤتين خيرا من جنتك. فهذه قدرة الله تعالى. وليست جنتك هذه عليا الجنان ولاخيرها. جنة فوقها جنات ودونها جنات. وعطاء الله لا ينفد.. وهذه الجنة تأتى بصدق التوجه إلى الله. بالعمل الصالح. بالسعى. قد ترانى أقل منك مالاً وولدًا ولكن إذا ربيت أولادى على الإيمان والاستقامة. وحفظت مالى بأن أكسبه من حلال وأنفقه في حلال وأؤدى حق الله فيه، وأتعاون مع أولادى على تنمية ثروتى بالخير.. فستكون النتيجة - مع دعائى ربى - بأن يوسع على والأمر كله لله ستكون النتيجة أن يؤتين الله خيرا من جنتك هذه التى نثرت في جوها سموم الجحود. ولوثت أرضها بخطوات الكبر والبطر وماءها بأن تنفس فيه صدرك الكفور..

احذر أيها الصاحب التلوث الذى نثره الكفران في جنتك. فقد يأتى الخطر من السماء حسبانا عاصفة صاعقة أو جراد تحمله الريح إليك لا يبقى ولايذر. أو تتلف أرضها فلا تصلح لزراعة فهى صعيد زلق. أو يغور الماء في الأرض فلا تستطيع أن تتبعه فيها.. أخطار ثلاثة رئيسة إذا رأيت فيها ما يمكن أن تتعرض له الجنة.. ففيها أيضا دلالة على معرفة العبد الصالح لما يمكن أن تتعرض له الجنة.. وهى معرفة قادته إلى الإيمان وثبتته في قلبه.

٢٨- وأحيط بثمره

يقول الله تعالى في قصة صاحب الجنتين: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾. صدق الله العظيم

فى جملة واحدة من كلمتين وأحيط بثمره.. انقضى الأمر. الفعل مبنى للمجهول. والمعلوم عندنا جميعا هى إرادة الله وحكمته. ولكن كيف تجلت هذه الإرادة مع ذلك الظالم نفسه؟ هل جاء حسبان من السماء، عاصفة اقتلعتها. إعصار فيه نار فاحترقت؟ كلمة "أحيط" تحمل إلى النفس أن كل شئ في الحديقة ضاع. وكلمة "ثمر" منسوبة إلى الرجل، تحمل إلى النفس شيئا أكبر من

الجنتين: المال والولد.... كل الثمر أحيط به. وقف الرجل فردا كأنه في دنيا الناس يمثل صورة من الحساب نقرؤها في قول الله تعالى: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (مريم: ٩٥).

حاول أن تُجمّع أطراف الصورة في خيالك، بادئًا بالمشهد الأول ويجرى تصوير القرآن له هادئا متأنيًا، كأنما تنتقل العين فيه في رحاب الجنتين نخلاً وعنبًا وزرعًا وماءً وثمرًا:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾.

ثم استحضر بعد هذا بغى صاحب الجنتين، وقد دخل جنته وهو ظالم لنفسه، وكفره برب النعمة خالق السماوات والأرض واستحضر إيمان المؤمن الذى نصحه وحذره. ثم تهب العاصفة أو تنقض الصاعقة أو يندلع حريق.. فإذا المنظر غير المنظر. ضاعت الخضرة والنضرة وأبرز الله آيته في كلمتين. وأحيط بثمره..

ولنقترب من الظالم نفسه، وقد ذهب عنه المال والجاه، لنراه واقفًا يقلب كفيه على ما أنفق في جنته،وها هو يراها بعد الإنفاق عليها خاوية على عروشها. والعروش هى السقوف.. سقطت سقوفها. تحطمت أو احترقت.. وسقط معها الغرور والكفران. ولنستمع إلى هذا الظالم وقد ذهب الظلم، والغنى الذى كان. وهو لا يجد حيلة ولا يهتدى سبيلاً إلا أن يعود إلى ربه تائبًا نادمًا حين لا تنفع الندامة.. فلن ترد جنته.. إلا أن يتوب توبة نصوحًا ويبدأ من جديد. أما الآن وأمام عدل الله وحكمته وشدة أخذه الظالمين،نسمع صوت الندم:

﴿ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

اعترف أنه أشرك. واعترف بأنه كان يعرف الحق وينحرف عنه. هذا مشهد في الدنيا. أم هو مشهد في الآخرة.

ثم يعقب ربنا - جل وعلا - على القول الذى أجراه على لسانه النادم:

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾.

وهنا نجد ثنائية أخرى: إمّا أن الرجل كان معتمدًا على قومه أو ولده. فهذه واحدة. أو كان معتمدًا على قوته وإرادته الذاتية فهذه ثانية. ولقد نفى الله عنه الأمرين معًا. وبين لنا أن فقد الحيلة في نفسه وأهله جميعًا. لا يملك إلا الندم وتقليب الكفين. ثم يقول ربنا:

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾

والولاية النصرة. نصرة الله كانت للمؤمن. أما الظالم فلم يكن منتصرا وتحمل الآية آكثر من معنى.

هنالك الولاية لله وهو الحق. أو هنالك الولاية الحق رأى النصرة الحق لله. كلمة الحق تأتى في الأولى صفة لله تعالى وفى الثانية صفة للولاية. والولاية من الله. والمعينات قريبان. هو خير ثوابًا وخير عقبًا.. وهذه الثنائية تحمل الدنيا والآخرة معًا. قد يكون بعض الثواب في الدنيا وبعضه في الآخرة. قد تكون عقبى الإيمان في الدنيا وفي الآخرة. وفي هذا نقرأ قول الله تعالى. والقرآن يفسر بعضه بعضًا:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٦- ١٤٨).

ولنلاحظ في الآية أن لفظ الحق في قوله تعالى: هنالك الولاية لله الحق، مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والإثنان والجمع. فيقال: قولك حق. وكلمتك حق. وأقوالكم حق.

❀❀❀

وبعد قصة صاحب الجنتين يضرب الله لنا مثلاً آخر: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

وهذه ثنائية أخرى نقرؤها بعد الثنائية السابقة. وأول ما نلاحظه في الآية الأولى أن العطف بين أفعالها بالفاء التى تفيد العطف مع التعقيب. وتحمل إلى النفس إحساسًا بسرعة الأحداث: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.

نزول المطر. الإنبات. جف النبات،نسفته وحملته الرياح. هذه دنياكم أيها الناس. ثم استحضر الوصف الهادئ للجنتين في المثال السابق: الأعناب. النخل الزرع. الماء المتفجر. الثمر.. كل هذا التفصيل يطويه هذا المثال السريع الإيقاع كأنما يقول لنا جميعا: هذه دنياكم فاعتبروا.

وهذه من الملاحظات التى تستوقف النظر في الدراسة االقرآنية: سرعة إيقاع الأحداث. وارتباط درجة السرعة بالهدف الذى تتوخاه الآية الكريمة، والفكر الذى تعطيه، والإحساس الذى تغرسه في النفس المؤمنة.

فى آيات أخرى ترى الإطناب والتفصيل في وصف نزول المطر واقرأ في هذا قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (النور:٤٣-٤٤)

هنا الوصف هادئ كأنك تعيش مع قطرة الماء وهى في السحاب تتجمع،ثم تسقط.. وتحس الجبال بروعتها وقممها مخازن الماء ثم تحس هدير الماء متدفقا أو

ترى سيف البرق قد يشق ظلمة الليل.. وهذا المطر يصيب الله به من يشاء ويصرفه عمن يشاء..

هذا الوصف الهادئ المفصل لا تحسه في الآية التى تجد بين يديها ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.

لماذا ذكرت هذين المثالين؟ المثال المجمل هنا والمفصل في سورة النور؟ ذلك لأبين أن الآية القرآنية لاتؤخذ معزولة عن السياق القرآنى العام. لاتؤخذ معزولة عن الروح العامة للقرآن. أنت في مواقف محتاج إلى النظر إلى الدنيا نظرة تأمل واعتبار وشكر لله على نعمته. وأنت محتاج في موقف آخر أن تنظر إليها كأنها قصة سريعة عابرة في عمر الكون. وأن حياتنا فيها محدودة. وأن العمل الصالح فيها هو كل زادك منها لآخرتك.

ليس في هذه الآيات تهوين للدنيا، ولا امتهان لها. وإنما فيها أن تضعها في حجمها القرآنى. وأن تكون لك القدرة على أن تنظر إليها من زوايا متعددة ومن آفاق متعددة،فإذا هى كبيرة حين تعداد نعم الله،وإذا هى ضيئلة إذا دخلت نفسك منها الفتنة. والآيات الكريمة كالأدوية.. كل منها شفاء لحالة معينة. وعون على تجاوز موقف معين

٢٩ – المال البنون والباقيات الصالحات

يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف: ٤٦).

ونسأل أنفسنا عن وضع هذه الآية في سياق سورة الكهف بأى شىء استطال المشركون على المسلمين، والأغنياء على الفقراء؟

لا ننسى أنهم قالوا عن المصطفى وهو سيد ولد آدم إنه ((أبتر)) لا عقب له، ذلك بعد أن اختبره الله تعالى بموت أولاده الذكور صغارًا وكانوا يعلمون أنه محدود المال، فكان ما يعيرونه به الفقر، وسجل القرآن اعتراضهم ورد عليه:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ ؟

ورحمة الله هنا هى الرسالة، وقد قسمها الله تعالى لرسوله ﷺ وهو سبحانه الذى اختار له اليتم والعيلة.. فكان - من بعد - أبًا لكل يتيم، وعائلاً لكل محتاج، ما أعانه الله على ذلك بمال يأتيه، أو توجيه إلى عمل يوجه المحتاج اليه..

كان هؤلاء المشركون يسيرون في مكة معتزين بأموالهم وأولادهم ويتعالون على الرسول والذين معه.

والمال زينة. والبنون زينة. وهما من فضل الله على عبادة. ولكنهما كأى فضل يمكن أن يحسن الإنسان استخدامه أو يسيىء تمامًا كحواس الإنسان: السمع والبصر والفكر.. يمكن أن يحسن الإنسان استخدامها أو يسيىء، ويكون من ورائها ثواب أو عقاب.

لقد سجلت الآية ظاهر الأمر فقط: المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والزينة في ذاتها وفى حدودها الكونية أو الشرعية مقبولة: فمن الزينة الكونية قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ (الصافات: ٦).

وقوله تعالى في سورة الملك: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ (الملك:٥) وفى سورة ق ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

فهذه الآيات تربط بين الزينة والبهجة والتأمل والعبودية والإنابة إلى الله تعالى.

وفى آيات آخرى نقرأ عن الزينة المكروهة والمحرمة:

- ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر: ٨).
- ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ (غافر: ٣٧) أى في ضياع وهلاك.

ونحن مأمورون أن نتجمل للعبادة ولبيوت الله في حدود ما بين الله . يقول تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (الأعراف: ٣١).

وأنت تقرأ هذه الآية: المال والبنون زينة الحياة الدنيا. مع قوله تعالى في أوائل سورة الكهف ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾.

فالمال والبنون زينة ومادة اختبار وابتلاء في نفس الوقت يقول الله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾

(الأنفال: ٢٨).

والولد الصالح محمود في كتاب الله وفى الحياة. ونقرأ في وصف سيدنا يحيى عليه السلام من وقت أن كان بشارة لأبيه زكريا الشيخ الكبير: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴾.

إلى قوله تعالى مخاطبًا الابن الصالح ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾

(مريم: ١٢ — ١٥).

ثم نقرأ الآية ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ مع الآية التى تسبقها مباشرة، وهى قول الله تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾. فتحس وجه شبه بين بذر النبات ونموه وتفتحه زهرًا وينعه ثمرًا، ثم ذبولاً وجفافًا وهشيمًا تذروه الرياح، وبين حياة الإنسان، المال والبنون كنمو النبات: بذرًا وتفتحًا.

الأبناء صغارًا ثم شبابًا مزدهرًا ثم كهولاً وشيوخًا. دورة حياة بدأت بذرة ثم إلى الأرض تعود..

كذلك المال تكتسبه ويزداد ويصبح زينة الحياة، فإذا أنفقته رأيت الشبه بين الإنفاق واستهلاك ثمار الحقل أو الحديقة.

ولكن وراء هذه الدورة السريعة لحياة النبات تجدد وبقاء، ووراء دورة المال نمو حقيقى إذا ما أدخر منه الإنسان عند الله..

فدورة الحياة سريعة من ناحية وبطيئة أو متجددة من ناحية أخرى كذلك النبات، كذلك الأبناء.. بقاؤها ما فيها من بذور صالحة لإنبات جديد أو إدخار صالح لاستثمار جديد، أو عمل صالح يكون أبقى من عمر الفرد في الحياة..

وبهذا يجمع الإسلام بين النظريتين: أن يملك المال ولا يملكك المال، وأن يكون لك الولد ولكن تحمل في قلبك سر الخليل إبراهيم عليه السلام، فيكون عندك الاستعداد أن تقدم ولدك فداء دينك أو وطنك، وأن تقدم نفسك إلى التضحية مؤمنًا أن نار النمرود - إن اشتعلت - هي المعبر إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

من أجل ذلك قال الله تعالى:

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

الباقيات الصالحات صفتان لموصوف محذوف تقديره: الأعمال الباقيات الصالحات وبقاؤها أى لازوال لخيرها.

وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الوصفية أن تقدم الصالحات على الباقيات ففى أكثر من آية تحل الصالحات محل الأعمال الصالحات من ذلك قوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (الكهف: ٣٠).
- ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ (مريم: ٧٦).

وتوصف الأعمال بالصالحات ولا يقال الأعمال الباقيات.. فلماذا جاء في هذه الآية قول الله قول الله تعالى: (والباقيات الصالحات) بتقدم الباقيات على الصالحات.

ولعل هذا للتنبيه على أن ما ذكر قبله ليس بباق وهو المال والبنون[1] فكان هذا التقديم قاضيًا لحق الإيجاز، بقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴾ (الرعد: ٢٦). وقول الله تعالى في التمثيل السابق: ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ﴾ يفيد الزوال فهنا ثنائية ومقابلة بين الزوال البقاء. ونماذج لكل منها.

وتقديم المال على البنين في الآية: لأنه أسبق حضورًا لأذهان الناس، ويرغب فيه الصغير والكبير والشاب والشيخ ومن له من الأولاد ما قد كفاه ومن دون ذلك.

وقول الله عن الباقيات الصالحات ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ يفيد ثبوت الخيرية في الثواب وتحققه عند الله،وهو المأمول الأكبر.

أما الأمل في المال والولد فهو عرضة للزوال بطوارىء الحياة.

وهنا ثنائية أخرى بين أمل مشكوك فيه مهما يكن حاضره بين يديك من المال والولد، وأمل ثابت في حسن المثوبة والجزاء عند الله.

وقبل الانتقال إلى الآية التالية أود الوقوف قليلا عند ربط هذه الموازنة بين (المال و البنون) و(الباقيات الصالحات) وبين قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

إن الدراسة المفصلة لهذه القصة أرجو أن أعرض لها عند تحليل لقصة إبراهيم وكيف أنها تمثل بصورة عملية مرحلة هامة في الفكر الدينى باعتبارها نقطة الانتقال من القرابين البشرية إلى القرابين الحيوانية.. وقد كانت القرابين البشرية معروفة في التاريخ القديم، فنسختها قصة إبراهيم وإسماعيل عمليًا، وبينت أن إبراهيم وإسماعيل كانا على استعداد لتنفيذ الرؤيا، ولكن الله الرحيم بعباده

---

(١) التحرير والتنوير ١٥- ٣٣٣.

فدى إسماعيل بذبح عظيم وأكرم الوالد الشيخ وولده اللذين أسلما لأمر الله، فلم يكن الفداء خوفًا ولا تراجعًا، وإنما كان رحمة من الله بالإنسانية في مشهد يقوم به أبو الأنبياء وولده.

ولقد كان هذا المشهد يمثل الإيمان كله، والحب كله، والذى مهد للفداء والانتقال من عهد القرابين البشرية إلى الحيوانية ولكن الفداء ظل حيًا في نفس كل من إبراهيم وإسماعيل وهو مطلوب من أتباع ملة إبراهيم:

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (الحج: ٧٨).

إن كل مؤمن يحمل في قلبه هذا القبس الإبراهيمى وفى تربيته الإيمانية، ينبغى أن يكون على استعداد دائم لتضحية إسماعيل. وإسماعيل هنا مفهوم لا شخص محدد. ولنضرب مثالا:

ذلك الأب المؤمن بربه والمحب لوطنه وقومه. إنه يُعلّم ولده ليكون في خدمة عقيدته ووطنه. فلنر هذا الابن فردًا في القوات المسلحة: برًا أو بحرًا أو جوًا. فلنره في قوات الأمن مسئولاً عن مكافحة الجريمة. فلنره في مصنع من مصانع الذخيرة.. إن الأب الذى يعد ولده لخدمة عقيدته ووطنه ويعلم أن ولده في موضع الخطر، وأنه معرض للموت في كل لحظة، يحمل هذه نفحة من إبراهيم خليل الرحمن في نفسه ويغرس روح إسماعيل عليه السلام في ولده. والإثنان أسلما لله تعالى.

وفى هذا يصبح الولد من الباقيات الصالحات. هو زينة الحياة الدنيا وهل هناك زينة أجمل من الشباب المؤمن العامل للوطن والعقيدة؟

والمال المرصود للخير، المال المزكى المكتسب من حلال. والمتجه إلى الحلال والمعد للإنفاق في سبيل الله.. هذا المال يحمل الروح الإبراهمية أيضًا.

وبهذا عندما تنفخ هذه الروح في حياة الأسرة يتحول مالها وأبناؤها من مجرد زينة الحياة الدنيا إلى جزء من الباقيات الصالحات بل يصبحان زينة وباقيات صالحات معًا.

ولقد كانت أموال صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام – والذين اتبعوهم بإحسان زينة المال وباقيات صالحات. وكذلك الصالحون من أبنائهم كانوا زينة الحياة الدنيا وباقيات صالحات. تركوا لنا العلم النافع والقدوة الصالحة. فلا تعارض بين الأمرين إلا إذا جعلت نفوسنا المال والبنين مقدمين على أمر الله وطاعته، والأمل القريب فيهم يحجب عنا الأمل الباقى في أن نكون معهم ويكونوا معنا على طريق الله وطاعته مبدؤها أمر الله ومنتهاها رضوان الله ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ (الفجر ٢٧ – ٣٠).

٣٠ – ولا يظلم ربك أحدا

يقول الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

هذا هو الحديث الخاتم في القسم الأول من دروس من سورة من سورة الكهف نقف فيه عند مشهد الحساب والجزاء في الآخرة. ليبدأ القسم الثانى ـ بتوفيق الله ـ بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ ﴾ وفيها ربط بين قصة الخلق والعمل في الدنيا والجزاء في الآخرة.

وأول ما تحسه وأنت تقرأ هذه الآيات الكريمة: جلال الله وعظمته.. وكيف تنتقل الآية في سرعة بين أضخم الحجوم وأصغرها فلا يضيع شيء في مشاهد "القيامة "، وتبدأ الآية بقول الله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾

هذه الجبال يصفها القرآن في آيات أخرى فيقول عنها في دنيانا – دنيا العمل والاختبار:

- ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبأ: ٦ - ٧)
- ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل:٦١).

وصف الله هذه الجبال بأنها رواسى شامخات: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ (المرسلات: ٢٧)

ما لهذه الجبال الراسية الشامخة وهى أوتاد الأرض قد تغير أمرها في الآخرة،ويصفها المولى جل وعلا – بقوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾

أول المشهد أن تسير الجبال إلى أين؟ ومرة نرى وصفها في مشهد القيامة ﴿ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ (القارعة: ٥) ومرة نقرأ قول الله: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ (النمل: ٨٨) ومرة نقرأ:

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ (الواقعة: ٥- ٦) الجبال الراسية الشامخة.. عهن. سائرة. هباء

وانكشف وجه الأرض فإذا هى بارزة لا ترى فيها عوجا ولا أمتا كأن المشهد أمامنا خلا من كل ما يميزه لا جبال. أرض منبسطة ثم يأتى مشهد ثان تتشقق الأرض. ويخرج من جوفها الخلائق من لدن خلق الله الخلق إلى أن أفناهم جميعا بالموت.. وتلقى الأرض ما فيها. يخرج الخلائق كالجراد المنتشر كالفراش المبثوث. مهطعين إلى الداع، مسرعين في الاستجابة لا يتخلف أحد وتأكيد بقوله

تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ الأنبياء والمرسلون الصالحون. الظالمون والمظلومون. المتكبرون والمتواضعون. الملوك وسواد الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وعصورهم وديارهم.. ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ما ترتيب الصفوف؟ الله أعلم كل الذى نعرفه في الدنيا صفوف التمايز في الحياة وصفوف التساوى في الصلاة وجموع التساوى في مناسك الحج.

وعرضوا على ربك صفًا: لا يحجب أحد أحدًا. لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا.

ويسمعون من الحق جل وعلا قوله: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ هذا خلق جديد بعد الخلق الأول، وأنتم أيها المكذبون ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾. كفرتم بالبعث والنشور والزعم هو الاعتقاد الخاطىء، فهذا يوم البعث الذى كنتم به تكذبون صدق الله العظيم: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الواقعة: ٤٩ – ٥٠).

وأنت تلاحظ أن أفعال العرض والحساب ماضية.. والفعل الماضى هنا يفيد قوة الحدوث كأننا شهدنا الآخرة: وحشرناهم، وعرضوا، ووضع الكتاب، وهذا كثير في القرآن الكريم أى استخدام الأفعال الماضية في وصف مشاهد الآخرة كأنها حدثت ونحن نسمع عنها بعد الحساب.

ونقرأ مشهدا كأننا فيه حضور مشهود ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾

وتصور - بقدر ما يستطيع العقل البشرى أن يتصور - هذا الكتاب. ولكل إنسان كتاب، منهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذه وراء ظهره، أما الذى يأخذ كتابه بيمينه فيستطيع القراءة، ولكن كيف يقرأ والإنسان كتابه

وراء ظهره؟ ويقرأ ماذا؟ تاريخه كله ﴿ مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ وتشهد جوارح الإنسان عليه تعينه على التذكر.. كل جارحة تقول: فعلت كذا وكذا.. هل تشهد جميعًا في وقت واحد أم تشهد متتابعة؟ وكيف ينتقل هذا الإحساس ليتجمع في عقل الإنسان؟ وأى يقظة تكون في الذاكرة لتستوعب هذا كله؟ وصدق الله العظيم: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق: ٢٢).

وتأمل هذه الكلمة، فترى المجرمين مشفقين مما فيه، هذا عن المجرمين، أما الصالحون فقد وصفهم الله في هذا المشهد العظيم بقوله ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (الحديد: ١٢).

ولا ظلم يوم القيامة وإنما عدل وجزاء ورحمة. ويقول الله تعالى في ختام الآية: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

فالحاضر هو ما عملوا. موقف اختفى فيه الزمن فإذا الماضى قد أصبح حاضرًا مشهودًا.. فعن أى الأمور يسأل الله عباده؟

فلتسمع إلى رسول الله ﷺ في الحديث الشريف الذى يرويه عنه عبد الله بن مسعود (لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم..) (رواه الترمذى).

ومع هذا الحساب نذكر رحمة الله وستره:

قيل لابن عمر رضي الله عنه: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى: (والمراد هنا مناجاة الله لعبده المؤمن في الآخرة) قال: سمعته يقول: (يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه [أى ستره ولطفه] فيقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم. ويقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم فيقرره [أى فيقرره بما عمل من ذنوب] ثم يقول: إنى سترت عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم [وفى هذا بشرى للمؤمن

المستور.. إلا أن يكون ماعمل حقا من حقوق العباد فهذا يؤاخذ عليه العبد]. ثم يعطى صحيفة حسناته [أى بيمينه] وأما الكفار [وكذا المنافقون والظالمون] فينادى على رءوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم. ألا لعنة الله على الظالمين) (رواه الشيخان).

وعن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ قال: (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك. فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ فقال: إنما ذلك العرض، وليس أحد يُناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذب). (رواه الشيخان والترمذى).

فاستقصاء الحساب ومناقشته لا يكونان إلا لمن يعذبون، وأما الحساب اليسير فهو عرض الأعمال على المؤمن فيقر بها، فيغفر الله له كما سبق في الحديث النبوى. نسأل الله أن يجعلنا منهم. ونختم هذا الحديث وهذا القسم الأول داعين الله بما تعلمنا من رسوله ﷺ.

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال:

قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء: (اللهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك. ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك. ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا. ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا (أى بهذه الحواس طول حياتنا وانفعنا بآثارها بعد الممات) واجعل ثأرنا على من ظلمنا. وانصرنا على من عادانا. ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا. ولا تسلط علينا من لا يرحمنا) (رواه الترمذى).

وعن شداد بن أوس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا أن نقول: (اللهم إنى أسالك الثبات في الأمر. وأسالك عزيمة الرشد. وأسالك شكر نعمتك وحسن عبادتك. وأسألك لسانًا صادقًا وقلبًا سليمًا. وأعوذ بك من شر ماتعلم. وأسألك من خير ما تعلم. وأستغفرك مما تعلم. إنك أنت علام الغيوب) (رواه الترمذى).

عن زيد بن أسلم: قال عليه الصلاة والسلام: (اللهم آت نفسى تقواها. وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها. اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع. ومن دعوة لا يُستجاب لها) (رواه مسلم).

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ (أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) (رواه الترمذى والنسائى).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دروس من سورة الكهف

القسم الثاني

من قوله تعالى، وإذ قلنا اسجدوا لآدم... (الآية ٥٠) إلى آخر السورة.

٣١ـ مع آدم وقصة الخلق

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾

نحن أمام هذه الآية من السورة على مفرق طرق:

أولا- أن نقف عندها وقفة سريعة بقدر ما تمس السياق العام للعبرة. هكذا تصنع التفاسير الكاملة للقرآن، مع الإحالة إلى ما سبق عرضه عن آدم في السور السابقة وبخاصة سورتى البقرة والأعراف.

ثانيا- أن نقف عندها وقفة طويلة، نحاول بها أن نضم أطرافها، لأن هذه الأحاديث تقتصر على سورة الكهف وحدها، وتمس قصة آدم من أكثر من زاوية.. ولا نستطيع فيها الإحالة، ولا نملك إلا توسعا في الشرح.

ذلك لأن قصة آدم تمس كل إنسان. فنحن جميعًا أبناء آدم. وفى أعماق كل منا إحساس بأن بدءه ومساره في الحياة ومنتهاه، مرتبط بهذه القصة..

وليس منا من لم يسأل نفسه: لماذا جئت إلى هذه الحياة؟ وما علاقتى بخطيئة أبى الأول؟ وإذا كان هو قد أخطأ، فلماذا هبطنا جميعا من الجنة إلى الدنيا، وفيها كل هذه المعاناة؟

هذه الأسئلة ونظائرها، ترد إلى النفس في حالات الألم والمرض والضعف، وتضع الإنسان في مواجهة القدر الذى كتبه الله، ولا يملك له دفعًا.

وقد تمر أيام وأعوام، دون أن ترد هذه الأسئلة إلى ذهنه، ويصرفه عنها الكدح في الحياة، أو السعادة بها،أو الانهماك في مسئولياتها. ولكنها تظل كامنة، ثم تصعد إلى مستوى الشعور في فترة تأمل،أو تندفع كالبركان في فترة ضيق وإحباط..

وفى حوار مع بعض الزملاء العاملين في العيادات النفسية في العالم الجديد.. ومع مرضاهم من غير المسلمين بخاصة، كان هذا التساؤل مطروحًا:

- لماذا جئت إلى هذه الحياة؟ وما علاقتى بأبى الأول؟ وما ذنبى إذا كان هو قد أخطأ؟..

بل إن بعضهم ممن لم يبدءوا حياتهم مسلمين كان اهتداؤهم إلى الإسلام، منبثقا من هذه التساؤلات، وقائما على دراسة مقارنة عن بدء الحياة الإنسانية، كما وردت في أكثر من دين.. هذا إذا كان بحثهم يدور في الإطار الدينى والمقارنات، أما البعض الآخر.. فآثر ترك الأمر جميعا، وحاول أن يكون هو المسئول عن حياته وموته.. وإذا كان قد جاء إلى الحياة دون اختيار، فمن حقه أن ينهيها وقت ما شاء... ولهذا النفر من المنتسبين إلى الماديين، أو الوجوديين أو العلمانيين، حديث مقبل..

لعل في هذه المبررات ما يدعو إلى شئ من الإفاضة في قصة آدم، وإن لم ترد عنها في سورة الكهف إلا هذه الآية.. وهى قد جاءت وسط مشاهد الآخرة وما سبق أن قام به الإنسان في الدنيا.. وكأن السياق يربط البدء والحياة والمعاد في نسق واحد.. إنه الحياة بكاملها خلقا وعملا وجزاء..

ونعود إلى قصة آدم.. ولنذكر أنه أول نبى. وأن النبى الخاتم محمدا عليه الصلاة والسلام - في ليلة المعراج - لقيه في السماء الأولى.. ومن ذرية آدم جاء أولو العزم من الرسل والأنبياء، والصديقون والشهداء.. كما جاء الذين ظلموا أنفسهم، ولم يتبعوا سبيل المؤمنين.

وصدق الله العظيم.. ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (سورة طه: ١٢٣: ١٢٦)

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾

ماذا كان قبل هذا المشهد؟ يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة)

ونتأمل قوله تعالى﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم ﴾ ونقف طويلاً عند كلمة (لكم) أي كرامة؟ أن يخلق الله لنا السماوات والأرض..لكم: آدم وذريته.. أنت وأنا.. وآباؤنا من قبلنا.. وأهلنا ومن حولنا.. والأجيال من بعدنا. هؤلاء جميعا من الأب الأول إلى آخر ذريته في حياتنا الدنيا تشملهم هذه الكرامة((لكم)).

ونتأمل التأكيد بعدها ﴿ مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ هذه الأرض الممتد الذلول، بكل غطائها الصخري والنباتي والحيواني. هذه البحار وما تحوي من ثروات. هذا الغلاف الجوى بهوائه ورياحه وسحابه وأمطاره. هذه الدورة المائية بين السماء والأرض، التي تبدو فيها وحدة الخلق ووحدة الخالق.

ومع المطر النازل الذى تحيا به الأرض بعد موتها، ينزل الوحى من السماء على القلوب التى أعدها الله لتقبله: المرسلين والأنبياء.. ومن قلوبهم وألسنتهم وعقولهم تفيض الحكمة وتتحدد مسالك الهدى.

من أجل هذا يقترن القرآن - كثيرًا - نزول المطر ونزول الوحى. حياة الأرض وحياة القلوب. إكرام الأرض بالنماء، وإكرام الإنسان بالتقوى.

ولنعد إلى سورة الرعد لنقرأ آيتين:

- الأولى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد: ١٧).
- الثانية: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الرعد: ١٩).

ونرى فيها آثار رحمة الله، فالأمر من أوله كرم ورحمة. كرم تقرؤه في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠).

ولقد كان الإنسان من أول أمره مخلوقًا كونيًا جامعًا بين الأرض والسماء: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (ص:٧١، ٧٢).

الطين مادة الأرض. ليس قطعة محددة من الأرض. ولكنه كل الأرض. ولنقرأ حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام:

((إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك،والسهل والحزن، والطيب والخبيث)) (رواه أبو داود الترمذى عن أبى موسى الأشعرى)

الأحمر والأسود تدل على اختلاف الألوان. السهل والحزن تدل على اختلاف الطباع سماحة ووعورة، لينا وقسوة، والطيب والخبيث تدل على اختلاف الأخلاق..

وتقرأ مع هذا قول الله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢).

وبهذا يبدو الجزاء المتقبل من الكيان الإنساني، ويأتى الوحى من السماء، والعلم الذى يعلمنا ربنا، والذى نطلبه في الأنفس والآفاق امتثالا لأمره.. فيأتى العلم خيرا لنفوس، وتنحرف به نفوس. وصدق الله العظيم:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢).

ونقف هنا عند مبدأ اللقاء بين العقول والقلوب من ناحية، والعلم الذى يبعث الله به رسله، والذي يكشفه الإنسان من ناحية أخرى.

نقف عند مبدأ اللقاء الذى يؤكد الوجود الكونى للإنسان والذى يجمع فيه بين المكونات الأرضية والسماوية.. وهو الكائن الذى اختاره الله لهذا التكوين.. وبهذا التكوين اختار له مهمة في الحياة..

- فكيف أعد الله الأب الأول لهذه المهمة؟

هذا هو السؤال الذى سنحاول الإجابة عليه، متذكرين الإحسان في الخلق إلى جوار الكرامة والرحمة. هذا الإحسان الذى نقرؤه في قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة: ٧).

وفى ضوء الإحسان والإكرام والرحمة نحاول أن نتخذ إلى الله سبيلا.

٣٢- صراع بين الخير والشر

إذا كان خلق الإنسان جامعًا بين الإحسان والتكريم والرحمة، فلقد جاء العلم تكريمًا ثانيًا للإنسان بعد الخلق.

وليتذكر كل إنسان - مهما يكن موقعه على خريطة الأرض أو عصور التاريخ - المدرسة الأولى التى ذكرها القرآن الكريم.

المعلم فيها هو الله سبحانه وتعالى

والمتعلم فيها هو الأب الأول آدم عليه السلام

ومادة المعرفة فيها((الأسماء)) أوائل أي شئ.

وفى هذا يقول الله تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:٣١، ٣٢)

لم يكن آدم أول المتعلمين.. فالملائكة من قبله تلقوا من الله علما. والعلم في ذاته كرامة وتكريم. وما أكرم الله به آدم من العلم خصه به، فكان عنده علما وعند الملائكة - من قبل - غيبًا. واستوعب آدم ما علمه ربه.

﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ (البقرة:٣٣).

هذا أول أمر تلقاه آدم من ربه ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾ وقام آدم بما أمره به ربه. فأول تجربة لآدم كانت نجاحًا: استوعب وحفظ، وكانت عنده القدرة على الاسترجاع والتذكر.

فى هذه التجربة لا نسيان ولاخطأ. وفرق بين الأمرين: النسيان أن يسقط منك بعض الحقيقة. والخطأ أن تختار غير الحقيقة.

إلى هنا والموقف في طريق التكريم صاعد، دون اعتراض ولاعقبات..

وننتقل إلى مشهد آخر كان فيه آدم شاهدا لتصرفات غيره بعد أن كان مشهودا من غيره.

- ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٣٤)

ويأتى هذا المشهد في سورة الكهف في قوله تعالى:

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾

ولقد تحدث المفسرون عن إبليس وأصله. ولماذا كان في هذا المشهد؟ وما علاقة الجن بالملائكة؟ وهل يملك الجن وهو لايعدو أن يكون مخلوقًا أن يعصى ربه؟.

وإذا كان الله قد وصف الملائكة أنهم لا يعصون الله ما أمرهم، فكيف خلق خلقا قادرًا على المعصية؟

ونستعين بالآية التالية في سورة الكهف وهى قوله تعالى.﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ (الكهف:٥١).

خلق السماوات والأرض غيب، وخلق الإنسان غيب، ولا نملك فيه إلا الوقوف عند النص القرآنى، والأحاديث النبوية الصحيحة.

إن الجن ـ في القرآن الكريم ـ خلق آخر غير الملائكة: يقول تعالى:

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴾ (الرحمن: ١٤، ١٥).

ويفرق القرآن بين الجن والشياطين.. والمعنى اللغوى مدخل موضح: مادة: جن تفيد الاستتار وعدم الظهور والرؤية. تقول: جن عليه الليل إذا ستره. والجن ضد الإنس. هذا خفي وهذا ظاهر. والمجنون من كان عقله محجوبًا. والمجن العدة التى يتقى بها المحارب عدوه. والجنة هى ذات الشجر الملتف والمتكاثف الذى يستر من يدخله. فاشتقا قات الكلمة جميعا تفيد الاستتار وعدم الظهور، ولا تفيد المعصية بحال. فالله سبحانه وتعالى ذكر من الجن المؤمن والكافر. ومنهم الصالحون ودون ذلك. ونستطيع أن نرجع إلى سورة الجن لنرى بعض صنوفهم:

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ۝ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ۝ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴾ (الجن: ١٣- ١٥).

أما مادة ((شطن))، ومنها الشيطان، فتفيد البعد. والشطن الحبل الطويل يستخرج بدلوه الماء من البئر. واستخدام اللفظ للدلالة على أي خبيث التصرف أو الأثر.. كأنه بعيد عن النفس والخير. بعض العرب تسمى بعض الحيات شيطانا. ولغويا: الشيطان كل عات متمرد من الإنس والجن والدواب

تبقى كلمه ثالثة في هذا النسق بعد: الجن والشيطان، وهى: إبليس.

لغة: إبلس الرجل قطع به. وسكت. وإبلس من رحمة الله آي: يئس، ومنه سمى إبليس(لسان العرب)

فمدلول الجن الاختفاء وتقابل الإنس. ومن الجن مؤمن وكافر. ومدلول الشيطان: البعد، وإبليس: اليأس من الرحمة والانقطاع. ولا يستخدم المدلولان إلا في الشر والإيذاء، وبخاصة في الجانب النفسى من حياة الناس.

وبهذا التحديد للمفاهيم تتضح أمامنا الآية: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ وندرك أن هذا من غيب الله الذى لا نعرفه إلا بالوحى، ونقف عند عبرته الكبرى الباقية: وهى الصراع بين الخير والشر. والطاعة والمعصية، والالتزام بحدود الله أو التعدى.. وهو صراع يلقاه كل إنسان في حياته، وتظل معه القصة حية.

ولقد كانت مخالفة إبليس لخالقه سبحانه وتعالى.. وهي مخالفة لأمر صريح: اسجدوا لآدم. فكان الرد رفضًا وحثييات رفض، ويبين القرآن أربعة جوانب في رفض إبليس، هي غاية ما يتخذه العصيان

- **الأول:** مبدأ الرفض ذاته أو المعصية.
- **الثانى:** الحالة النفسية المصاحبة للرفض.
- **الثالث:** الحالة الفكرية المصاحبة.
- **الرابع:** العناد والإصرار وإخضاع المستقبل لرفض الحاضر.

ولننظر في آيات القرآن لنتبين هذه الجوانب الأربعة:

- فى آيه سورة الكهف، يصف الله موقف إبليس فيقول..

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾..هذا هو الرفض

-وفى قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

واستكبر هنا: هو الجانب النفسى المصاحب للرفض

وفى قوله تعالى..

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء:٦١)

نرى الجانب الفكرى المصاحب، وهو تفضيل النار على الطين، دون نظر إلى الطاعة في ذاتها.

وفى قوله تعالى في سورة الإسراء.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦٢).

نرى الإصرار، ولقد كان طلب الإنظار لمزيد من غواية بنى آدم.

هذه الجوانب الأربعة، ألا تراها في بعض شياطين الإنس، وإن تعدد أسبابها؟ وهؤلاء الذين رفضوا الإسلام في مكة من الملأ من قريش، تمثلت فيهم هذه الجوانب جميعا، وإن تباينت مكوناتها ومدى الإصرار فيها..

كان منهم الرفض، والاستكبار، ومحاولة التبرير العقلى

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف:٣١)

ويرد عليهم المولى سبحانه ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ (الزخرف:٣٢)

وكان منهم العناد. واستمع قول الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل:١٤) وقوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣).

وكما نرى تشابه بين موقف كفار قريش وما كان من عصيان إبليس، نراه مع أكثر من نبى آذاه كفار قومه. وتقرأ قول الله تعالى عن نوح وقومه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح:٥ ـ ٧).

فمشاهد قصة آدم قديمة متجددة. ورواياتها أكثر من مرة، بأكثر من زاوية، تدلنا على استمرارها في تاريخ الإنسانية، مع تنوع صورها ووجوب الحذر من مداخل الشيطان إلى النفس، ومن تبعه من شياطين الإنس.

٢٣ـ تحليل لخطأ آدم

لم ترد الإشارة إلى خطأ آدم صراحة في سورة الكهف، وإن جاءت في مواقع أخرى من القرآن كسورة البقرة والأعراف وطه..

ونقف هنا عند مقارنة بين خطأ وخطأ.. خطأ إبليس وأركانه، وقد سبق أن ذكرناها وهى أربعة: العصيان. والاستكبار، والتبرير الفكرى، والإصرار على الخطأ.

ولم يكن الأمر من آدم كذلك..

لقد شهد الحوار ورأى نتيجته، وكان عليه أن يأخذ من هذا الموقف الدرس الذى ينفعه في المرحلة التالية من حياته، وهى مرحلة السكنى في الجنة، بعد مرحلة الخلق والتعليم وفيها شهد عصيان إبليس ونتيجته المريرة، وتحددت به عداوته لآدم وأولاده..

وفى الجنة أكرم الله آدم بحياة الأسرة والاستقرار كفل له المسكن والملبس والطعام والشراب.. وهذه الستة هى أساس الحياة الإنسانية. ونقرؤها في قوله تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (البقرة: ٣٥)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (طه: ١١٨: ١١٩)

يقول الإمام ابن كثير مفسرًا الجمع بين هذه الأربع في ثنائيتين: إن الجوع هو ذل الباطن، والعرى هو ذل الظاهر. وأن الظمأ هو حر الباطن، وأن الضحى (أي البروز للشمس) هو حر الظاهر ا.ه. فهذه أربعة نجمع إليها الاستقرار والأسرة فتكون الأركان الستة لحياة الإنسان، بعد أن أكرمه الله بنعمة الوجود والعلم والإرادة.

ولقد امتازت هذه المرحلة بحرية الاختيار، ووجود البدائل أمامه يختار منها ما يشاء. وامتازت بالحدود. فهناك مدى لا يصح أن يتخطاه:

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:٣٥) فهذه جنة بكل ما فيها من ثمر وظل وماء وستر.. ماذا لو عاش فيها هو وزوجه سعيدا؟ ولينس أمر هذه الشجرة.. الشجرة الواحدة في الجنة الممتدة..

ولكن من أين جاءت الغواية؟

جاءت من الطموح والرغبة في أن يكون فوق ما أراد الله له أن يكون. لقد أكرمه الله بالعلم الذى لم يعطه لملائكته. ورأى في الملائكة حياة ليس فيها موت..

من هذا المدخل يمكن أن يأتى الشر. ووسوس له إبليس..

﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ (الأعراف:٢٠- ٢١).

أيستطيع آدم أن يضم إلى العلم الخلود، فيكون فوق الملائكة علمًا، ويستوى معهم خلودًا؟ وهذا القسم.. هل يقسم إبليس كذبًا؟ لقد أقسم من قبل في موقف أشد فقال:

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص: ٨٢- ٨٣).

نعم. إن الأمر غواية. ولكن القسم في ذاته صدق. لقد أقسم بعزة الله.. فهل يجرؤ إبليس على القسم الكاذب؟

كان من إبليس إلحاح. وكان منه تبرير وإغراء ودأب على الغواية.. ولقد كان هذا لآدم وزوجه. وتبين آيات سورة الأعراف أن الخطاب والحوار كان معهما وليس مع حواء وحدها وبهذا النص القرآنى تبدو المسئولية مشتركة بين آدم وزوجه ويقول الله تعالى بعد هذا: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف: ٢٢).

الغرور الذى ظن آدم وزوجه أنه يرفعهما إلى المكان الأعلى، هبط بهما إلى الأدنى... حتى ستر الملبس نزع عنهما، وامتدت أيديهما إلى ورق الجنة يستران من أمرهما ما كشفته المعصية. واللباس ستر وطاعة الله ستر.. وصدق الله:

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف: ٢٦).

ونتأمل قول الله تعالى:

﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وما تفيد من استمرار الخصف وموالاته.. هل كانت الأوراق تتطاير، كما تطايرت آمالهما في الجمع بين العلم والخلود، ومساواة الملائكة في أمر، والتفوق عليهم في أمر آخر؟..

لو نظرنا إلى أسلوب الإغراء الذى اتبعه إبليس لوجدنا فيه الأركان الأربعة للمعصية.

- **أولاً-** توجيه الذهن إليها. وذلك قول الله تعالى في القصة حاكيا عن إبليس. هل أدلك؟
- **ثانيًا-** وثالثا التأثير النفسى والعقلى في قوله ((على شجرة الخلد وملك لايبلى؟))
- **ثالثًا-** الإصرار والمتابعة في قوله: ((فوسوس)) وقوله: ((وقاسمهما)) فالمكيدة محكمة الأركان..

وواضح - من أول الأمر - الفروق بين ما كان من إبليس وما كان من آدم.

إبليس بدأ من ذاته. هو الذى اختار المعصية، دون وسوسة ولا إغراء. ونفسه هى التى طغت، وتفكيره هو الذى فضل النار على الطين. وهو الذى أصر على موقفه حين سأله ربه عن سبب الموقف ثم تابع العناد..

ولم يكن من آدم وزوجه شئ من هذا.

ما فكر ابتداء في أمر شجرة الخلد، وما قبل الإغراء لأول مرة وبكل سهولة.. وإنما كان من إبليس الوسوسة والقسم والإلحاح.. وتوزعت نفس آدم بين الطاعة وبين التطلع إلى الخلود وملك لايبلى.. وانهارت حصون المقاومة في نفسه واحدا بعد واحد.. وغلب الطموح الطاعة، وتخطى آدم حدود الله وهو يعرف ما يفعل. وفى لحظة وجد ثيابه تتطاير، وأحس أنه لا يملك حتى الستر..

وكانت منه توبة سريعة وعودة إلى الله.

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٣).

ونحس في هذه الآية الكريمة ونظائرها صدق التوبة وحرارتها والجانب النفسى والعقلى فيها،. وتأمل تتابع الظلال والأضواء التى تتركها في النفس كلمات((ربنا)) بما فيها من التضرع.. أنت ربنا وخالقنا. و((ظلمنا أنفسنا)) بما فيها من إقرار بالذنب، وأنه ظلم. والظلم ظلمات. ثم طلب الرحمة والمغفرة، وفى غير طريقها الخسران. والرحمة فيض من الله، والمغفرة ستر. فالمغفر هو الذى يستر الفارس ويحميه. والغفران ستر الذنوب.. فاسترنا يا رب بسترك الجميل وارحمنا برحمتك الواسعة..

آماد واسعة بين هذا الموقف بعد المعصية، مهما تكن دوافعها ومبرراتها النفسية والعقلية. وبين ما كان من إبليس من عناد واستكبار وإصرار، ورأى آدم في نفسه، وبنفسه، ثمار الطاعة والمعصية..

كانت منه طاعة سابقة، عندما علمه الله فتعلم، واستودعه الأسماء فحفظها ووعاها، وأمره أن ينبئ الملائكة بالأسماء فكانت منه الطاعة والإنباء.. ورأى ثمرة طيبة وتكريمًا أن أسجد الله له الملائكة.. هذا هو الدرس الأول والنجاح الأول لآدم..

وجاء الدرس الثانى، وفيه تخطى الحدود فكان ما كان تغيره من سرعة الإحساس بالخطأ والتوبة..

وتقبل الله الغفور الرحيم توبة آدم وزجه وغفرها وسجل الله قبول التوبة في كتابه:

فى سورة طه: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (١٢١: ١٢٢).

وفى سورة البقرة: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٧).

وعند هاتين الآيتين ينبغى أن يقف كل إنسان: كأنه من آدم موقف أخطأ فيه، وسارع إلى التوبة، وقبل الله التوبة.. وبعد التوبة اجتباء وهداية وكلمات من الله..

وبعد الدرسين الأول والثانى، في مرحلتى الخلق الأول والحياة في الجنة.. تهيأ آدم لمهمة جديدة، هى الخلافة في الأرض وبها تبدأ المرحلة الثالثة من حياته..

ومسئولياتها أوسع.. كما كانت مسئوليات المرحلة الثانية أوسع من الأولى..

قل: إنه تدرج في التربية والتكوين، وإعداد للمهمة العظمى: أن يكون خليفة في الأرض للخالق جل وعلا..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠) خليفة هو وذريته، : يقول الله تعالى:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النمل: ٦٢).

والخلافة كرامة وليست عقوبة. وتوسيع لدائرة المسئولية لا ضيقا ولا سجنا.. سبقها إعداد. وبعدها جزاء.. وما عند الله خير للأبرار.

٣٤ـ ويجعلكم خلفاء الأرض

يقول الله تعالى على لسان نبيه صالح عليه السلام مخاطبا قومه ثمود:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود:٦١).

ونقف عند كلمة ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ وهي من المهام الكبرى لاستخلاف الله آدم في الأرض..

وفى هذا الاستخلاف تتعدد الاتجاهات بين مؤمن وكافر، وقائم بالأمر وقاعد عن المسئولية.. وبين هذين تدافع صورة الله تعالى في قوله:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥١).

ووراء هذا كله ذلك الصراع القديم بين الاستقامة والغواية، كما تمثلها المرحلة الثانية من قصة آدم، وتحذير الله لنا جميعا في قوله عن إبليس في سورة الكهف:

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ (الكهف: ٥٠).

وما الولاية هنا؟

إنها الطاعة والانقياد.. طاعة الهوى والشهوة وعبادة المال والمنصب والجاه، والرغبة في البقاء والخلود، بغير طريق الطاعة.

وما عمران الحياة؟.. إنه ارتفاع بموادها الهامدة، وبالناس فيها، إلى مستويات التعاديه والإبداع وصيانة الحق والدفاع عنه..

والحياة في تقدمها، ارتفاع مستمر.. ولنتأمل قول الله تعالى:

﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ (المجادلة:١١) وقوله تعالى:

﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩).

ومع التقدم والارتفاع.. مع الطريق المستقيم الصاعد، تحس النفوس الطيبة بالافتقار الدائم إلى الله، والرغبة الدائمة في أن تسجد لله شاكرة.. والسجود في غايته مزيد من الإبداع والعمل والتواضع..

ثم يبين لنا الله تعالى مستوى المضلين فيقول:

﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ (الكهف:٥٠).

ولا زالت هذه أسرارًا مطوية يحاول الإنسان طرق أبوابها فلا يملك إلا الاجتهاد، وإلا ما أخبره به الحق تعالى:

كيف خلق الله السماوات والأرض؟

كيف بدأت الحياة بعامة؟

وكيف بدأت الحياة الإنسانية بخاصة؟

أنت أيها الإنسان - كائنا من كنت - لم تشهد خلق السماوات والأرض ولا خلق نفسك..

وتتكشف كل يوم أبعاد جديدة للحياة الكونية، وللحياة الإنسانية، ويتضح أمامنا أننا نعيش على شظية ضئيلة اسمها (الأرض) في المجموعة الشمسية، وهى إحدى المجموعات في مجرتنا ذاتها واسمها درب التبانة، وهى ليست سوى واحدة من عدد كبير من المجرات الأخرى التى تعد بالملايين..

وكل ما قاله العلماء عن (كيفية) خلق الإنسان لا يعدو أن يكون اجتهادات.. وكتاب الإنسانية - بالنسبة للإنسان - كتاب ضخم طوى الدهر معظم صفحاته.. وبين أيدينا منه الصفحات الأخيرة أو الحديثة..

ولا قيد على حركة الإنسان العلمية في تاريخه وتاريخ الكون.. فكل حركة واعية تزيده علما، وتزيده إحساسا بالتواضع في محراب الكون.. والكون مسجد كبير، كله آيات تدل على عظمة الخالق وروعة الخلق..

كل هذا ينعكس على نفس الإنسان مزيدا من الإحساس بعظمة الله، ومزيدا من الرغبة في طاعته وحب عباده والعمل من أجل خيرهم.

وإذا كانت المرحلة الثانية من قصة آدم - وهى حياته في الجنة - محدودة الأهداف والشخوص والأوامر والنواهى باعتبارها مدرسة تمهيدية لخلافته في الأرض، كما هو في قدر الله..

فإن حياته في الدنيا هى المدرسة الأوسع والأكثر تعقيدًا.. الأفراد القلائل أصبحوا شعوبًا وقبائل. اللسان الواحد أصبح ألسنة، اللون تعدد، البيئات التى سكنها الإنسان تمتد على سطح الأرض، بين جبالٍ وسهول، وسواحل ومناطق داخلية، تتباين حرًا وبردًا، مطرًا وجفافًا، غنىً وفقرًا..

والاختلاف في هذا كله مظهر لقدرة الله تعالى.. والحياة:

تكاملها في تنوعها، فليس البشر خلايا نحل أو وادى نمل تتكرر صفاتهم وتتشابه أعمالهم، وإن كان في الحيوان والنبات تباين..

بل إن روعة الحياة الإنسانية تتمثل في الجديد الذى يستطيع أن يبدعه في عالمى الأنفس والآفاق، فهو في المادة الصماء روحها.. كما أنه نفخة من روح الله تعالى.

ومع هذا التنوع قامت الدول ونشأت المدن، وقامت بينها علاقات الحرب والسلام. والتعاون والخصام، والعدل والظلم.. ووسط هذا كله نسمع قول الله تعالى:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه: ١٢٣ -١٢٦).

ومن هذا التعميم ننتقل إلى التخصيص المرتبط بسبب النزول. ونعود إلى أصحاب المصطفى ﷺ الذي اتبعوه على الإيمان والبذل. وكان منهم الأغنياء كأبي بكر وعبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان.. ومن هؤلاء من أكل الإسلام ماله، واشترى به من استطاع من المستضعفين والرقيق.. وأعتقهم لوجه الله تعالى.. وكان من الصحابة فقراء..

ورأت مشيخة قريش كيف يجمع مجلس محمد هؤلاء جميعا. زالت الفروق بين الغنى والفقر، والتقى في صف الصلاة من هم في ذؤابة القبائل ومن هم في أطرافها أو مواليها. ورأوهم في صف الصلاة أخوة في الدين يجمعهم جوهر التوحيد وكرامة الإنسان.. لا يتأفف غنى من ثياب فقير، ولا يضيق به في مجلس ولا تقتحمه عينه..

وقريش هى قريش بأمجادها ومواريثها ومفاخراتها، تدفع عنها بالسيف، فكيف تنزل عنها طوعا أمام كلمة التوحيد؟

وكأن عقلية مشيخة قريش في التكبر تحمل لفحة من نار إبليس التى تنطلق ألسنتها قائلة:

﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

وهؤلاء المستضعفون المؤمنون: إنهم الامتحان العسير الصامت أمام زهو قريش وخيلائها وأموالها وأنسابها.

ويعقب الإمام الفخر الرازى على الربط بين موقف قريش من المستضعفين، وموقف إبليس من آدم..

((إنما قال للكفار المفتخرين بأنسابهم وأموالهم على فقراء المسلمين.. أفتتخذون إبليس وذريته أولياء من دون الله، لأن الداعى لهم إلى ترك دين محمدﷺ هو النخوة وإظهار العُجب. فهذا يدل على أن كل من أقدم على عمل أو قول بناء على هذا الداعى فهو متبع لإبليس حتى أن من كان غرضه في إظهار العلم والمناظرة, التفاخر والتكبر والترفع، فهو مقتد بإبليس. وهو مقام صعب غرق فيه أكثر الخلق. فنسأل الله الخلاص منه..

ثم يقول: وإذا جهلتم هذه الحالة (أي خلق أنفسكم وخلق السماوات والأرض) فكيف يمكنكم أن تحكموا لأنفسكم بالرفعة والعلو والكمال، ولغيركم بالدناءة والذل؟ بل ربما صار الأمر في الدنيا والآخرة على العكس فيما حكمتم به(تفسير الفخر الرازى ١١: ١٣٨ –١٣٩)

وفى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ العضد: ما بين المرفق إلى الكتف، والجمع أعضاد. ويستعار للمعين والنصير. يقال عضده أي: قواه وأعانه.

ووصف الله هؤلاء القوم بالمضلين، يدل على أن ضلالهم يتعدى أنفسهم إلى غيرهم، وعلى المؤمنين أن يحذروا هذا الميل عن الطريق.. وصدق الله العظيم في خطاب رسوله والمؤمنين:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (الكهف: ٢٨).

٣٥- وجعلنا بينهم موبقا

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (الكهف: ٥٢، ٥٣).

وتنقلنا هذه الآيات مرة أخرى إلى مشاهد الآخرة، بعد أن كنا في ذكر الخلق الأول في الآيات السابقة..

وكأن الحركة النفسية والفكرية، تنتقل بنا مسرعة بين زوايا مثلث: الأولى الخلق، والثانية العمل في الدنيا، والثالثة الجزاء الأخروي. ويتم الانتقال في آية أو شطر آية.. والإنسان في نقطة وسط المثلث تتجمع في ذهنه وقلبه هذه الإشعاعات، فيرى الوجود كله في لمحة.. بدءا وعملا وجزاء..

فى هذا اليوم الذى يصدر فيه الناس أشتاتا ليروا أعمالهم.. يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر، مهطعين إلى الداعي يقول الكافرون هذا يوم عسر، يخاطبهم أحكم الحاكمين: ﴿ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ ولا يملكون إلا الامتثال، وهو في هذا الموقف عذاب وخزى..((فدعوهم)).. ومن يملك الإجابة في يوم يرتفع فيه نداء الحق ((لمن الملك اليوم؟)) فتجيب الخلائق جميعا ((لله الواحد القهار)). ولا يملك الأرباب المتألهون والجبابرة إلا الصمت ناكسى رءوسهم ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ وما الموبق؟ إنه المهلك أو البرزخ البعيد.. فلا تواصل بينهم يوم القيامة كما كانوا في الدنيا، وإنما تباعدوا وتقطعت بهم الأسباب.. هذا وجه في تفسير الآية..

وقد يكون الشركاء الذين زعمهم الكفار، أبرياء من ادعاء الألوهية، وإنما عبدهم قومهم - أو بعض الناس - على غير رغبة منهم..

ولقد سجل القرآن الكريم كيف عبد بعض الناس الملائكة، أو عبدوا أنبياءهم. وفى خواتيم سورة المائدة تقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(المائدة: ١١٦ – ١١٨).

فالنبيون والملائكة صائرون إلى ما أراد الله لهم من الكرامة والذين كفروا بما أنزل الله من الحق والتوحيد سيجزيهم الله بما عملوا.. وبين الفريقين موبق هذا وجه آخر في تفسير الآية ونقرأ هذا الوجه عند الإمام الفخر الرازى ونقرأ الوجه الأول عند الإمام ابن كثير.

وفى قول الله تعالى ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾ رأى فعل ماض والآخرة غيب مستقبل.. كأنه من اليقين بحدوثه قد كان.

﴿ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ والظن هو اليقين كما في قول الله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة:٤٥- ٤٦).

﴿ وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ لا طريق يعدل بهم عنها..

ففي الآية ثلاثة صنوف من العذاب متلاحقة:

- **الأول:** رؤية النار.
- **الثانى:** اليقين من مواقعتها.. كأنها تقرب منهم وهم يقتربون منها.

- **الثالث:** لا مهرب.. ولكن طريق واحد يؤدى إليها.. هذا بعد تعددت بهم سبل الأهواء والشهوات والآلهة المعبودة ضاع هذا ولم يبق أمامهم إلا طريق النار.

والصورة مع المؤمنين مختلفة.. بل هى الوجه الآخر لهذه الصورة كأن لهم في الدنيا طريق واحد هو قول الله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٣).

لم تتوزعهم الأهواء والشهوات وما تفرقت بهم السبل وفى الآخرة تعددت أمامهم أبواب النعيم وأسبابه يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٥ –١٧).

فلكل مؤمن منهم، ما تقر به عينه، وفوق هذا جميعا رضوان من الله أكبر..

حتى طعامهم، لهم فيه متعة الاختيار: ﴿ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾

وفى الفاكهة جمال. ولكل لون وشكل وطعم متعته ولذته.. والشراب أمامهم متنوع..

فالتعدد والتنوع قائم بعد أن استقام الطريق في الدنيا:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (يونس: ٢٦).

والقتر القلة في النفقة.. فكأن الله صان هذه الوجوه الطيبة من الضعف المادى والمعنوى من قلة الرزق وقلة التكريم.

ونعود إلى الآية الكريمة: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ونستعيد صنوف العذاب الثلاثة المتلاحقة: رؤية النار. اليقين من مواقعها. أن لا مصرف عنها، لنرى كيف يكافئ الله المؤمنين بثلاثة صنوف من التكريم..

فى مقابل رؤية النار، واليقين من مواقعتها نقرأ قول الله تعالى:

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (الحديد: ١٢).

(فهذه تقابل الثانية أي اليقين من مواقعة الكفار النار)

تبقى الثالثة وهى ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ يُقابلها تفتيح أبواب الجنة للمؤمنين:

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٣ – ٢٤).

فهذه ثلاثة تقابل ثلاثة.. نراها في أكثر من موضع من القرآن، وسنراها فيما نستقبل من آيات سورة الكهف إن شاء الله، وفى خواتيمها ومن بعدها الآية الخاتمة المرتبطة بمدخل السورة وهى توحيد الله تعالى، والاستقامة على ذلك، وحسن المثوبة عليه.

٣٦ـ معجزة القرآن

يقول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف: ٥٤).

يقول القاضى عبد الجبار بن أحمد(٤١٥) في كتابه ((تنزيه القرآن عن المطاعن (ص٢٣٩) في شرح هذه الآية:

وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ كيف يصح ذلك، وإنما ذكر تعالى فيه بعض الأمثال. وجوابنا أن ذلك مبالغة كقوله تعالى: ((وأوتيت من كل شئ)) (وذلك عن ملكة سبأ). ومذهب العرب في ذلك معروف، والمراد: من كل مثل يحتاج إليه العباد في أمر دينهم. وما هذا حاله موجود في القرآن من صفات الأمور الدنيوية وصفات الآخرة وغيرهما.اه

والأمثال التى صرفها الله تعالى في هذا المقام كلها دفاع عن مكانة الفقير والمستضعف، وإعلاء شأن الإيمان والعقيدة، وإعلام لمشركى العرب لما افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم، أن قولهم فاسد، وشبهتهم باطلة.. ذكر الله أمثله مثل آدم وإبليس ومن قبله مثل الرجلين وبينهما صورة الدنيا في زهوها وذبولها وفرحة الحياة بالمال والبنين ولا يبقى من هذا كله إلا العمل الصالح والنية الصالحة والذرية الصالحة.

ألا يستوقف هذا النظر طويلا؟ حينما نرى الدنيا بعد هذه القرون الطويلة ومن فيها يفرقون البشر بين الذين يملكون والذين لا يملكون وبين الذين يعرفون والذين لا يعرفون ويقسمونها بين الشمال الغنى والجنوب الفقير؟ ألا نراها لا تزال تتعثر نفسيا وفكريا على طريق المودة والإخاء الذى أقامه المرسلون، وجعله الله لنا في صلاتنا عبادة وفى حياتنا صراطا وفى الآخرة نورا؟

وصدق الله العظيم ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢) وذلك بإقامة الحجة عليهم، وإثبات ضلالهم بأكثر من طريق.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴾

ما سنة الأولين؟ وما العذاب القبل؟

وما منهج القرآن في الدعوة إلى الله، وكيف يختلف عن سنة الأولين؟

إن القران الكريم هو معجزة الله الباقية، بعد عهد النبوات والمعجزات.

ولك أن تنظر إلى ما أيد الله به أنبياءه من الآيات الدالة على نبوتهم، أين هى الآن؟ أين سفينة نوح؟ وأين عصا موسى؟ وأين ناقة صالح؟وأين الرجل الذى أحياه عيسى والمرضى الذين شفاهم بأمر الله؟ وهب أننا عثرنا على سفينة نوح، فهل كان بناؤها هو المعجز، أم سيرها باسم الله مجراها ومرساها في موج كالجبال.. ولا يمكن أن يعود التاريخ لتصوير هذا المشهد.. ولا المشهد المتمثل في قول الله تعالى:

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود: ٤٤).

كذلك ماحاق بمن كذبوا الرسل، كالخسف والعواصف المدمرة والسيول الجارفة كمثال، نقرأ قول الله تعالى عن قوم هود:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأحقاف: ٢٤- ٢٥).

معجزات الأنبياء قبل الإسلام كانت كونية تأتى فيها الظاهرة تأييدا للنبى، أو عذابا لقومه إذا كذبوه.. وجاء القرآن الكريم يقص ذلك، ويؤكد ـ تاريخيًا ـ حدوثه:

ولكنه في ذات الوقت جاء ليختم عهد المعجزات الكونية، فلم تكن هى آيته الكبرى: تأييدًا له أو انتقامًا من المكذبين. وبيّن القرآن هذا بكل وضوح. وأنه جاء يخاطب العقول، بالحجة والبرهان.

وفى نفس السورة التى يؤكد فيها هذا ـ وهى سورة الكهف ـ يذكر معجزات كونية مع أنبياء وصالحين وشباب مؤمن ضرب الله على آذانهم في الكهف سنين عددا ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴾ (الكهف: ١٢).

فى نفس السورة التى ذكر فيها كل هذا القصص، يأبى القرآن الكريم، إلا أن يحاكم الناس إلى العقل.. بل إنه في سبب نزول السورة، وتحدى كفار قريش الرسول في أمور من العلم، لم ينزل الوحى في الموعد الذى رغب فيه الرسول، وكان هذا خطوة في التكوين النبوى، الذى يمتثل لأمر الله، ولا ينبغى له أن يحدد للوحى موعدا..

يتلاقى هذان الأمران معا في سورة الكهف، وتأتى السورة توثيقا تاريخيا لأمور وتأكيدا للمنهج العقلي الذي يدعو إليه القرآن.

وفى هذا الضوء نعود إلى الآية الكريمة:

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

جاء في معنى قبلا التفسيرات الآتية:

١- أنها جمع (قبيل) بمعنى ضروب من العذاب تتواصل مع كونهم أحياء.

٢- مقابلة وعيانا

٣- قبلا(بفتحتين) أي مستقبلا.

والمعنى (كما يقول الفخر الرازى ١١: ١٤٢) أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا، أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا. وأعلم أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا على هذين الشرطين، لأن العاقل لا يرضى بحصول هذين الأمرين، إلا أن حالهم شبيه بحال من وقف العمل على هذين الشرطين. ثم بين الله تعالى أنه إنما أرسل الرسل مبشرين بالثواب على الطاعة منذرين بالعقاب على المعصية، لكى يؤمنوا طوعا، وبين مع هذه الأحوال أنه يوجد من الكفار المجادلة بالباطل لغرض دحض الحق... وأنهم اتخذوا آيات الله، وهى القرآن وإنذارات الأنبياء هزوا..

ولو عدنا إلى سورة الإسراء، رأينا فيها تصويرا لحوار بين كفار قريش والرسول حول المعجزات الكونية:

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٠- ٩٣).

ونقرأ حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام- تأكيدا لمعجزة القرآن، وإنهاء لعهد المعجزات الكونية وإعلاء لشأن العقل، والمنهج العقلى:

((ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحى الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة))(رواه مسلم عن أبى هريرة- مختصر صحيح مسلم للمنذرى حديث رقم ١٩ ص ١٣)

ذلك لأن مخاطبة العقل هو الأمر الباقى. ومعجزات الله وآياته تتمثل أمامنا فى هذا الكون وفى كتاب الله فى كل آن أما المعجزات الكونية المرتبطة بزمان ومكان محددين،فهذه يحصرها المكان، ويطويها الزمان. ويؤكد القرآن خطاب العقل. فيأمر الله رسوله أن يخاطب قومه به:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (سبأ: ٤٦- ٥٠).

أمر آخر نذكره بشأن المعجزة الكونية. وإن نسخ القرآن تجددها كما أكد حدوثها مع النبوات السابقة. فالمعجزة ليست خرقًا لنظام الوجود. وإنما المعجزة قانون ذاتها. إنها قانون أعلى، يحكم قانونا دونه.. ولكل من القانونين مستواه، دون تعارض بينهما، وإنما تناسق وحكمة هى من صنع العزيز الحكيم.

وفى سورة الكهف نرى مستويات هذه القوانين فى المعرفة. والعلم، وفى التصرف على أساسها، وفى النوم واليقظة وامتدادهما، فى العواصف والصواعق حين ترتبط بظلم البشر وتأتى انتقامًا إلهيا، كما نرى كيف ترتبط القوة بالعدل، والقدرة مع ضبط النفس، واستنقاذ الشعوب عن طريق العمل والمشاركة وتأكيد العلاقة بين الجهد والنتيجة كما فى قصة ذى القرنين..

مستويات متعددة من التصرفات والقوانين، منها ما يقرب إدراكه، ومنها ما يعمق فى أسرار الغيب كقصة موسى والخضر.. وكل ما جاء متعمقًا فى الغيب أو من قانون أعلى نؤمن به، دون أن نطالب الرسول بإعادة ناموس أذن الله فى طيه، ونشر لنا ناموسًا هو العقل والتفكير، فى كتاب هو حجة العقل والتفكير..

وفى هذا نرى كيف اللقاء الكريم بين الشرع والعقل فى الإسلام وتعاونهما فى صياغة الحياة السوية.

والآن: تعالى معى نقرأ سطورا عن العلاقة بين العقل والشرع من كتاب معارج القدس في معرفة مدارج النفس للإمام الغزالى (ص٦٤).

إعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع. والشرع لم يتبين إلا بالعقل. والعقل كالأس، والشرع كالبناء. ولن يغنى أس ما لم يكن بناء. ولن يثبت بناء ما لم يكن أس.

وأيضًا فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع. ولن يغنى البصر ما لم يكن شعاع من خارج. ولن يغنى الشعاع ما لم يكن بصر. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ (المائدة: ١٦،١٥).

وأيضًا: فالعقل كالسراج. والشرع كالزيت الذى يمده. فما لم يكن زيت لم يحصل السراج. وما لم يكن سراج لم يضئ الزيت. وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾.

فالشرع عقل من خارج. والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان.أهـ

نسأل الله أن يكرمنا بنور العقل ونور الشرع لنسير في نور على نور.

٣٧- وربك الغفور ذو الرحمة

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾

بعد أن حكى الله تعالى عن الكفار جدالهم بالباطل، بين في هذه الآيات بعض صفاتهم، وأبرزها اثنتان:

الصفة الأولى: الظلم. وهم قد ظلموا أنفسهم ومجتمعهم، وظلموا المؤمنين بالإعراض عن الحق. هذا الحق الذى لا يُنسب إلى بشرٍ أو قبيلٍ من الناس، وإنما هو هداية رب الناس للناس.

نعم، لقد جاء القرآن عربى اللسان، عربى المبعث، ونزل الوحى على الرسول عليه الصلاة والسلام مسئولية، دون اختيار منه.

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (الحج:٧٥).

وعرضه على الناس جميعا: ما اختص به بعض قومه، أو بعض أهله.. فهو من أول أمره رسالة عامة شاملة:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(الأعراف: ١٥٨).

فهو ﷺ مبلغ عن ربه. لا يسأل الناس على الحق أجرا.

والله تعالى - الذى اختاره - هو سبحانه الذى أيده بالوحى، وقد عجزوا عن تحديه. وصدق الله العظيم:

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣).

الأمر إذن خرج عن دائرة الحوار العقلى، والفكرى الموضوعى. ودخل دائرة الجحود، التى يستعين فيها كفار قريش بأحبار اليهود، ويشتدون على الرسول وأصحابه إيذاءً بدنيًا ونفسيًا، ومقاطعة اقتصادية وإرهابًا وعدوانًا.

هذا هو الظلم الذى اجترحه كفار قريش: ظلم الحق فى ذاته، وظلم الرسول وأصحابه، وظلم أنفسهم وأتباعهم بانصرافهم عن الحق.

ونقف في الآية عند لفظ (آيات ربه) فهذا الظالم لنفسه جاءته الآيات من ربه: ربه الذى خلقه وسواه وعدله. ربه الذى أنشأه في الأرض واستعمره فيها. ربه الذى جعل لهم الحرم الآمن، ورزقهم من الثمرات، وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف..

ألا يؤمنون بإبراهيم؟.. ويعيشون في بقية مما ترك؟ وإن خلطوا بها الأوثان وأدخلوا على الحنيفية ما لم يأذن به الله؟ إنهم آثروا الشرك على التوحيد، والظلم على العدل، والظلام على النور.. وتميز في مكة فريقان..﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ (الحج: ١٩).

وفى قول الله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾، لقد فهمنا الإعراض.. فماذا قدمت أيديهم؟ النسيان هنا هو التغافل عما قدمت أيديهم من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة.

أمامهم آيات الله البينات. وأمامهم رمز الشرك والوثنية، آيات الله جاءت من عند الله. ورمز الشرك صنعتها أيديهم، وما أنزل الله بها من سلطان. ثم ادعوا من عند أنفسهم أن هذه الأصنام هى شفعاؤهم عند الله، وأنها تقربهم إلى الله زلفى.. نسوا أنهم هم أنفسهم الذين ابتدعوا هذا كله، ثم عكفوا عليه، ثم دافعوا عنه، ضد ماذا؟ ضد صريح الإيمان والتوحيد الذى جاءهم به الرسول من عند الله مؤيدًا بالوحى الذى لا يملكون معارضته.. فالظلم مزدوج تمثل في الإعراض عن الحق، وتجاهل أنهم هم الذين صنعوا الباطل.

الصفة الثانية: تبدو في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ والأكنة جمع كنان وهو الغطاء الذى يكن فيه الشئ.. مثل غطاء وأغطية (مفردات الراغب الأصفهانى ص٤٥٩).. والوقر الثقل. تقول نخلة موقرة أى ثقل حملها..

وكأن هذه الآية هى النتيجة المنتظرة لما جاء في صدر الآية الكريمة:

هم الذين أعرضوا عن آيات الله، وهم الذين صنعوا الشرك ثم عبدوه من دون الله.. ماذا يترتب على ذلك؟ أن تصبح قلوبهم في أغطية من صنع أيديهم، وكأن آذانهم ملئت بأثقال.. وهل تتحمل الآذان ثقلا؟ وتأمل قوله تعالى: ((وفى آذانهم))..

وإذا كانت حروف الجر يحل بعضها محل بعض، إلا أن استخدام ((فى)) هنا يحمل بشاعة ما يحملون.. ولو حولنا هذه الصورة المعنوية إلى صورة حسية لازدادت بشاعة ما صنعوا بأنفسهم.. ولك أن تتصور قلبا، ومن حوله غطاء أصم وآذانا مثقلة بما تحمل.. جزاء بما قدمت أيديهم..

ثم يخاطب الله نبيه قائلا: ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾

إن تدعهم وهم في إصرارهم على البعد عن آيات الله، والعكوف على أصنامهم ((لن يهتدوا أبدا)) أما إذا حطموا الأكنة التى صنعوها بالشرك حول قلوبهم، وتخلصوا من الوقر الذى يملأ آذانهم، وطهرت مسالك البصر والعظة.. هنا يستطيع الإيمان أن يجد طريقه إلى السمع والبصر والقلب. وصدق الله:

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق: ٣٧)

من أجل ذلك تأتى الآية التالية تحمل من الله بشارة ونذيرا:

بشارة: في قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾.

نذيرا: في قوله تعالى: ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ (والموئل المنجى والملجأ).

والله سبحانه قدم في هذه الآية المغفرة بصيغة المبالغة: الغفور.. فذنوبهم كثيرة. وهم الذين أسرفوا على أنفسهم، ولكن غفران الله ورحمته أوسع.. وإن كفار قريش يعلمون ما حل بالأمم السابقة من العذاب، عندما أعرضوا عن هدى الله: قوم عاد على طريقهم إلى اليمن، وثمود على طريقهم إلى الشام.. أصحاب مدين.. وقوم لوط.

والله تعالى يخاطبهم، ويذكرهم بما يشهدون:

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(الصافات: ١٣٧- ١٣٨)

ولو أخذ الله قريشا بالعذاب، كما أخذ الأمم السابقة لعجل لهم العذاب.
﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ ما هذا الموعد؟

يمكن أن يكون يوم ((بدر)) وفيه لقيت قريش هزيمة، هى الأولى في تاريخها أمام نفر من أبنائها الذين هاجروا بإيمانهم مع نفر من الذين آووا ونصروا.. وشهد ميدان بدر قتلاهم وأسراهم وجرحاهم وعودة المهزومين.. هذا اليوم الذى وصفه الله تعالى بقوله:

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾

(الحج: ١٩- ٢٠)

ذكر المفسرون أنها نزلت في بدر بعامة، أو نزلت في الذين بارزوا يوم بدر، أو في الذين آمنوا والذين كفروا(تفسير ابن كثير)

ويمكن أن يكون الموعد الجزاء يوم القيامة﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٣٠).

وبالرغم مما ألحقته قريش بالمسلمين في غزوة أحد، إلا أنها لم تستطع أن تحقق الهدفين الريئسيين من المعركة، وهما: اقتحام المدينة، أو قتل الرسول عليه الصلاة والسلام.

وتوالت محاولاتها، إما وحدها أو متعاونة مع اليهود داخل المدينة وخارجها ومع مشركى العرب، ولكن استطاع الإيمان أن يشق طريقه ويستعيد مكة، ويعم الجزيرة العربية ودخل الناس في دين الله أفواجا..

لقد رأت قريش كيف تحقق وعد الله للمؤمنين أكثر من مرة، ولم يكن أمام هذه القلوب إلا أن تستجيب. ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

ومما رأى القرشيون في أنفسهم. وما علموه من تاريخ جزيرتهم وما حولها، علموا أن سنة الله لا تتخلف في نصر الحق وإن عظمت التضحيات، وتكاثرت الصعاب. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٣٨ـ موسى والخضر

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ (الكهف: ٦٠).

وهذه قصة مما انفرد به القرآن الكريم، جاءت بين القصص الذى تحدى به القرشيون النبى ﷺ واستعانوا في هذا بأحبار اليهود.

وللقصة ارتباطها بالسياق العام لسورة الكهف، وما فيها من العبر، وما توجه المسلمين إليه من آداب التعامل وطلب العلم، وما تدفع به عن الإسلام. هذا في نفس الوقت الذى تبين فيه المستوى الكريم الذى كان فيه موسى، والمستوى الذى انحدر إليه أحبار اليهود بعد أن طال عليهم الأمد، ورضوا أن يناصروا أهل الشرك على أهل التوحيد.

ومن ناحية أخرى: فتحت هذه القصة أبوابا من الحوار بين مستويات العلم في الإسلام، وما كثر فيه القول عن علم الشريعة وعلم الحقيقة، وعلم الظاهر وعلم الباطن، والعلم المنقول والعلم اللدنى الذى يفيضه الله على من يشاء من عباده.

وما ترتب على هذا من صراع بين الفقهاء وبعض المتصوفة حول مدى حجية مكاشفاتهم، وما تشرق به قلوبهم من علم..

وما أظن في القرآن قصة دار حولها من الحوار، وتمسكت بها أكثر من فرقة إسلامية، واتخذتها سندا فيما سلكته من طريق، أكثر مما كان مع قصة موسى والخضر..

ولنبدأ بما جاء عنها من أحاديث وأكثرها تفصيلا حديث ابن عباس وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى، وقد جاء بروايات متعددة، كما أخرج أبو داود من الحديث طرفين مختصرين عن الغلام الذى قتله الخضر.. وقد اختار ابن الأثير في جامع الأصول (٢: ٢٩٧- ٣٠٦) الرواية الآتية أصلاً، ثم ذكر أجزاء من

الروايات الأخرى. وفى هذه الرواية يؤكد ابن عباس، أن موسى في هذه القصة هو موسى بن عمران صاحب بنى إسرائيل، وينفي أي زعم بأن المقصود رجل آخر من بنى إسرائيل يحمل نفس الاسم.

جاء في حديث ابن عباس: سمعت أبى بن كعب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((قام موسى عليه السلام خطيبًا في بني إسرائيل. فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، قال: فعتب الله عليه إذ لم يُردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبدًا من عبادى بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: أي رب، كيف لى به؟ فقيل له: احمل حوتًا في مكتل، فحيث تفقد الحوت: فهو ثَمّ، فانطلق. وانطلق معه فتاه يوشع بن نون..)) ويسير الحديث الشريف يعرض لنا لقاء موسى والخضر والمراحل الثلاث لحوارهما: السفينة والغلام والجدار.. وفى ختام الحديث نسمع تعقيب المصطفى ﷺ: ((يرحم الله موسى، لوددت إنه قد صبر حتى كان يقص علينا من أخبارهما)) قال: وقال رسول الله ﷺ: ((كانت الأولى من موسى نسيانا، قال: وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة، ثم نقر في البحر، فقال له الخضر: ما نقص علمى وعلمك من علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر)) وزاد في رواية: ((ما نقص علمى وعلمك وعلم الخلائق من علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر)) صدق رسول الله.

شخصية الخضر:

وقد دار حوار كثير حول شخصية الخضر، أبرز جوانبه مدى حياة الخضر. والذى عليه الجمهور أنه مات، لأنه لو كان حيا لزمه المجيء إلى النبي ﷺ والإيمان به واتباعه. واستدلوا بالحديث الشريف: ((والذى نفسى بيده، لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى))

هذا ما استند إليه الإمام ابن الجوزى، وعقب عليه بقوله: فإذا كان هذا في حق موسى، فكيف لم يتبعه الخضر لو كان حيا، فيصلى معه الجمعة والجماعة، ويجاهد تحت رايته (انظر جامع الأصول ٢ : ٢٩٨ ـ ٢٩٩ هامش). وقال أبو الحسين ابن المبارك: الأخبار كلها (عن ذلك ـ أي عن بقائه ـ واهية الصدور والأعجاز، ولا يخلو حالها من أحد أمرين: إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالا، أو يكون بعضهم تعمد ذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن

قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾.. فما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان.

ولم يثبت اجتماع الخضر مع أحد الأنبياء إلا موسى، كما قصّ الله خبرهما.. هذا ما ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخارى، وعقب عليه بقوله: وأما ما جاء عن المشايخ، فهو مما ينقم عليهم، كيف يجوز لعاقل أن يلقى شخصًا لا يعرفه، فيقول له: أنا فلان فيصدقه؟..

فكل قول عن لقاء الخضر، وظهوره في بعض المواقف أو المعارك - ويرتبط بهذا تعدد قبوره ومشاهده، وانتشار لقاءاته في كتب الكرامات - كل أولئك لا أساس له من كتاب أو سنة أو مأثور.. هل نقول: أو عقل أودين؟

أطراف القصة:

أطلت الوقوف عند هذه النقطة التمهيدية، وذكرت مراجعها، لأن بعض ظلالها لا تزال ممتدة في بعض أبناء الإسلام وطوائفهم، بما تحمل من خرافة وتفتح أبوابا من الزيغ..

فأطراف القضية، موسى وفتاه والخضر، سبقوا إلى الله تعالى جميعا.. وبقيت بين أيدينا عِبَر القصة لا بعض شخوصها..

وتبدأ بعزم نبى من أولى العزم، هو موسى عليه السلام، ومعه فتاه يوشع بن نون، على رحلة من أجل العلم، يهون فيها بذل الجهد والوقت.. ويتبين هذا من قوله: ((أو أمضى حقبا)) فيتابع السير، لا يبرح ولا يزول عن هدفه ولو أمضى السنين بعد السنين.. والحقب لغويا ثمانون سنة.. والمقصود هنا هو: العزم والتصميم.

مجمع البحرين:

ولكن أين مجمع البحرين؟ أو ما المقصود من مجمع البحرين وهو موعد اللقاء؟.

يقول البيضاوى في تفسيره. ومجمع البحرين ملتقى بحرى فارس والروم مما يلى المشرق وعد لقاء الخضر فيه. وقيل البحران موسى والخضر - عليهما الصلاة والسلام - فإن موسى كان بحر علم الظاهر والخضر كان بحر علم الباطن (أنوار التنزيل للبيضاوى ٢: ١٨)

ولكن هذا التعبير ((مجمع البحرين)) يستوقف النظر في القصة، وله نظائر تعطى شيئا من التعريف، أو بعض الصفة، دون أن تذكر من التفاصيل، ما يحول دون تعدد الآراء فيها. ألا يستوقف هذا نظر الباحث؟ فلنذكر نظيرا:

عندما قص الله علينا أمر الملك أو القائد العادل في آخر سورة الكهف، قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾.. ولم يذكر اسمه، واكتفى بهذه الصفة ((ذى القرنين)) وأن الذى قصه علينا القرآن هو بعض أمره ﴿ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾، وفى حركته غربًا وشرقًا وبين السدين.. جاء الحديث مجملاً في جوانب، مفصلاً في جوانب.

ومن قبل هذا، عند ذكر قصة الكهف، وذكر صاحب الجنة رأينا إجمالاً في جوانب، وتفصيلاً في أخرى.. بينما في القرآن أماكن ذكرها الله تعالى بكل تحديد، بحيث لا تدع أي مجال لتعدد الأقوال: أماكن ((محكمة)) مثل حديث القرآن عن مكة والبيت الحرام ومقام إبراهيم والصفا والمروة والمشعر الحرام وعرفات.. وتقابلها أماكن متشابهات - إذا جاز أن نستخدم هذا التعبير عن الأماكن، كما هو أمر بعض الآيات - يمكن أن تتعدد فيها الآراء..

دون أن يصل التعدد إلى الفتنة.. ولنستعد معا آية سورة آل عمران وفى ضوئها نحاول السير:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران: ٧- ٩).

وكأن الله سبحانه - وهو العليم الحكيم - يريد منا أن نتجه إلى مقاصد من الآيات، وننصرف عن مقاصد أخرى. يريد منا أن نبذل الجهد في جوانب، ونصرفه عن جوانب.

هناك إذن. منهج قرآنى.. مقصود.. وسنحاول أن نبين هذا المنهج، وفى ضوئه نسير في فهم الآيات والتراكيب القرآنية. والله المستعان.

٣٩- الأماكن في القرآن: بين المحكم والمتشابه

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾

فى التعبير القرآنى (مجمع البحرين) وصف مجمل يدع المجال لأكثر من تفسير.. هذا هو المقصود من المتشابه في الأماكن.. ولكن مع هذا فيه شئ من التحديد، تعين عليه أوصاف أخرى للمكان جاءت في سياق القصة.. وكل من الإجمال والصفات المساعدة، ينبغى ألا يشغلنا عن الهدف الأساسى من القصة وهو ما فيها من عبر.. بعض هذه العبر يتصل بنزولها، ويؤكد موقف المصطفى ﷺ والمنهج الذى عليه أن يتبعه مع قريش واليهود معًا، كما يوجه المجتمع الإسلامى إلى العناية بأساسيات القصص القرآنى الداعية إلى العمل والإنتاج في المجتمع، والإيجابية في الحياة.

قول الله تعالى: ((وإذ قال موسى لفتاه)) وما جاء في الحديث الشريف عن علم موسى ومكانته بين بنى إسرائيل، يجعل المكان الذى حدثت فيه القصة، والمرحلة التاريخية، هى الحياة في شبه جزيرة سيناء، بعد خروج بنى إسرائيل من وادى النيل، وبعد أن تلقى موسى وحى الله وكلماته وذهب إلى ميقاته وفى شبه جزيرة سيناء - أو على الأصح على أطرافها - ثلاثة أماكن مقترحة لتكون ((مجمع البحرين)):

الأول: منطقة رأس خليج السويس والقطاع الذى تشغله الآن قناة السويس.. وكان فيه فرع قديم للنيل يحمل الماء العذب إلى أجزاء من الشمال الغربى لسيناء.. وهو الفرع البيلوزى وكأن مجمع البحرين هنا نقطة من نقط الالتقاء بين الماء الملح والعذب.

الثانى: الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة وهى منطقة رأس محمد الحالية حيث يلتقى خليج العقبة وخليج السويس.

الثالث: الطرف الشرقى ورأس خليج العقبة في منطقة العقبة الحالية وفيها سلسة من المنخفضات في وادي عربة تصل إلى البحر الميت الأنهار التى تصب فيه..

فإذا نظرنا إلى الأوصاف المساعدة وجدنا قرى قريبة، ووجدنا حرفة الصيد ونقل المسافرين، ووجود حكم مستقر يمثله وجود ملك، وإن وصفه القرآن بقوله: ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ مما يدل على وجود قوة عسكرية معه، تستطيع أن تقهر الملاحين في هذه المنطقة، مما يرجح أحد المجمعين الشرقى أو الغربى ويستبعد ـ إلى حد ما ـ المجمع الجنوبى.

ومما حفظ التاريخ أن أكثر الآثار المتعلقة بقصة موسى تقع في الجانب الغربى من شبه جزيرة سيناء، وهو إلى خليج السويس أقرب، وتتوفر فيه فرص الاستقرار..

وقد يكون مجمع البحرين مصب أحد الأودية الجبلية في شبه جزيرة سيناء في خليج السويس.. وهى أودية كانت أكثر عمرانا وأوفر مطرا مما هو الآن.. فيكون المجمع نقطة على خليج السويس هى فم الوادى حيث لقاء بين الماءين العذب والملح..

وإذا كانت حركة موسى وفتاه، وكل الذى ذكره القرآن من متاعهما مكتل وحوت.. أمكن استبعاد جميع المقترحات والفروض الأخرى التى قيلت عن مجمع البحرين وراء حدود سيناء.. وما يحمله هذا من غياب طويل، تنتفى معه العبرة من القصة والتوجيه فيها، وسرعة العودة إلى قومه، ليتعلموا منه ما تعلم من السلوك العلمى مع العبد الصالح.

المكتل والحوت:

نأتي الآن إلى الآية التى يعرف بها موسى العبد الصالح وواضح ـ ولا نملك إلا هذا القول ـ أن التوجه الأول إلى المكان المحدد كان بوحى من الله تعالى.. ولا يختلف الأمر عن توجه إلى النار في الوادى المقدس.

كل ما كان على موسى وفتاه أن يسير في الاتجاه الذى حدده الله له.. وعند نقطة معينه ستحدث من الله آية. كان معهما حوت لطعامهما.. ونعود إلى حديث ابن عباس عن أبى بن كعب عن الرسول ﷺ لنقرأ فيه أمر الله لموسى:

احمل حوتا في مكتل، فحيث تفقد الحوت: فهو ثم، فانطلق وانطلق معه فتاه، وهو يوشع بن نون، فحمل موسى حوتا في مكتل، فأنطلق هو وفتاه يمشيان، حتى أتيا الصخرة، فرقد موسى وفتاه، فاضطرب الحوت في المكتل، حتى خرج من المكتل، فسقط في البحر، قال: وأمسك الله عنه جريه الماء، حتى كان مثل الطاق (والطاق عقد البناء وجمعه أطواق، وهو ما عقد أعلاه من البناء، وبقى ما تحته خاليا: النووى) فكان للحوت سَرَبا، وكان لموسى وفتاه عَجَبا.

ومع المكتل والحوت نذكر ما سبق أن أيد الله به موسى من معجزات كونية. العصا التى تنقلب حية. اليد البيضاء من غير سوء. شق البحر. تفجير الماء من الصخر. النار المقدسة التى تنير ولا تحرق. الجبل المرفوع كأنه ظله..

فحركة الحوت في المكتل واضطرابه وسقوطه في البحر، وتحول جريه الماء كأنها طاق، كان للحوت سربا.. هى فصل من قصة معجزات تتابعت في حياة موسى.. ثم إن الله أخبره بالآية.. كما جاء في الحديث الشريف. ولا نستطيع أن ندرك قصة المكتل والحوت بعيدة عن السياق العام لقصة موسى

وتقرأ قول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ كان يوشع مسئولا عن المكتل والحوت. وفى حديث ابن عباس توضيح للجهد الذى بذلاه في السير.. وما يلقاه الإنسان في سفره قد ينسيه بعض أمره. ففى الحديث عن موسى وفتاه بعد الصخرة والحوت.

فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، ونسى صاحب موسى أن يخبره، فلما أصبح موسى ـ عليه السلام ـ قال لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال: ولم ينصب حتى جاوز المكان الذى أمس به. قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة، فإنى نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجبا، قال موسى ذلك ما كنا نبغ، فارتدا على آثارهما قصصا. قال: يقصان آثارهما((حتى أتيا الصخرة))ا.هـ.

وفى هذا الجزء من الحديث وقف الحافظ ابن حجر عند قوله فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما.. فلما أصبح على إرادة سير جميعه.. هل هو مقلوب، وأن المراد: بقية يومهما وليلتهما ذلك لأن الإنسان لا يصبح إلا عن ليل؟ أو لعل المقصود: فلما أصبح من الليلة التى تلى اليوم الذى سارا جميعه. والله أعلم (جامع الأصول٢: ٣٠٣ عن فتح البارى ١: ٥٧).

الذي يستوقفنا الجهد المبذول، والإصرار على الهدف، حتى يقول موسى ـ وهو من أولي العزم من الرسل ـ ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴾ .. ثم ينظر فلا يجد طعاما، ولا يخبرنا القرآن أنه اشتد على يوشع في القول. فقد سارع الفتى بالاعتذار، وقبل موسى العذر، وسارا على الجوع يقصان الأثر حتى أدركا الصخرة ووجدا العبد الصالح.

فى مواقف أخرى نرى اشتداد موسى وعنفه وسرعة غضبه ومؤاخذته: حدث هذا عندما ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ (القصص: ١٥).

وحدث عندما عاد من ميقات ربه فوجد قومه يعبدون العجل:

﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٥٠).

ولكن في مواقف أخرى يرى منه رقة ومبادرة إلى عون الضعيف، وتوجيه القوة إلى عمل الخير، وادخارها للأفضل:

حدث هذا من قبل مع بنات الشيخ الكبير في مدين ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص: ٢٤).

وهاهو الآن يترفق مع فتاه، فلا يؤاخذه بما نسى، ولا يرهقه من أمره عسرا..

والآن: ماذا كان من أمره مع العبد الصالح؟

٤٠ـ مع العبد الصالح

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

أفاض علماؤنا في العبد الصالح: هل كان نبيا؟ والذى نقف عنده أنه كان عبدا صالحا، حدد الحديث الشريف اسمه، وإن لم يعرض لنبوته. وتحدثوا عن مفهوم العلم اللدنى. يقول الإمام الفخر الرازى في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾: يفيد أن تلك العلوم حصلت عنده، من عند الله، من غير واسطة. والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات العلوم اللدنية. وللشيخ أبى حامد الغزالى رسالة ((فى إثبات العلوم اللدنية)) ثم أخذ في شرح أقسام العلوم، وكيف أن النفس إذا صفت تهيأت لاستقبال الأنوار الإلهية، وفاضت عليها من عالم الغيب تلك الأنوار.. فهذا تنبيه قليل على هذا المأخذ. ووراءه أسرار لا يمكن ذكرها في هذا الكتاب، (مفاتح الغيب ١١: ١٥٠- ١٥١).

ولقد كان هذا بابا واسعا دخل به في الإسلام ما ليس منه وتسربت ممارسات وأفكار هندوكية وبوذية ويونانية وفارسية وابتدعت بعض الفرق الإسلامية

طقوسا في ذكر الله، ما أنزل الله بها من سلطان.. حتى وصل بعضها إلى الرقص الإيقاعى على النغمات الموسيقية باسم الإسلام، ودخلت خيوط من الفكر غير الإسلامى في هذا النسيج الصافى، وأصبح ماتستريح إليه نفس شيخ من الشيوخ، أو رأس طريق من الطرق، يرى كأنما هدى إليه عن طريق المكاشفة والفيض الإلهى..

قصة موسى والخضر محددة الأبعاد: في أن هذا العبد من عباد الله الصالحين. وأن الله أرسل إليه موسى ليتعلم علما، علمه الله إياه، وليعود موسى إلى قومه مستفيدا من هذا العلم. والله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى أخبرنا أن هذا العبد الصالح تصرف بأمر الله.. أما كيف؟ فهذا من الغيب الذى حجبه الله عنا فمعرفتنا ـ في هذه الحدود ـ مرجعها القرآن الكريم؟ والحديث الشريف. وليس لنا ـ وما يكون لنا ـ أن نبحث وراء ذلك فالوحى الإلهى المنزل على المصطفى ﷺ انقطع عنا بانتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى. وترك الله تعالى لنا كتابه، وبيان الكتاب في سنة رسوله، والعقل الذى نفكر به، وليس وراء ذلك مصدر.

ونحن ـ كمسلمين ـ لا نملك أن نحكم على أي قول إلا في الحدود الأساسية التى بينها القرآن ووضحتها السنة. هذه هى المقاييس الأساسية.. فإذا جاء أي عالم، مهما تكن منزلته، وقال إننى رأيت في المنام كذا، أو ألقى الله في روعى كذا.. عرضنا أمره على كتاب الله وسنة رسوله. فما وافق الكتاب أخذناه، وما عارض الكتاب رفضناه، وما اختلفنا فيه رددناه إلى أهل الذكر ليعلمه الذين يستنبطونه، ويستطيعون تقييمه.. وفى هذا نظل بالكتاب والسنة مستمسكين، وفى نفس الوقت، نقابل مشكلات الحياة بالاجتهاد الذى لا يصدم نصا، مقدرين تغير الظروف والأيام، وتغير الأحكام الاجتهادية مع مسار الحياة..

هذه أمور فصل القول فيها علماء اتخذوا الكتاب والسنة نبراسا، واستطاعوا أن يعيشوا دينهم وعصرهم.

إن العالم الإسلامى الآن يلقى من المشكلات والتحديات الحضارية ما يفرض علينا مقاتلته والتغلب عليه، وحشد الطاقات الروحية، والمادية للانتصار في معركة الحياة.. ومن هذه الزاوية. تأتي النظرة إلى القصص القرآنى، وكيف

يمكن أن يدعم هذه الطاقات ويوجه الشباب إلى الإنتاج والإبداع وموازاة الفكر المعاصر، ثم التفوق فيه.

وإن أبرز ما تميز به جيل الصحابة مع الرسول ﷺ أن أهدافهم كانت واضحة: استطاع المصطفى ﷺ أن يكون الفرد المسلم والمجتمع المسلم. واستطاع الأفراد كأفراد وكمجتمع، أن يحملوا أمانة الإسلام اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا، وأن يحموا قاعدة الإسلام في الداخل ويدفعوا عنها في الخارج، وينشروا الإسلام، وأن تكون من جهودهم حضارة لها وجودها ومكانتها وإبداعها.

كيف استطاع الإسلام أن يفجر هذه الطاقات؟ وأن يجمع موجاتها في تيار منتظم كأنه نهر الخير، ينشر الخصب والنماء على ضفافه، ويروى ساكنيه، ويبعث بأبنائه وثماره إلى آفاق بعيدة؟ هذه هى القضية الرئيسية..

وفى قصة موسى والخضر جوانب من أدب طلب العلم، والتربية النفسية والفكرية.. وهو أدب يمثل - والله أعلم - العبر الكبرى في هذه القصة.. ومنها يكون ارتباط الشباب بها، وجدوى دراستها..

والآن فلنصحب - موسى عليه السلام - وهو من أولى العزم من الرسل. موسى كليم الله الذي أجرى الله له - بأمره - من المعجزات الكونية ما تحفظ جميعا.. وهو في جلال الرسالة وفيض ما أعطاه يبعثه الله تعالى ليتعلم من إنسان لا نعلم من أمره، ولا يعلم هو إلا ما أخبره الله به، وما أخبرنا به في كتابه، وعلى لسان رسوله.. فما أبرز آداب قصة هذا التعلم، وهذه الرحلة العملية؟ كأنها في اصطلاحنا المعاصر - تجربة ميدانية - أو دراسة ميدانية بين موسى وهذا المعلم المجهول.. إلا من إمارات بينها الحق تبارك وتعالى.. هذا المعلم الذى ظهر من ضمير الغيب في زمان ومكان محددين، وانتهى أمره بعد القصة.. فلا نعلم عن حياته أين كانت من قبل، ولا من بعد، ولا نعلم أين قبره، ومن قومه.. كل الذى نعرفه أن اللغة التى تكلما بها كانت لغة مشتركة، وإلا ما أمكن التفاهم.. كذلك مع أهل القرية التى استطعما أهلها..

١- أول هذه الدروس تلطف طلب العلم مع العالم مهما تكن الفروق بينهما، ومهما أحس المتعلم من كرامة الله السابقة له. فمن هذه الكرامة حسن

الطلب ومعاملة الناس. ويبدو هذا في قوله: ((هل اتبعك)) فجعل نفسه تابعا للعبد الصالح.

٢- ومن دروس التلطف الاستئذان في هذه التبعية وهذا أيضا في قوله: ((هل أتبعك)).

٣- إظهار الرغبة في الاستفادة والتعلم. وهذا قوله: ((على أن تعلمني))

٤- والإعلاء من شأن المعلم وذلك في قوله: ((مما علمت)) فما ستقوله لي هو بعض علمك.

٥- تحديد الهدف من العلاقة، فهي ليست مجرد رحلة متعة أو حب استطلاع، وإنما هي مشارطة: اتباع وتلطف من أجل العلم.

٦- رد العلم إلى الله تعالى، فهو - سبحانه - صاحب الفضل عليهما جميعا. وهو سبحانه الذي ساق موسى إلى الخضر. وأوحى إلى الخضر استقباله وتعليمه. وذلك قوله: ((مما علمت)).

٧- في قوله: ((رشدا)) طلب الهداية والرشاد.. فمهما يكن الإنسان في وضع، ففوقه من هو أفضل. ومهما يكن في علم،فالناس جميعا قال الله فيهم: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾.

٨- في قوله: ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ إشارة إلى وجوب حركة العلم. فكما علمك الله، جئت إليك لأتعلم. والعلم كالنور والماء لا يحبس. هذا فضل من الله عليك، فعلمني مما علمت، وسأعود إلى قومي لأعلمهم كما تعلمت.

٩- وأيضًا في قوله: ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ إشعار بأن الاتباع ليس بين فرد وفرد، مهما تكن مكانة كل منهما، وإنما مرد هذا إلى الله.. فالعالم على طريق الله، والمتعلم في اتباع العالم، إنما يتبع طريق الله. وليس في الأمر خضوع فرد لفرد.. ولنستحضر هنا الدقة في قول ملكة سبأ: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل: ٤٤). الإسلام مع سليمان وهذه صحبة الحق. والإسلام منها ومن سليمان لله رب العالمين، وهذا هو طريق الحق.

١٠- ولا ينفى هذا أن المتعلم عليه أن يحسن التلقى من المعلم، فلا ينازعه الأمر، ولا يسابقه بالاعتراض. فإن الخضر وعد موسى بالشرح والتفسير في الوقت الذى يراه.. والذى كان من موسى المبادرة بالأسئلة قبل أن يحين وقت الحوار والشرح. فالأمر ليس اتباعًا مطلقًا، ولا تسليمًا بغير دليل، وإنما هو نظام في الدراسة.

١١- ويبدو جلال العلم ومكانته في أن الرحلة كانت من أجل العلم لا طلبًا لجاه أو عرض من أعراض الدنيا.

١٢- كما يبدو جلال العلم في موقف المعلم والأسلوب العملى الذى اتبعه والمراحل التى مرت بها التجربة مع نبي من أولى العزم..

١- في السفينة

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾

هذا هو الدرس الأول أو التجربة الأولى في رحلة العلم مع موسى والخضر..

ونود فيها أن نربط بينها وما سبقها من آيات تبين سلوك المعلم، بعد أن عرضنا سلوك المتعلم..

لقد وصف الله تعالى الخضر في الآيات السابقة بقوله: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ فهذه صفات ثلاث:

الأولى: العبودية. وهى أكرم ما يصف الله به إنسانا: نبيا كان أم غير نبى..

وصف الله تعالى بها المصطفى ﷺ في ليلة الإسراء فقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ (الإسراء: ١) ووصفه بها في المعراج بقوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ (النجم:١٠) ووصفه بالعبودية وهو يحمل مسئولية الدعوة إلى الله: ﴿ وَأَنَّهُۥ

﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ (الجن: ١٩) ووصفه بها وهو يتحدى الكفار، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ ﴾ (البقرة:٢٣). وبالعبودية كرمه وبالقرآن معا في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ (الكهف:١).

كما وصف بها عباده الأخيار في قوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ (الفرقان: ٦٣).

وهذا العبد الصالح ليس متفردا بهذه الصفة، ولكنه كما وصفته الآية الكريمة: ﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾. فعلى شاكلته غيره وعطاء الله لا ينفذ، ورحمته وسعت كل شئ.. فلا تظنوا الخضر بدعا من الناس غير مسبوق ولا ملحوق.. وفي هذا ما يورث النفس لله تواضعا، فمهما أنعم الله على إنسان فليذكر أن لله عبادا غيره، وأن فضل الله ورحمته قريب من المحسنين.

وفى هذا نجد مقابلة كريمة بين ما جاء في بعض الأحاديث من إحساس موسى بمكانته، وبين وضعه في مكانة المتعلم ليرتفع بها قدره عن طريق المزيد من التواضع لله وعباده، بأسلوب عملى، لا تقتصر على التلقى، وإنما يمتد إلى الممارسة، التى تتنوع فيها الموقف مع وحدة الهدف، وتتضح فيها - أكثر فأكثر - شخصية المعلم وأسلوبه في معالجة القضايا التى بين يديه، وهو اتضاح تنعكس آثاره على المتعلم..

الثانية: الرحمة. وذلك قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾.. وتنكير الرحمة في الآية يفيد شمولها، فهى كالنور يشع في كل اتجاه. وهذه الرحمة فيض من الله وفضل.. فهى من عند الله.. والرحمة في ذاتها خير. وصدورها فضلا من الله خير. هل نذكر معها كلمة مريم ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران: ٣٧) وكيف تحس في تكرر لفظ ((عند)) نوعًا

من الإيناس، والإقرار بفضل الله. زكريا يجد عندها الرزق. ومريم تقول: ((هو من عند الله)).

كذلك مع الخضر، آتاه الله الرحمة من عنده - سبحانه وتعالى - فهو يترفق بمن حوله. سنرى هذا الترفق مع موسى.. ترفقاً يبدو في قوله الأول: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾،.. ويلتمس له العذر فيعقب على هذا بقوله: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ ؟ وهو بهذا يبدأ بالمستوى العادى للإنسان: أن يعجل بالسؤال ليستفيد إذا أشكل عليه الأمر. وليس في هذا أي عيب. ولكن في هذا الموقف يضاف إلى الرغبة في العلم الالتزام بنظام الصحبة أو نظام التعلم. هذا أمر نفسى مضاف إلى الأمر العقلى. قل: إنه أمر سلوكى مضاف إلى مجرد المعرفة. لا يختلف - من حيث طبيعته - عن نظام إدارة الجلسات وتحديد أوقات الأسئلة والحوار..

ونحن نحس فيما سبق من بعض تصرفات موسى - عليه السلام - جانبًا من الحدة والاندفاع، والمبادرة إلى تصرف يرجع عنه، بعد أن يهدأ..

وفى مراحل تكوينه اللاحقة مزيد من الدربة على ضبط النفس.. وتجربته مع الخضر إحدى هذه المراحل.

ولقد أدرك موسى ما يرمى إليه الخضر، وهو أنه محتاج إلى مزيد من الصبر والأناة. فكان قوله: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾. وكما جاء قول الخضر ذا شقين هما ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ جاءت إجابة موسى في شقين أيضًا الأول الوعد بالصبر والثانى الطاعة في القول والعمل.

وعندما وعد موسى بهذين جاء قول الخضر محددًا ما اتفقا عليه.. قال: ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

ولا يحمل هذا الاتفاق وعدًا صريحاً من الخضر بأن يخبر موسى عن تفسير ما يرى. وإنما عليه الصحبة والمشاهدة والمشاركة والطاعة، فإذا كان من أمر الله

للخضر أن يخبر موسى بتفسير ما يشاهد، أخبره به وقتما يشاء، وإذا سكت عنه، فهو لا يفعل شيئا إلا بأمر الله.. ولنذكر أن القصة كلها تتحرك ابتداء بوحى من الله تعالى.

كل هذه آفاق من الرحمة في التعامل.. كانت في مطلع التجربة.

الصفة الثالثة: العلم. وذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

وأنت إذا نظرت إلى المعلم المأمول وجدت هذه الركائز الثلاث أساس حياته، إيمان بالله وعبودية له، فهذا هو الخيط الذى يربطه بربه، رحمة يشيعها فيمن حوله ويعامل بها من حوله، وهذا هو الخيط الذى يربطه بالناس، علم يعيش به وينفع الناس به، وهذا هو الخيط الذى يربطه بالمعرفة، ثم هذه الخيوط الثلاثة في تماسكها - كأنها الحبل المجدول - يرتفع بها الفرد كما يرتفع بها المجتمع وتتبادل التأثير، بل ويتكامل تأثيرها على الحياة والأحياء، ويبدو أثرها في الدنيا والآخرة.

والله تعالى وصف علمنا كله فقال: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥).

ووصف علمه - سبحانه - وصفًا بقربه من أذهاننا فقال:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ (الكهف: ١٠٩)

وقال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان: ٢٧).

فعند موسى من العلم نصيب، وعند الخضر من العلم نصيب، والإحاطة المطلقة من صفات الحق - جل وعلا - أما نحن البشر، فلنا علم الوحى الذى تلقاه المرسلون وحفظه لنا القرآن الكريم، وعلم من تجارب الأمم قبلنا وحولنا، وعلم نحاول معرفته في الأنفس والآفاق، أي في الإنسان والكون وعلم ننظم به، هذا

كله في إطارات تتقدم بها الحياة، وتصعد إلى المزيد من الإبداع، في جو من التواضع وحب الناس..

وانطلق موسى والخضر، وركبا في السفينة، فخرقها. أين كان الخرق؟ ما حجمه؟ لماذا لم يذكر القرآن أن أصحاب السفينة اعترضوا، أو كان لهم موقف، كما سنرى في أهل القرية في المرحلة الثالثة؟ لقد بادر موسى: بوصف ما حدث بأنه شئ إمر.. شئ كبير، بعد أن سارع باستنكار: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾؟ كان من المنتظر أن يعترض أصحاب السفينة وأنت تراهم أمامك يا موسى مساكين، فقال الخضر: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾؟، كل ما فعله الخضر أن ذكره بما كان بينهما. لم يقل له: أنت وعدت بكذا وكذا.. بالصبر والطاعة. ولكن ذكره بأول قوله: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

وبادر موسى إلى الاعتذار..

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ والإجابة من شقين: أولهما واضح: لا تؤاخذني بما نسيت، ولكن ما المقصود: ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ ولم يكن من الخضر إلا التيسير..

هنا نجد جانبًا ممّا يعانيه موسى من الرغبة الجادة في السيطرة على نفسه، وهي رغبة تكلفه بعض العسر، ولكنه جزء من ثمن العلم والتعلم.

فطريق العلم فيه عسر وفيه إرهاق. ولكن ليذكر أبناؤنا، أنه طريق الأنبياء والصالحين.

٤٢ـ الغلام والجدار

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾

هذه هى المرحلة الثانية من لقاء موسى والخضر.. كانت الأولى في ظاهرها إتلافا لمتاع هو ملك للغير، ودون إذن منه ودون ظهور الحكمة في ذلك. وهو إتلاف كان من الممكن أن يؤدى إلى إغراق.. ولكن الذي بدا هو إتلاف جزء من السفينة. وهذا الجزء يمكن إصلاحه فيما بعد.

أما هذه المرحلة فالإتلاف فيها لا يمكن إصلاحه. إنه قتل نفس. وفرق كبير بين خرق السفينة وقتل الغلام.

ولفظ الغلام قد يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصبى الصغير. وليس في القرآن تفصيل كيف لقياه، هل كان مع جمع من الصبيان أو كان منفردًا؟ وهل كان مسلمًا أو كان كافرًا؟.

وقوله تعالى: (بغير نفس) يدل على عدم وضوح السبب الداعى إلى ذلك، أمام موسى على الأقل فما ظهر من هذه النفس كفر، وما ظهر منها عدوان على نفس أخرى يستوجب القصاص، وإتلاف النفس في هذه المرحلة مما لا يمكن إصلاحه، من أجل ذلك كان قول موسى: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ واضح أن هاتين التجربتين لا تبعدان كثيرًا عما سبق أن لقيه موسى في حياته، وكان يستطيع الربط، لو أنه أطال التأمل ولم يبادر بالتساؤل أو الاعتراض.

لقد ألقته أمه وهو رضيع في اليم. سفينة تابوت صغير، لا شراع ولا سكان ولا ربان، إلا رعاية الله فكأنه سفينة نوح باسم الله مجريها ومرساها ورحمة الله تدرك الرضيع كما تدرك الجنين والشيخ الكبير.. وأيهما أقرب إلى النجاة: ملاحون مدربون وركاب كبار أم رضيع في تابوت يحركه تيار الماء؟ لقد كانت رحمة الله قريبة منهم جميعًا، وفى قدره سبحانه أن تنجو السفينة وأن ينجو الرضيع. والأمر كله إيمان وصبر وتصديق بوعد الله.

وكذلك قصة الغلام الذى قتله الخضر، إنها ليست بعيدة عن قصة الرجل الذى وكزه موسى وقضى عليه عندما استغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه، ثم أصبح في المدينة خائفا يترقب، وتآمر عليه الملأ فخرج من المدينة خائفا يترقب وتوجه تلقاء مدين.

هل كان موسى يخشى أن تتكرر التجربة ؟ وأن يتعرض وصاحبه لغضب القوم؟

وفى هدوء لم يرد الخضر عليه مفسرا، وإنما ذكره بالعهد: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ؟

وهذه الجملة تزيد عن سابقتها بكلمة (لك) كأن الخطاب موجه إلى موسى مباشرة. وزيادة المبنى في الجملة يدل على زيادة المعنى.

وتغير اتجاه الاعتذار..

لم يقل موسى هذه المرة ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ فالخضر ما آخذه وما أرهقه، إلا أن يكون مجرد التذكير مؤاخذة وإرهاقا.

واتجه موسى إلى نفسه – كأنما يريد أن يؤاخذها بما أسرعت فقال: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ ومرة ثانية نرى الإجابة ذات شقين: أن تتوقف المسيرة إذا سأل موسى. وقدم مبررات ذلك: قد بلغت من لدنى عذرا..

موسى هو الذى طلب الصحبة وقَبِلَ شروطها، ولكنه هو الذى حدد كيف تنتهى. وفى هذا يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: (لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا قصصهم). (جزء من حديث ابن عباس عن أبى كعب: تفسير الطبرى ١٥: ٢٧٩ ط. الحلبى).

وتتأمل هنا رغبة المصطفى في الاستزادة من العلم، وتمنيه أن كان موسى صبر.. ومن قبل هذا رغبة موسى في العلم. وكيف استفاد وأفاد.. وكان الصبر - مجرد الصبر - بابًا إلى العلم. وبهذا القول من موسى لم تبق لنا مع الخضر إلا تجربة.

ولكن في حديث ابن عباس طرف آخر نقف عنده وهو تعقيب المصطفى عليه الصلاة والسلام على قول موسى: ﴿ إن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ قال: استحيا في الله موسى عندها (تفسير الطبرى ١٥ :٢٨٧ — ٢٨٨).

وفى رواية أخرى لنفس الحديث (رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى، قد بلغت من لدنى عذرا) (نفس المرجع ١٥- ٢٨٨).

ننتقل إلى قول الله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾.

وإذا كانت التجربة الأولى متعلقة بمال الآخرين، والثانية بقتل النفس، وهما - في ظاهرهما - فعل ظاهره العدوان فإن الثالثة تختلف عنهما اختلافاً أساسيًا.. فهى في ظاهرها تقديم الخير لمن لا يستحق.

وواضح من سياق الآية أن موسى وصاحبه أتيا أهل القرية، وهما في حاجة إلى الطعام، وأن أهل القرية أبوا أن يضيفوهما. وشر القرى هى التى لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه.

ولقد كان المنتظر أن يبرحاها إلى قرية أخرى، ليدركا فيها ضيافة أو طعامًا..

ولكن نظر العبد الصالح فوجد جدارًا يريد أن ينقض. جدارًا به علامات تدل على قرب سقوطه.. ولا دلالة في القرآن على الجهد الذى بذلاه لإقامة الجدار، دون أن يطلب منهما أحد ذلك، ودون أن يطلبا عليه أجرًا، قبل الإقامة أو بعدها.

وحاول موسى أن يربط بين الجهد والأجر. ولكنه عرض هذا في أسلوب من التخيير يختلف عن أسلوبه السابق الذى وصف به ما رأى، أنه شيء إمر وأنه شيء نكر، وقالها في المرتين بصيغة جازمة.

هنا قال موسى للعبد الصالح: ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ لو شئت، فالأمر لك. ولم يقل: (لاتخذنا)، كأنها إرادة مشتركة.

وهنا أعلن العبد الصالح نهاية مراحل التجربة قائلا: هذا فراق بينى وبينك.. ثم بادر فربط بها مباشرة ما يود موسى أن يعرفه قائلا: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾، ولم يقل له سأنبئك بتأويل ما رأيت، فالأحداث شاهداها معًا.. ولكن الجزء الذى كان خافيًا على موسى هو العبرة والحكمة في كل من هذه الأعمال: ما مصدرها؟ ما هدفها؟ ما علاقة أعماقها بالجزء الظاهر منها؟

ولنذكر هنا أمورًا بين يدى التأويل:

أولاً: أن الخضر كان معروف لأهل السفينة، كما جاء في حديث ابن عباس: فانطلقا يمشيان على الساحل، فعرف الخضر، فحمل بغير نول (أى أجر)..(الطبرى ١٥ :٢٧٨).

ولعله كان معروفًا لأهل أرضه ولم يرد في القرآن أنهم اعترضوا على ماصنع.

ثانيًا: لا يذكر القرآن أن أحدا آخذه على قتل الغلام. الغلام كان مجهولاً لموسى والدليل قوله الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا ﴾ بينما هو معروف للعبد الصالح، كما سيأتى فيما نستقبل من التأويل.

ثالثًا: والقرية التى لا تكرم الضيف كانت معروفة أيضًا للعبد الصالح.. بأهلها وأجيالها وطرقاتها وبيوتها. من أجل ذلك وقف عند جدار معين فيها يريد أن ينقض فأقامه..

كان تحرك العبد الصالح في أرض معلومة له وبين قوم معلومين ولأهداف معلومة.. وكل ذلك كان خافيًا على موسى حتى أخبره به العبد الصالح بأمر من ربه.

٤٣ـ ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴾

ونود بداية أن نؤكد في هذه الآيات أمرين أساسيين

- الأول: التأويل الذى لم يستطع موسى عليه صبرا.
- الثانى: أن العبد الصالح فعل هذا مأمورا، ومنفذا لإرادة الله تعالى.

والتأويل لغة. هو تفسير لشيء غير واضح، وهو مشتق من الأول وهو الرجوع، كأن تحصيل المعنى شبيه بالرجوع إلى المكان بعد السير منه. (تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهرين عاشور ١٦:١.)

وسنبدأ بمشهد السفينة، فالغلام، فالجدار..

والسفينة كانت لمساكين يعملون في البحر، يرتزقون من جهدهم، ويكدحون دهرهم لتحصيل عيشهم. والمقصود من كلمة وراء في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ ﴾ أنه يتعقب السفن الصالحة ليستولي عليها أو يسخرها لخدمته غصبًا وقهرًا. وليس المقصود موقعه المكانى: هل هو يسكن قبل أو بعد.

وجملة ﴿ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾ متفرعة على كل من جملتى "فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ" و" وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ" ، فكان حقها التأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظاهر. ولكنها قدمت خلافا لمقتضى الظاهر لقصد الاهتمام، والعناية بإرادة إعابة السفينة، حيث كان عملا ظاهره الإنكار، وحقيقته الصلاح، زيادة في تشويق موسى إلى علم تأويله، لأن كون السفينة لمساكين مما يزيد السامع تعجبا في الإقدام على خرقها. والمعنى: فأردت أن أعيبها وقد فعلت.. فتصرف الخضر قائم

مقام تصرف المرء في ماله بإتلاف بعضه لسلامة الباقي. وهو ارتكاب أخف الضررين. وهذا أمر لم يطلع عليه إلا الخضر، فلذلك أنكره موسى (التحرير والتنوير١٦: ١٢ –١٣)

ولكن في القصة وجهًا آخر.

موسى لم يكن من أبناء هذه الأرض، التي لقى فيها العبد الصالح، ووجود حاكم، ظالم مغتصب، لم يكن مما يخفى أمره على الخضر، ولعل ظلم هذا الحاكم مما لا يخفى أيضًا على المساكين، أو لعلهم لم يعرفوا ما أصدر من أمر، باغتصاب سفينة المساكين فكان أن يسر الله تعالى لهؤلاء المساكين هذا العبد الصالح، لينقذ سفينتهم من الملك الغاصب ولذلك بأن يعيب السفينة فإذا رآها رجال الماك انصرفوا عنها..

فالتصرف كان لصالح المساكين وكانوا هم على ثقة بالعبد الصالح ولوعاب سفينتهم، لحكمة ستظهر مع ظهور رجال الملك. ويستطيع المساكين من بعد- أن يصلحوا سفينتهم، ويتابعوا الارتزاق منها.

والحكمة في هذا الأمر تبدو من وجوه:

١- أن لا يتسرع الإنسان في الحكم بمجرد رؤية جانب منه: كان من موسى المسارعة إلى الاعتراض عندما خرق العبد الصالح السفينة، والعبد الصالح كان يدرك أطراف الأمر جميعًا: المساكين،السفينة،الملك الغصب رجال الملك الذين ينفذون أمره. موقعهم وترصدهم للسفن أو قطع الطريق عليها في مراسيها..

٢- أن الأمر لا يتعلق بفعل معزول عن صاحبه، فالذى خرق السفينة إنسان عاقل، وهو هنا في مرتبة المعلم ولقد مثل هذا أمام أصحاب السفينة، ولم يعترضوا عليه، أو لم يخبرنا القرآن أنهم اعترضوا عليه. لماذا ؟ هذا عامل الثقة في العبد الصالح وكان متوفرًا بينه وبين المساكين ولولا معرفة سابقة بينهم ما أركبوه بغير نول هو وصاحبه، ولقد أسقط موسى عامل الثقة هذا، ولم ينظر إلا إلى خرق السفينة بقصد الإغراق مع ما سبق من المساكين من فضل.

٣- أن للإنسان أن يرتكب خطأ أدنى في سبيل النجاة من خطر أكبر كالذى يهدم جدارًا لينقذ من وراءه أو يكتم حريقًا أو يطفئه منعًا من احتراق الدار مضحيًا بجانب منه.

٤- أنه كلما اتسعت دائرة المعرفة، كلما كان التصرف أقرب إلى الصواب. والمعرفة في أبعادها المكانية والزمانية والموضوعية وفى علاقاتها: أنوار تضئ الطريق إلى الاختيار الأنسب.

ننتقل بعد هذا إلى موضوع الغلام..

ولقد تكلم المفسرون عن هذا الغلام..وأنه لو طال عمره لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا..(نفس المرجع ١٦: ١٣، أحد الأقوال التى أوردها الفخر الرازى١١: ١٦٢).

ومما ذكره الفخر الرازى (١١: ١٦٢): قيل: إن ذلك الغلام كان بالغا وكان يقطع الطريق ويقدم على الأفعال المنكرة، وكان أبواه يحتاجان إلى دفع شر الناس عنه، والتعصب له، وتكذيب من يرميه بشئ من المنكرات، وكان يصير ذلك سببا لوقوعهما في الفسق، وربما أدى ذلك الفسق إلى الكفر. أهـ.

ولعل الأقرب إلى العقل، أن الغلام قد ارتكب ما يوجب القتل، وأنه قد نجا من القصاص بسبب أو لآخر وأن الله – سبحانه – وهو الحكم العدل، قد سخر العبد الصالح للقصاص. وفى هذا صلاح الأبوين، اللذين وعدهما الله تعالى بذرية خير منه، كما وصفها الله في كتابه ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾.

أما قول موسى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ فقد كان قولاً مبنيًا على مجرد رؤية المشهد معزولاً عن أسبابه، ومرة أخرى نقول: إن موسى لم يكن من أهل هذه الديار حتى يحكم على نفس بأنها زكية لمجرد الرؤية أو اللقاء العابر، ويحكم على تصرف العبد الصالح، وهو من أهل هذه الديار، بأنه أتى أمرًا نكرًا.

أما القول بأن الله تعالى ـ بسابق علمه ـ قد أعلم العبد الصالح أن الغلام لو طال عمره لضل وأضل، فهو حساب على أمر لم يحدث ولن يحدث.. وكيف

يحاسب الله الإنسان على مالم يرتكب؟ الأقرب دينًا وعقلاً: أن الغلام أتى ما يستوجب القصاص، وأنه حتى لقى العبد الصالح كان مستور الأمر، أو بعيدًا عن يد القصاص حتى أوقعه به العبد الصالح امتثالاً لأمر الله تعالى.

والحكمة هنا أيضًا واضحة هى: عدم التسرع في الحكم، ووجوب الإحاطة بجوانبه.

تبقى بعد هذا قصة الجدار. وتختلف في طبيعتها عن الأمرين السابقين: خرق السفينة وهو إتلاف مؤقت وجزئى، وقتل الغلام وهو إنهاء حياة، على أمل أن يبدل الله الأبوين خيرًا منه زكاة وأقرب رحما.. هنا عمل خير دون أجر.. لأفراد مجهولين، يختفى وجودهم في القصة وراء أخلاق أهل القرية السيئة.. الأيتام لايقدرون على الضيافة، ولا يقدرون على إقامة الجدار، ولا يقدرون على الاعتراض على قومهم.. كل الجانب الإيجابى في حياتهم يلخصه القرآن في جملة قصيرة منيرة: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾.

ومرة ثالثة ربط موسى بين سوء أخلاق القرية، وأنهم لايستحقون عملاً صالحًا، وإذا عمل لهم أحد عملاً فليكن على مبدأ (هات وخذ).

هل كان العبد الصالح على علم بأمر الأب الصالح؟ وهل كان مؤتمنًا على سر الكنز وقد حفظه الأب تحت الجدار، وحفظه حتى عن الصغار، لئلا تزل ألسنتهم بكلمة عنه لأهل القرية الظالمة؟

وما قاله بعض المفسرين عن الإعجاز في إقامة الجدار، وأنه أشار إليه فاستقام، لانقف فيه عند مستوى الإعجاز، فليس عليه دليل من كتاب ولا سنة..

الذى أمامنا أنه أقام الجدار، وحفظ الكنز للغلامين، فإذا ما كبرا وأرادا تجديد البيت، فلن يجدا من القرية الظالمة عونًا، واعتمدا على الله وعلى أنفسهما ولن يكون معهما أحد عند العثور على الكنز.

ويختم العبد الصالح قوله: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

وحذف التاء من تستطع يدل على سهولة الاقتناع بعد التأويل وفى أول القول كان الفعل: سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا.. وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى في لغتنا العربية.

٤٤ـ وما فعلته عن أمرى

لاتزال قصة موسى والعبد الصالح مصدر إشعاع فكرى، علينا أن نزنه جميعا بميزان الكتاب والسنة المطهرة، دون أن يجمح بنا الخيال بعيدا عن مسالك الشريعة.

بعض العلماء ـ وبخاصة بعض أهل التصوف ـ اتخذوا هذه القصة أصلاً بنو عليه قواعد موهومة.

وأود هنا أن نقرأ معًا قول عالم جليل هو الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير(١٥ :١٦ – ١٦) نذكره مختصرا:

فأول ما أسسوه منها أن الخضر لم يكن نبيًا وإنما كان عبدًا صالحًا، وأن العلم الذى أوتيه ليس وحيًا، ولكنه إلهام وأن تصرفه الذى تصرفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأن الخضر منحه الله البقاء إلى انتهاء مدة الدنيا، ليكون مرجعًا لتلقى العلوم الباطنية، وأنه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقيه.

وبنوا على ذلك أن الإلهام ضرب من ضروب الوحى وسموه (الوحى الإلهامى) وأنه يجئ على لسان ملك الإلهام، وقد فصله الشيخ محى الدين بن العربى... في كتابه (الفتوحات الملكية) وبين الفرق بينه وبين وحى الأنبياء بفروق وعلامات ذكرها في كتابه وجزم بأن هذا الوحى الإلهامى لايكون مخالفًا للشريعة، ولا يخلو ما قاله من غموض ورموز. وقد انتصب علماء الكلام وأصول الفقه لإبطال أن يكون مايسمى بالإلهام حجة. وعرفوه بأنه إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر، وأبطلوا كونه حجة لعدم الثقة بخواطر من ليس معصومًا، ولتفاوت مراتب الكشف عندهم، وقد تعرض لها النسفى في عقائده. وكل ما قاله النسفى في ذلك حق. ولا يقام التشريع على أصول موهومة لا تنضبط.

ثم يقول الشيخ الطاهر بن عاشور بعد هذا:

والأظهر أن الخضر نبي - عليه السلام - وأنه كان موحى إليه بما أوحى، لقوله ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ وأنه قد انقضى خبره بعد تلك الأحوال التى قصت في هذه السورة. وأنه قد لحقه الموت الذى يلحق البشر في أقصى غاية من الأجل يمكن أن تفترض. وأن يحمل مايعزى إليه من بعض المتصوفة الموسومين بالصدق، أنه محوك على نسج الرمز المعتاد لديهم، أو على غشاوة الخيال التى قد تخيم عليهم ويختم تعقيبه بقوله:

فكونوا على حذر ممن يقول: أخبرني الخضر. أهـ.

وكذلك من الناحية اللغوية والبلاغية ترى في القصة وقفات منها: استعمال ثلاث صيغ للفعل (أراد):

- أولاً: في خرق السفينة قال: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾
- ثانيًا: في قتل الغلام قال: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾
- ثالثًا: في إقامة الجدار، قال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾

كيف اختلفت الإضافة في هذه الإرادات الثلاث وهى كلها في قصة واحدة، وفعل واحد؟

يقول الفخر الرازى: إنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه.. فقال ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾. والإرادة هنا قصد، وعمل لهدف محدد من قبل. ولذلك لم يقل العبد الصالح (فَعِبْتها) لمجرد إحداث الخرق. وإنما كان إحداث الخرق إرادة وحركة واعية.

أما القتل فعبر عنه بلفظ الجمع (تبينها على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية) ويمكن أن نضيف إلى هذا أن إرادة القتل لها شقان: الأول تنفيذى لا يخرج عن خرق السفينة ولو كان وحده لنسبه العبد الصالح إلى نفسه، ولكن هناك شقاً ثانيًا هو الأمل المنتظر المرجى من الله

تعالى: غلام ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ وهذا من فضل الله وكرمه.. واجتماع الأمرين: القتل وهو سلب حياة، والأمل المرجو وهو عوض وفضل، يلائمه فعل الجمع فأردنا.

أما الفعل الثالث (فأراد ربك) فلقد أبى تواضع العبد الصالح وأخلاقه التى أدبه بها ربه إلا أن يمر على إقامة الجدار. وهو جهده - دون أن يذكره. وكأنه يستره حتى من القول والذكر. وأبرز الجانب المستقبلى من إقامة الجدار، وهو أن يبلغ اليتيمان أشدهما ويستخرجا كنزهما، كما أبرز الجانب التاريخى من القصة في قوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ والجانب الحاضر منها في قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾.. ومر مسرعًا على ما صنع، ورد الخير كله إلى الله، والإرادة كلها لله فقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.

وتأمل هنا استخدام لفظ (ربك) بالضمير المتصل المؤكد للربوبية والرعاية، ولفظ أشدهما ليعتمدا على نفسيها، ويستخرجا كنزهما فهما، أصحاب الحق فيه.. كل هذا ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ربك أنت يا موسى وربى، ورب الغلامين اليتيمين، ورب الأب الصالح، ورب الأبوين المؤمنين، ورب المساكين الذين يعملون في البحر ورب كل من التجأ إليه، واحتمى بجانبه، وطرق بابه، واتبع سبيله وسار في نوره. ربنا جميعا ورب العالمين.

ثم قال: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ولم يقل (هذا).. استعظامًا لما حدث، ورفعًا لمكانته، تمامًا كما تقرأ في أول سورة البقرة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ للفظ هذا، مكان، وللفظ (ذلك) مكان، ثم عاد بعد هذا فقرب إليه الأمر بقوله: ﴿ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ بتخفيف كلمة يستطيع التى جاءت في صدر القول.

وفى هذا القول جانب كريم من الإيناس فهو لم يقول له: (ذلك تأويل ما لم تصبر عليه) فذكر الاستطاعة ونفيها.. يدل على بذل الجهد في محاولة الصبر

ولقد كان لموسى ما يدعوه إلى الاعتراض، ولكن كان عليه أن يغالب نفسه وأن يلتزم بما شارط عليه العبد الصالح والتجربة - حتى للأنبياء - مدرسة ترتفع بها درجاتهم عند الله ويستفيد منها المؤمنون ولقد خاطب الله تعالى رسوله الخاتم بعد أن قص عليه قصص الأنبياء في سورة الأنعام:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٩٠،٨٩).

وقفة أخرى مع قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا ﴾ وكيف ينتقل صلاح الآباء إلى الأبناء هذا أمر نراه في حياتنا اليومية وهو تطبيق عملى لقول الله تعالى: ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ (النساء: ٩- ١٠).

وهى من الآباء عدل في المعاملة، وعدل في الميراث لايتركهم عالة يتكففون الناس، ويورثهم مع الستر الاقتصادى حصانة الإيمان والأخلاق والعلم تنير لهم الطريق، وتعصمهم من الانحراف، وتحفزهم إلى العمل، وتقيمهم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يضل عنها إلا هالك. وفى لقائهم الناس، وهم يحملون اسم الأب الصالح، ويحملون معه قبسا من أخلاقه الطيبة، سيجدون قبولا، لايجده نظير لهم، كان أبوه ظالما أوقاسيا أو غاصبا.. وغير بعيد أن يظن الناس في لقائهم أبناء الظالم أو الباغى أنهم على سنن أبيهم.. هذا في الظاهر أمامنا.. أما في الداخل، فإن العشره الطويلة بين الأب الصالح وأبنائه الصالحين.. أو حتى معايشة ذكراه الطيبة، تترك الأثر الصالح في نفوس الأبناء..

وأكثر من عمل طيب يعمله الأب الصالح ولا يملك من تقبل الجميل أن يرده في حياته، فيحاول هو أو أبناؤه أن يردوه إلى أبناء الأب الصالح بعد رحيله..

وما أعظم إشعاع قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا ﴾

وما أعظم إشعاع القرآن الكريم.. ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة: ١٥ -١٦).

٤٥- ويسألونك عن ذى القرنين

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

نعود إلى سؤال التحدى الذى تعاون كفار قريش مع اليهود في المدينة على توجيهه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. وعاد النضر بن الحارث وعقبة بن معيط بالأسئلة الثلاثة: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإن حديثهم عجب، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه وسلوه عن الروح وما هو.(الفخر الرازى ١١:٨٣)

ومن طبيعة السؤال أن يكون فيه ما يوجه إلى الإجابة وكل الذى جاء عن القصة التى نحن بصددها ((وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها))

والعناصر الواردة في السؤال، أنه رجل، وأنه طواف، وأنه في طوافه قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، بعبارة أخرى: رجل غلب على حياته عنصر الطواف الواسع شرقا وغربا ألا نرى ابتداء أن الإجابة يمكن أن تنطبق على أكثر من رجل في أكثر من عصر.

وجاء النص من أوله يحمل مزيدًا من التحديد، ولكن لايحول دون تعدد الأقوال ويعطى كما سنرى مزيدًا من التفصيل، في أمور ترتبط أكثر ما ترتبط بأهداف القرآن من الإيمان والعدل والقوة، ووضعها في خدمة الحق، والتعبير العملى عنها بالجهد المشترك وحماية الضعفاء، وتحويل سلبياتهم إلى إيجابيات.. جاءت القصة تؤكد هذا كله، دون أن تقف عند اسم الرجل وعصره ومدى طوافه الشرقى والغربى ووصوله إلى مكان أطلق القرآن عليه اسم ((بين

السدين)) ثم ذكر أسماء شعوب تعددت فيها الأقوال ووصفها بالإفساد، وجعل من جهد الرجل الطواف ما يحول دون ذلك.

فليس من منهج القرآن الكريم ذكر جزئيات القصص التى لا ترتبط بمقاصده الكبرى، ولا متابعة، أسلوب التحدى الذى أعان فيه يهود المدينة كفار قريش.. ولنذكر أنهم وهم موحدون في أساس الدين، يقبلون التعاون مع مشركى العرب على الإسلام ثم كانوا - من بعد - أكبر أعوان قريش في المدينة على حرب الإسلام، والتآمر على قيادته وقاعدته.

ولننظر الآن إلى هذا التعبير ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ ونتساءل ما المقصود منه؟ وهل كان تعبيرا متداولا في الدول التى سبقت الإسلام وعاصرته.. ثم استمر في الدول التى جاءت بعد قيامه؟

التعبير يدل على ثنائية متصلة، أقرب نموذج لها من مشاهد الكون: قرنا الهلال وهما طرفاه. وهو مشاهد في حياة الحيوان، ويرتبط بالقوة والبأس. قرنا الثور والكبش والتيس وبالجمال أيضًا: قرنا الغزال.. ومن هذين المصدرين القوة والجمال انتقل التعبير إلى عالم الإنسان برجاله ونسائه.. فالقرن هى الضفائر أو الجدائل، للكبار والصغار.. كما دخلت القرون في تصميم التيجان: إما ربطًا لها بالقوة، أو الجمال أو المصدر السماوى، كما دخلت في تصميم خوذات المحاربين في كل من العروض الوسطى حيث عاش الفرس والروم والحميريون في اليمن،وفى العروض الشمالية عند رجال البحر من الفايكنج في اسكندناوه، وعرفتها الحضارات القديمة كالحضارة المصرية.

وذهب بعض المفسرين (محمد أسد في رسالة القرآن ص ٤٥١- ٤٥٢ ط. دار الأندلس. جبل طارق ١٩٨٠) إلى أن القرنين هما لقاء الحق والقوة في القصة، أو لقاء جيلين من البشر. والقرن - لغة - هو الجيل من الناس. ويوضح هذا الحديث الشريف: خير القرون قرنى.

وبهذا المعنى جاءت أكثر الآيات التى ورد فيها اللفظ في القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ

قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ وذلك في قصة قارون (القصص: ٧٨)

وكأن القول بأن القرنين هما العلم والقوة أو الحق والقوة، يقابل ماجاء في قصة موسى والخضر من ثنائية سابقة بين الظواهر والحقائق.

ولقد استمر استخدام هذا الرمز بعد الإسلام: ففى مملكة الفونج السنادية الإسلامية في سودان وادى النيل وكان ازدهارها ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين كان رمز السيطرة والملك غطاء رأس له قرنان (الطاقية أم قرنين).. ولعله كان استيحاء من قصة ذى القرنين. وكان القوم مركز نشاط إسلامى كريم.

ثم يأتى قولا لله تعالى: ﴿ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ والتلاوة هنا إعلام عن طريق الوحى. فليس هذا العلم من عندى، ولا هو من كسبى وإنما هو مما أوحى إلى ربى، وهذا الذى سأتلوه عليكم هو بعض خبر ذى القرنين، وليس استقصاء لتاريخه. هذا ما تفيدنا كلمة منه، وكلمة (ذكرا) تفيد الخبر، كما تفيد العبرة في ذات الوقت..

وقد حاول بعض المفسرين نقل القصة من التعميم إلى التخصيص وتحديد شخصية ذى القرنين من الناحية التاريخية، والعصر الذى عاش فيه والمدى الذى وصل إليه شرقًا وغربًا. وموقع السر الذى أنشأه ولكن ألا يجدر بنا، وقد عرضنا صورة شاملة عن (القرنين) في الحياة والتاريخ، أن نعرض استخدام القرنين في الفكر اليهودى، وهم الذين اختاروا الأسئلة الثلاثة لكفار قريش، ليتحدوا بها المصطفى عليه الصلاة والسلام.

أشار إلى ذلك مولانا عبد المجيد الدارياباذى في ترجمته وشرحه لمعانى القرآن الكريم (١: ٢٨٥ ط. شركة التاج كراتشى/ باكستان مارس ١٩٧١).

جاء القرن في العهد القديم رمزا للقوة والعظمة. وفى الاصطلاح العبرى تقول: رُفِعَ قرن قومٍ أو فرد إذا قصدت النصر أو الكبرياء وكسر القرن أو عُضِبَ إذا أردت الهزيمة. حتى موسى - عليه السلام - يصورونه وله قرنان. ومن المتواتر

عندهم أن موسى عندما رجع من ميقات ربه يحمل الألواح نبت له قرنان في جبهته، أو هما رمزان لأشعة نورانية تضيء من رأسه.

وفى قاموس الكتاب المقدس (ص ٧٢٧ ط الانجيلية -بيروت ١٩٦٤) تحديد لهذه المواقع في أسفار وأعداد العهد القديم وحتى في التماثيل التى تصوروها لموسى - عليه السلام - وأهمها ما نحته مايكل أنجلو (أعظم نحاتى عصر النهضة ١٤٧٥م - ١٥٦٤م) تبدو كل مظاهر القوة الجسمية، والعزم والتصميم، كما تبدو القرون النابتة في رأسه.

ومن هنا يبدو الربط بين القرنين والفكر اليهودى، والتحدى الذى أعانوا به كفار قريش على الإسلام.

إلا أن القرآن قيد الشخصية بصفات سنراها فيما نستقبل من آيات، ولكنه في هذا المطلع، ذكر فضل الله عليه، ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والأرض هنا لا تفهم على إطلاقها، وإنما الأرض التى كان يحيا فيها، أو يمتد إليها سلطانه، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ أى من كل شىء يحتاج إليه في أمر دينه ودنياه، وما يقوم به من عون لقومه أو لغيرهم، أى: أن أسباب الصلاح والإصلاح كانت متيسرة بين يديه، وفى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ ما يدل على تيسر الوسائل يقول الفخر الرازى: (١١: ١٦٦) معناه أنه تعالى لما أعطاه من كل شىء سببه فإذا، أراد شيئا، أتبع سببا يوصله إليه ويقربه منه.

والأصل في السبب - لغة - عبارة عن الحبل ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى المقصود، وهو يتناول العلم والقدرة والآلة.

وفى هذه الآيات تتمثل مصادر القوة التى يمكن أن يستقيم بها أمر حاكم:

- **أولاً**: الأرض التي يتحرك منها وهي القاعدة التى لاغنى عنها لأى حاكم. ولقد كانت القضية الكبرى بعد الإيمان في حياة الرسول ﷺ والذين معه، هى البحث عن الأرض الآمنة التى يتحركون منها،هذا بعد أن رفض القرشيون الإسلام وحاربوه إلا قليلا منهم.. فكان البحث عن مهاجر جديد، وكان الاستقرار في المدينة، ثم الانطلاق منها.

- **ثانيًا**: توفر الموارد البشرية والمادية.. ولم يحدث هذا في مكة، وحدث في المدينة، فكان فيها المهاجرون والأنصار قوة بشرية مؤمنة، وكانت موارد المدينة من زراعة وتجارة وبعض الصناعة، في خدمة الإسلام، وهذه هي الأسباب.
- **ثالثًا**: القدرة على تحريك هذه الموارد، أو هذه الأسباب، وهي سياسة المدينة الداخلية والخارجية، والتي نقرؤها في القصة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

أرأيت أن الحديث لم يكن عن الماضي بقدر ما هو رسم للمستقبل وتخطيط له.

٤٦ـ ذو القرنين والتاريخ والتفسير

ذو القرنين من الشخصيات التي تناولها التاريخ والتفسير ولا تزال.

لم يذكر القرآن الاسم صريحًا مع أن مدخل القصة هو قول الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾.

ونستطيع وهذا ما سننتهي إليه أن نقف عند حدود النص القرآني وما فيه من العبرة طيل الوقوف عند المواطن التي وجهنا إليها، ونمر مسرعين بالمواطن التي أجملها ثم نضم أطراف الحديث، ونحاول فهمها في ضوء الآيات الخاتمة للقصة في السورة.

ونستطيع أيضا أن نطوف بكتب التفسير والتاريخ لنرى ما جاء فيها عن ذي القرنين وكيف حاولت تحديد الشخصية أو على الأقل ترجيحها، والإطار العام الذي يجمع هذه الأقوال، والمنهج الذي سنتبعه هو الدراسة المقارنة والتحليلية.

ولنذكر أولا: أن التحدي كان للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن الذين تحدوه هم قريش، وأن الذين أعدوا الأسئلة هم أحبار اليهود في المدينة.

ومن المنطقى أن تكون الأسئلة متصلة من قريب أو بعيد بالتاريخ اليهودى، وهو مادة حياتهم.. فما أهم الدول ومناطق العمران الحضارى التى كان لهم بها صلة؟.

- أولا: الإمبراطورية البيزنطية ومن قبلها الإمبراطورية الرومانية، وهذه كانت مسيطرة على أجزاء كبيرة من حوض البحر المتوسط. (الشام. مصر. آسيا الصغرى. وما وراءهما غربًا فى أوربا وإفريقيا).
- ثانيًا: الإمبراطورية الفارسية: وشهدت بابل أسر اليهود وإطلاقهم.. وإخراجهم وإعادتهم.. وسجلت أسفار العهد القديم جوانب من ذلك، وأسماء بعض أكاسرة الفرس، كما سنرى فى الدراسة المقبلة..
- ثالثًا: ملوك اليمن.. وكانت لليهود فى اليمن مواطىء أقدام ومناطق استقرار، وإن انعزلوا فيها نسبيا عن تيار الحياة المتدفق فى حوض البحر المتوسط، والصراع بين الفرس والروم.
- رابعًا: وعندما اتصل المسلمون بالشرق الأقصى أخذت تتجمع لديهم أخبار عن هذه الحضارة القديمة والأصيلة، وما لملوكها من سلطان ونظام.. ثم سمعوا عن السد الجبار الذى أقاموه على حدودهم الشمالية، مما أوحى إلى بعض المفسرين بمحاولة تفسير قصة ذى القرنين، فى ضوء الحضارة الصينية.

فهذه اتجاهات أربعة فى التفسير، مضافة إلى التفسير القرآنى الذى يقف عند حدود الآيات دون تحديد للشخصية، وسنحاول أن نعرضها وأن ننقدها فى ضوء المعطيات القرآنية.

ولكن ما أهم هذه المعطيات وهى الميزان الذى تزن به الاتجاهات الأربعة:

- أولاً: أن ذى القرنين مؤمن بالله تعالى.
- ثانيًا: ومن هذا الإيمان نبع عدله واستقامته وإيجابيته.
- ثالثًا: كانت له قاعدة ملك قوية انطلق منها.
- رابعًا: كان له نشاط نحو الغرب.
- خامسًا: كان له نشاط نحو الشرق.

- سادسًا: كان له نشاط في منطقة جبلية متوسطة، اقتضى منه إقامة فيها إلى حين، ليشرف على تنفيذ مشروع لبناء سد، يحول بين قوم مستضعفين وقوم مفسدين. وكان لهذا السد مواصفات خاصة، وله موعد يصبح فيه دكاء فيموج الناس بعضهم في بعض.
- سابعًا: لم يحدد القرآن زمانًا ولا مكانًا.. بينما في قصة الخضر يمكن تحديد الزمان بحياة سيدنا موسى عليه السلام..وفى قصة الكهف تعددت الأقوال زمانًا ومكانًا.. وقصة صاحب الجنة تكاد كلها أن تكون مثلاً ضربه الله تعالى لنا.. وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ ولنبدأ الآن رحلتنا مع كتب التفسير والتاريخ..

أولاً الاتجاه الفارسى

ولعل أشهر من كتب في هذا الموضوع مولانا أبو الكلام أزاد وكان وزير المعارف في الجمهورية الهندية. وله فيه بحث طويل دعمه بالوثائق التاريخية، وشواهد من كتب اليهود في المجلد الثانى من كتاب، "ترجمان القرآن" وذلك في تفسير سورة الكهف.

ولقد لخص آراءه مولانا أبو الحسن الندوى عند دراسته قصة ذى القرنين في كتاب، " الصراع بين الإيمان والمادية: تأملات في سورة الكهف"[1].

العهد الذى ترجع إليه القصة هو عهد الدولة الأكمينية التى امتد سلطانها على الأرض المحصورة بين وادى السند والبنجاب في شمال غرب الهند شرقا، إلى حدود الإمبراطورية الرومانية غربا.. واستطاعت أن تنزع منها بعض أجزائها الغربية. وازدهرت هذه الدولة ما بين أواسط القرن السادس وأواخر الرابع قبل الميلاد.

وأبرز شخصياتها كورش وهو المعروف في الغرب باسم سيروس، وعند العرب قورش.

---

(١) نشرته: دار القلم: الكويت ط الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م انظر الصفحات ١.. – ١٢٢.
وانظر أيضا: احمد كمال الدين حلمى: ٣٥.. عام من عمر إيران الجزء الاول ص ١٢. – ١٢٥ ط. مؤسسة على جراح الصباح – الكويت ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

وقد بذل قورش جهده في توحيد إيران وضم أقاليمها الشمالية إلى الجنوبية. وقد امتدت فتوحه غربا في آسيا الصغرى إلى شواطئها الغربية، وتراءت له الشمس وهى تغرب فيما هو بحر اليونان حاليا (بين تركيا واليونان) ولعله قد وصل إلى منطقة أزمير الحالية حيث تتعدد الخلجان وأشباه الجزر، والرواسب التى تحملها الأنهار.. فتجعل من المناطق الساحلية عينا حمئة..(وهذا ما يذهب إليه مولانا أبو الكلام أزاد)[1]

واتجهت فتوحه شرقا إلى مكران وبلخ - وما هو وراء النهر الآن - والقبائل هناك أقل حضارة من قاعدة الدولة هى قبائل بدائية غير متحضرة.. قبائل ليس لها ستر من حضارة..

وعاد مرة أخرى إلى بابل حيث شهد اليهود الأسر الذى كان أوقعه بهم ملك بابل(بخت نصر)، ورفع عنهم ما حل بهم.

فامتداد الملك كان شرقا وغربا، وتحركه بين هذه الأقطار، وسيطرته على الدولة مع اتساعها يعطى صورة عن مستواها. تبقى بعد هذا قصة السد. وهذه كما يذهب هذا التفسير كانت في بلاد القوقاز. والذين يعيشون إلى شمالها هم يأجوج ومأجوج، والذين يعيشون جنوبها قبائل مستضعفة، وفى الفجوة التى يتهددها الخطر، أقام السد.

وتسمى الكتابات الأرمينية هذا الجدار، أو هذا السد، منذ القدم باسم "بهاك غورائى" وباسم "كابان غورائى[2]"

ومعنى الكلمتين مضيق أو ممر غورش، وغور هو اسم غورش أو كورش. كما تطلق اللغة الجورجية على هذا المضيق اسم" الباب الحديدى ".

وهناك في المنطقة: سدود أخرى أبرزها جدار "در بند" أو باب الأبواب وهو الذى بناه أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٩ م). وهذا قبيل ظهور الإسلام وبين بناء السدين نحو ألف عام.

(١) احمد كمال الدين حلمى: المرجع السابق ص ١٢٤

(٢) احمد كمال الدين حلمى: المرجع السابق ص ١٢٤

وبعد مصرع قورش عام ٥٢٩ ق.م في إحدى حملاته تولى مقاليد الحكم ابنه الأكبر قمبيز. وكان يحكم بابل في عهد أبيه، وينوب عنه في الحكم عند غيابه، وقد ذكر المؤرخ اليونانى هيرودوت أن قمبيز كان عنيفا وقاسيا ميالا إلى التدمير والبطش، وهو الذى غزا مصر عام ٥٢٥ ق.م، وأهلك إحدى حملاته الكبرى في الصحراء الغربية المصرية.. ولم يعمر طويلا بعد عودته..

بقيت بعد هذا جوانب عن عقيدة قورش، وأسلوبه في الحكم وما يتفق مع النص القرآنى وما لا يتفق. وهذا ما سنتابع القول فيه.

٤٧ـ قورش في أسفار اليهود

جاء ذكر قورش في كتابات اليهود مرتبطا بما ذاقوه في مرحلة الأسر البابلى. وقد ذكروه بمدح وتمجيد.. وننقل هنا سطورًا من أسفار العهد القديم، توضح هذا الاتجاه ففى سفر عزرا (١:١) أن كورش ملك فارس أصدر نداء في السنة الأولى من حكمه بالرجوع بعد أن قضوا سبعين سنة في الأسر البابلى، وأعطاهم مالا يستعينون به على بناء الهيكل في القدس، كما أعطاهم الآنية المقدسة التى كانت فيه عند الغزو البابلى.. ويورد سفر أشعيا مدحا عريضا لقورش ((أنا الرب صانع كل شىء، ناشر السماوات وحدى. باسط الأرض...القائل عن كورش راعى، فكل مسرتى يتمم، ويقول عن أورشليم ستبنى، وللهيكل سيؤسس.. ثم يتابع الإصحاح قوله على لسان الرب عن كورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما.. لأفتح أمامه المصراعين. والأبواب لا تغلق. أنا أسير قدامك، والهضاب أمهد.. ومغاليق الحديد أقصف، وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابىء. (أشعيا ٢٤:٤٤□٢٨ , ١:٤٥□٣)

ذكرت هذه النماذج لأبين مكانة قورش في الفكر اليهودى، ولأمهد لوزن هذه النصوص في ضوء الآيات القرآنية من سورة الكهف.

ويمكن لمزيد من الدراسة العودة إلى أى قاموس للعهد القديم تحت عنوان (كورش) حيث تعطى حصرا بالاصحاحات والأرقام التى وردت فيها أخباره، كذلك ماجاء عن فترة الأسر البابلى.

كانت إذن لقورش ـ ولاتزال ـ مكانته في كل من التاريخ الفارسى القديم، والتاريخ اليهودى.. وهى مكانة وصلت عندهم إلى أن أصبح تاريخه جزءا من أسفارهم المقدسة...

ننتقل بعد هذا إلى الديانة الزرادشتية نفسها، وهى التى كان عليها كورش، لنراها في ضوء القرآن، كما رأينا كورش في ضوء أسفار العهد القديم، وسنرى من ذلك إعجاز القرآن الكريم في الاكتفاء بوصف صاحب القصة أنه: (ذوالقرنين) دون تحديد زمان أو مكان... ثم ذكر أعمالا إلى العبرة أقرب منها إلى مجرد السرد أو التحدى التاريخى، هذا الذى نأى عنه القرآن، وأمر الله رسوله به في قوله عن فتية الكهف، وهو قول ينطبق على التحدى التاريخى كله ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٢٢).

الرأى الأكثر شيوعًا أن زارادشت كان ميلاده في عام ٦٦. ق م.. وكانت دعوته في الوقت الذى ظهرت فيه البوذية في جنوب شرق آسيا، والكونفوشية في الصين، وأشعيا من أنبياء بنى اسرائيل. وتذهب بعض الأقوال إلى أن مولده ـ أى زارادشت ـ كان نحو سنة ألف قبل الميلاد.

وكما اختلف الباحثون في تاريخ ميلاده، اختلفوا في موطن الميلاد.. وأطال زارادشت التأمل فيما حوله، وفى سن العشرين ترك أباه وأمه وزوجته التى اختاراها له، وأخذ يهيم على وجهه يلتمس الحقيقة الدينية، ويبحث عن الاستنارة، ويسائل عنها كل من يلقى.

وفى إحدى جولاته، وهو يبحث عن الحق استمع إلى صوت يقول: أطعم الفقير، قدم إلى الماشية العلف، قدم إلى النار حطبا، أضف إلى الماء رحيقا ثم أمرًا خامسًا توقف عن الاستجابة له، عندما أمره الصوت بعبادة أو تقديس بعض الشياطين.. رأى في الأربعة الأولى خيراً فقام به ورأى في الخامسة شرًا أواختبارًا فتوقف عنده..

وتذكر المصادر اليونانية أن زارادشت ظل صائمًا عن الكلام سبع سنوات معتكفًا في غار.. وفى نحو الثلاثين من عمره جاءه الوحى.. وتذكر الأساطير سلسلة من الرؤى المعجزة عنه.. رأى ملكًا يبلغ تسعة أمثال حجم الانسان وهو

ملاك (الفكر الطيب): (فوهى مانا) وبعد أن اختبره أمره أن يستلقى على الأرض ويدع جسمه الآدمى، وتصعد روحه إلى لقاء (أهورا مزدا). وهو في ديانتهم الكائن الأعلى والخالق الحكيم، ومن حوله ملائكة.. واختفى ظله من الأرض من شدة ضياء الملائكة الذين أحاطوا به، وأوحى إليه "أهورا مزدا"، واصطفاه نبيًا، وتلقى منه شريعة ومناسك دين الحق.. وتوالى حضوره وعروجه والملائكة يعلمونه ست سنوات ومن هذه العهود نقرأ ما قاله زارادشت لربه: إننى عدو حقيقى لكل كاذب سأضع كل قوتى على طريق الحق. وأمضى عمرى أحمدك وأنشد لك... سأقدم الهبات لنارك المقدسة وسأكون على الحق ما بقيت لى القوة...

وبدأ في دعوته بعد أن تلقى الوحى، يدعو ولا يستجيب له أحد عشر سنين وظلت روح الشر تحاول إغراءه، والوسوسة له، ليدع الدين وعبادة "أهورا مازدا". ويسلك سبيل روح الشر.. وصمد زارا، وبعد عشر سنين كسب أول المؤمنين به ابن عمه.. وبدأت تنفتح القلوب: في شرق إيران لدعوته. وآمن به هناك أحد الأمراء وعارضه أنصار الدين القديم، وأفلحوا في إيداعه السجن، ولكنه صمد، واستعاد مكانته بما جرى على يديه من شفاء ومعجزات ووضع الأمير قوته كلها لتأييد دعوته، وتتابع المؤمنون به..

وخلاصة الديانة الزرادشتية: أن الكون من صنع خالق حكيم. هو "أهورا مزدا" الأكبر. والكون في ذاته خير ولكن فيه أيضًا شر. وهذا الشر من صنع الكائن الشرير: أهريمان. وله جنوده الذين يحاربون الخير، وسينتصر الخير في النهاية. ونحن في الدنيا نعيش الصراع بين النور والظلام.

وصفوة قصة الحياة: في البدء كان الخير. والآن صراع بين الخير والشر. وفى النهاية انتصار الخير، وعودتنا جميعًا إليه.

وفى هذه القصة: للإنسان دور أساسى.. وعلى كل إنسان أن يرضى الله، بمزيد من فعل الخير والانتصارعلى قوى الشر والظلام.

ويؤمن المذهب أنه لما كان الله هو الكبير المتعال، فإنه جعل وسطاء من الملائكة بيننا وبينه - ويشبهونهم بالحاشية حول الملك - ويمكن القول إجمالا أن الديانة الزرداشتية تتجه إلى هذه الكائنات العلوية الوسيطة (اليازاد) أكثر من اتجاهها إلى أهورمزدا الأكبر. ولكل من هؤلاء الكائنات العلوية مهمة خاصة

وأكبرهم هو (ميترا) وهو المسئول عن مناسك العبادة وبيوت النار المقدسة. والمعابد التى يؤدون فيها شعائرهم.. حتى أن معابد النار يسمونها (بلاط ميترا) أو (قصور ميترا) ومع ميترا ملائكة أخرى أو كائنات علوية أخرى لكل منهم مهمة: المطر، السفر، الأرض، العدل الخ..

وإلى حد ما، فإن هذه الأرواح أو الكائنات تعكس قوى طبيعية أو تركيبًا منها.. وهى قوى يطلب الإنسان منها الأمن أو العون.

والشر في الزرداشتية ليس مجرد أمر أخلاقى، ولكنه أيضًا أمر يتعلق بالطهارة والرجس. وأطهر العناصر عندهم هى النار وهى رمز النقاء والاستقامة. ولمناسك النار في هذه الملة وضع مركزى.. ومن هذا المنطلق قسموا الظاهرات والحيوانات إلى طاهر ونجس. فالماشية والطيور، كالديك الذى يطرد الظلام والصحة كلها طاهرة وخير. والعطش والفوضى والزواحف شريرة.

والبارسيون وهم الصورة المحدثة للزرادشتية لايدفنون ولايحرقون موتاهم، وإنما يضعونهم فوق ما يسمونها؛ (أبراج الصمت)..عرضة للمطر والطيور الجارحة.. وهى إذا أحرقت تنجست النار.

ويعتقدون أن الميت بعد ثلاثة أيام من بقائه فوق برج الصمت يمر على معبر أو صراط. (شينفاد) وهذا الجسر حاد كالسيف، ويتحول إلى طريق واسع إذا كانت الروح طيبة، وينتهى بالروح الطيبة إلى الفردوس، ولكنه يظل حادًا لاتستطيع الروح الشريرة عبوره وتسقط منه في الجحيم. وبهذا يرتبط في هذه الملة عمل الدنيا بجزاء الآخرة، كما يرتبط المصير العام للإنسانية بمصائر الأفراد وفق أعمالهم[1].

وبعد هذه الرحلة الطويلة مع الزرادشتية ماذا كان موقف الإسلام منها عندما فتح فارس؟. لقد رفع لواء التوحيد الصافى ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ واحترم الإنسان في حياته وموته. واعتبر كل ما خلق الله آيات على وجوده، وهو مسبح له جل وعلا..

---

(1) Ninian Smart: The Long Search ,pp223 24, B.B.e. London, 1977

وتراجعت الزرادشتية أمام أعلام التوحيد، ولجأت إلى مناطق منزوية، أو إلى الهند.. ولازالت منها بقية تحمل اسم البارسيين.. فهل تنطبق هذه الصفات على ذى القرنين كما وصفه القرآن الكريم؟.. هناك بعض التشابه، ولكن الفروق المؤكدة وبخاصة في العقيدة، تستبعد هذا الاتجاه.. فلننظر إلى القول التالى.

٤٨ـ الإسكندر المقدونى في التاريخ وعند اليهود

ذهب بعض المفسرين إلى أن الإسكندر المقدونى هو الأقرب إلى أن يكون ذا القرنين الذى عناه القرآن في سورة الكهف، ويربطون في هذا بين مكانته في التاريخ الإنسانى العام وفى التاريخ اليهودى.

وفى بيان هذا الاتجاه سنرجع إلى ترجمة معانى القرآن وتفسيره لعبد الله يوسف على. وهو من أوسع التفاسير الإنجليزية انتشارًا. وإلى هذا الإتجاه أيضًا ذهب مولانا عبد المجيد الداريابادى في ترجمته وتعليقاته.

كانت ولادة الإسكندر في عام ٣٥٦ ق.م ووفاته عام ٣٢٣ ق.م وبهذا تكون حياته ثلاثة وثلاثين عامًا، تركت على التاريخ الإنسانى في طابعها القوة.

وتصور العملات النقدية الإسكندر ولرأسه قرنان والقرن في العهد القديم رمز القوة. ورفع القرن كناية عن المجد، وكسره كناية عن الهزيمة.

ولقد سيطرت شخصية الإسكندر على مخيلة كثير من الشعوب القديمة، بما حقق من إنجازات غير مسبوقة، وما اجتمع بين يديه من مصادر القوة التى لم تجتمع لغيره. فهو ما لقى الهزيمة في أى معركة خاضها، وما تراجع أمام أى عدو، وإذا اعتبرنا مجال وامتداد عملياته العسكرية، فلن نجد في العالم القديم حتى قيصر، ولا في العالم الحديث حتى نابليون من يرقى إلى المدى العسكرى الذى بلغه الإسكندر في القارات الثلاثة: أوربا وآسيا وإفريقيا في سلسلة من الانتصارات المتوالية بقيادة واحدة في ذلك المدى الزمنى القصير.

ما مغرب الشمس ومطلعها وبين السدين ويأجوج ومأجوج إذا نظرنا إليها في ضوء من تاريخ الإسكندر؟ والقول هنا لعبد الله يوسف على، وقد خصص دراسة مستقلة عن ذلك بعد أن أتم شرح سورة الكهف.

عن مغرب الشمس: لعل المقصود هو بحيرة أوكايدا Ochaida إلى الغرب من المدينة التى تحمل نفس الاسم في جنوب صربيا في يوجوسلافيا الحالية. وتقع هذه المدينة على بعد خمسين ميلا إلى الغرب من موناستيا Monastia وترتفع ٢٢٦٠ قدما عن سطح البحر في منطقة جبلية من الحجر الجيرى. وتغذيها موارد مائية من أنهار جوفية. وتصل مياه البحيرة إلى درجة من السواد يعبر عنها اسم النهر الذى ينبع منها وهو نهر درينا الأسود. وإذا نظرنا إلى غروب الشمس من المدينة بدت كأنها تغرب في عين حمئة..

هذا عن المدى الذى وصل إليه الإسكندر غربًا وكان عادلاً مع القوم الذين يسكنون الأرض.

ولنتابع مسيرته نحو الشرق. ونرى ما كان من أمره في الأرض المباركة.

وتقرأ في سفر دانيال من العهد القديم (٤:١١، ٣) ويقوم ملك جبار ويتسلط تسلطا عظيما، ويفعل حسب إرادته وكقيامته تتكسر مملكته وتتقسم إلى رياح السماء الأربع.

وتذكر دائرة المعارف اليهودية (ص ٣٤١) أن اليهود كانوا وقتئذ الشعب الموحد الوحيد، والذى كان يؤمن بمجىء مسيح منتظر. ولقد تأثر اليهود المعاصرون للإسكندر تأثرًا كبيرًا به، وبهرتهم انتصاراته وأمجاده، ورأوا فيه المخلِّص الموعود الذى يحقق السلام. هذا السلام العالمى الذى بشر به المرسلون من قبل. وقد فصّل المؤرخ يوسيفوس زيارة الإسكندر لبيت المقدس،واستظهر من إماراتها أنه كان موحدا. يقول: عندما دخل الإسكندر الهيكل قدم القرابين للرب حسبما أشار بذلك كبير الكهنة، الذى لقى ومن معه من القائد المنتصر كل إجلال. وعندما عرضوا عليه سفر دانيال ونبوءته بأن أحد اليونانين سوف يدمر إمبراطورية الفرس ظن أنه الرجل الموعود.

وهنا وقفة قصيرة قبل أن نتابع عرض الرأى مع المفسرين عبد الله يوسف على وعبد المجيد الداريابادى.

فقد رأينا في حديث سابق ما لقى اليهود من الفرس أسرا وتحريرا.. وما ذكروه عن مسيح منتظر وقائد مخلِّص من الفرس.. وها نحن نرى مثل هذا عن

اليونانيين انتصارا وانكسارا ومسيحيا ومخلّصا. ففى نصوص العهد القديم مدح وذم لملوك من الفريقين وانتظار مخلّص ومسيح منهما معا.. وإن داولتهما الأيام..

ونعود إلى التفسيرين..

أين مطلع الشمس الذى أدركه ذو القرنين؟ هناك في أواسط آسيا حيث شعوب دون ستر - أو بستر قليل - من ثياب ودور.

أما بين السدين فقد تعددت فيه الآراء. ويرجح المفسر موقعا شرقيا في وسط آسيا. وهو بهذا يرفض الرأى القائل بأن السد في جبال القوقاز أو أنه سورالصين العظيم

السد القرآنى أقرب إلى أن يكون بوابات حديدية منه إلى أن يكون حائطا..وهناك بوابتان حديديتان متباعدتان جغرافيا، اقترحتا ولكل منهما ارتباطها المحلى باسم الإسكندر.. وكلتاهما قرب مدينة تحمل اسم دربند. وكلاهما تحمل اسم باب الحديد.

وقد درس عبد الله يوسف على كلا من البوابتين: وأشهرهما في العصور الحديثة قرب المدينة الميناء دربنت Derbent

وتقع في وسط الشاطئ الغربى لبحر قزوين في إقليم داغستان وهو الآن تحت السيطرة الروسية، وكان قبل التوسع الروسى عام ١٨١٣م يقع في فارس.

فى هذه المنطقه يبرز متن من جبال القوقاز يمتد شمالا نحو البحر. والحائط المقصود بلغ طوله نحو خمسين ميلا وارتفاعه نحو عشرة أمتار(ثلاثين قدما). ولما كانت أذربيجان الفارسية غير بعيدة عن هذا المكان خلط بعض الكتاب بينه وبين الباب الحديدى الذى يتفق مع الوصف القرآنى، والذى يرتبط بقصة الإسكندر المقدونى.

هذا السد قرب مدينة تحمل اسم دربند في وسط آسيا في إقليم حصار Hissar على بعد مائة وخمسين ميلا إلى جنوب شرق مدينة بخارى. هنا أخدود ضيق، تشرف الصخور على جانبيه، ويقع في الطريق الرئيسى بين تركستان والهند(خط عرض ٣٨ شمالا، ٦١ شرقا) ويطلق عليه الآن باللغة التركية يوزول خانة. أى بيت الماعز. وكان يعرف من قبل باسم الباب الحديدى. ولا يوجد باب حديدى فيه الآن.

ولكن هذا الباب رآه الرحالة الصينى هوين تسانجHiunn Tsang في طريقه إلى الهند في القرن السابع الميلادى. لقد رأى بابين مكسوان بالحديد تحملهما حلقات ويمكن تحريكهما لغلق الطريق وغير بعيد منهما بحيرة تحمل اسم الإسكندر، ويربطها السكان بالإسكندر المقدونى. (وقد ورد وصف مفصل لهذاالمكان في الموسوعة البريطانية.مجلد١٣ص٥٢٦ الطبعة ١١)

ويرى عبد الله يوسف على أن يأجوج ومأجوج هم قبائل المغول الساكنون إلى الشمال، وأن قبائل تركية كانت تسكن إلى الجنوب وهى المعرضة للغزو، ومن أجلها أقام الإسكندر هذا الباب الحديدى الذى يحمى القوم من مباغتة الأعداء.. وأن قوله تعالى: ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ راجع إلى طبيعة اللغة. التركية المقطعية، والتى تختلف عن لغات غرب آسيا.

وتلك القبائل المفسدة هم من نسل يافث بن نوح. وأن تعبير((أرض جوج)) يستخدم في اللغات القديمة للدلالة على أرض البرابرة حيث لا حضارة مستقرة ولا نظام إلا الغارات والعنف.

وليس في الآيات دلالة واضحة على ارتباط دك السد بالآخرة فالآية تذكر قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾.. بعض المفسرين ذهب إلى ارتباط هذا بقرب الآخرة. وليس في الآية على هذا دليل.

والربط بينهما وبين قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ هذا الربط أيضا لايقوم عليه دليل.. وإنما هو تشبيه باضطراب هؤلاء وهؤلاء عند انكسار السد بما يحدث- ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ ولهذا الترابط عودة عند شرح الآيات لغويا بعد العرض التاريخى للآراء..

وأكبر نقد يوجه إلى هذا الرأى هو عقيدة الإسكندر نفسها، وإن كان المفسر يدافع عنها. فلا نص على عدم إيمانه بالتوحيد، كذلك لا نص على تحديد الشخصية، وإنما النص على الصفات والأعمال.. فلنقف مع هذا الرأى عند هذا الحد لنتابع عرض الآراء الأخرى.

٤٩ـ ذو القرنين.. هل هو من ملوك الصين؟

يذهب الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير (١٦ : ١٩ –٤٢) إلى أن ذا القرنين كان ملكا من ملوك الصين لوجوه:

١- أن بلاد الصين اشتهر أهلها منذ القدم بأنهم أهل تدبير وصنائع.

٢- أن معظم ملوكهم كانوا أهل عدل وتدبير للمملكة.

٣- أن من سماتهم تطويل شعر رءوسهم وجعلها في ضفيرتين فيظهر وجه تعرفه بذى القرنين.

٤- أن سدًا وردمًا عظيمًا لايعرف له نظير في العالم موجود بين بلاد الصين وبلاد المغول وهو المشهور بالسور العظيم.

وقد ذهب الإمام الطاهر إلى أن السد أنشىء في القرن الثالث قبل الميلاد، فهو متأخر عن الاسكندر بنحو قرن. وأن الصين حينئذ كانت تدين بالكونفوشية. وصاحب هذا الدين مشرع مصلح. فلا جرم أن يكون أهل شريعته صالحين.

ثم يعقب على تاريخ هذا الملك الصينى بأن حالته ساءت في أواخر حكمه وأفسد كثيرا، والله أعلم بالحقيقة وبأسبابها.

وقبل أن يصدر المؤلف هذا الحكم- أو هذا الرأى نقد آراء الذين ذهبوا إلى أن ذا القرنين من ملوك فارس أو اليونان أو اليمن.. فلنسر معه لنرى كيف نفسر مغرب الشمس، ومطلعها، وبين السدين، وبناء السد، ويأجوج ومأجوج..

المراد بمغرب الشمس في الآية الكريمة (مكان) مغرب الشمس من حيث يلوح الغروب من طريق غزوته أومملكته.. إذ ليس للشمس مغرب حقيقى إلا فيما يلوح للتخيل (ولو قال للنظر لكان أقرب) والأشبه أن يكون ذو القرنين قد بلغ بحر الخزر وهو قزوين فإنها غرب بلاد الصين.

وهنا تحفظ نذكره لنعود إليه.. وهو أن معلوماتنا عن الصين في العالم العربى قد زادت كثيرا في السنوات الأخيرة مع زيادة العناية بالتاريخ العالمى منذ مطلع النصف الثانى من القرن العشرين..

وكانت أكثر معلوماتنا مقتصرة على أقطارنا وما حولها.. فالقول بوصول النفوذ الصينى في القرن الثالث قبل الميلاد إلى بحر قزوين يحتاج إلى دليل من تاريخ الصين و وسط آسيا، وهو مالم يرد في النص الذى بين أيدينا.

أما عن العين الحمئة فقال: يظهر أن هذه العين من عيون النفط الواقعة على بحر قزوين حيث مدينة باكو وفيها منابع النفط الآن، ولم يكن معروفا وقتئذ. والمؤرخون المسلمون يسمونها البلاد المنتنة..

أما مطلع الشمس: فهو جهة المشرق من سلطانه ومملكته، بلغ جهة قاصية من الشرق حيث يقال أن لا عمران وراءها. والظاهر أنه بلغ ساحل بحر اليابان في حدود منشوريا أو كوريا شرقا، فوجد قوما تطلع عليهم الشمس لا يسترهم من حرها، أى لاجبل فيها يستظلون بظله ولا شجر فيها، فهى أرض مكشوفة للشمس. ويجوز أن يكون المعنى أنهم كانوا قوما عراة، فكانوا يتقون الشمس في الكهوف أو في أسراب يتخذونها في التراب فالمراد بالستر ما يستر الجسد.

أما عن السد قال: السد - بضم السين وفتحها - الجبل. ويطلق أيضا على الجدار الفاصل، لأنه يسد به الفضاء. والمراد بالسدين هنا الجبلان. ويظهر أن هذا السبب - أوالطريق - اتجه به إلى غير المغرب والمشرق، وقد تكون شمالا أو جنوبا. وهو يرجح الشمال وأن موضع السدين هو الشمال الغربى لصحراء (جوبى) الفاصلة بين الصين وبلاد المغول. وقد وجد السد هناك و لاتزال آثاره باقية إلى اليوم. والمؤلف يقصد هنا سور الصين العظيم.

ولهؤلاء القوم لغة لم تكن مفهومة للملك لانقطاع أصقاعهم أو لعل في هذا إشارة إلى بداوتهم. وكأن الفقه هنا هو حسن الفهم.

ويأجوج ومأجوج أمة كثيرة العدد. أو أمة من شعبين كالمغول وبعض صنوف التتار. وهذا هو الذى يرجحه المؤلف. كما يرجح أن إنطلاق يأجوج ومأجوج هو انطلاق المغول والتتار على العالم الإسلامى وكان من آثاره اكتساح الدولة الخوارزمية وسقوط بغداد وانتهاء الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م.

ويفرق بين السد والردم فيقول: ﴿ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ فإنه لاح له أنه إن سد عليهم المرور من بين الصدفين تحيلوا فتسلقوا الجبال ودخلوا بلاد الصين،

فأراد أن يبنى سورًا ممتدًا على الجبال في طول حدود البلاد حتى يتعذر عليهم تسلق تلك الجبال، ولذلك سماه ردما. والردم: البناء المردم. شبه بالثوب المردم المؤتلف من رقاع فوق رقاع، أى سدًا مضاعفًا. ولعله بنى جدارين متباعدين وردم الفراغ الذى بينهما بالتراب المخلوط ليتعذر نقبه.

وقد بنى ذو القرنين سلطان الصين هذا الردم بناء عجيبًا في القرن الثالث قبل الميلاد، وكان يعمل فيه ملايين من الخدمة. فجعل طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة كيلو مترا. وجعل مبدأه عند البحر (أى المحيط الهادى) ويتجه بعد هذا غربا بانحرافات تقتضيها ظروف البيئة الطبيعية و توزيعات السكان.

وهو مبنى بالحجارة والآخر وبعضه من الطين. وسمكه عند أسفله نحو ثمانية أمتار، وعند أعلاه نحو خمسة، ويتراوح ارتفاعه بين خمسة وسبعة أمتار، وترتفع أبراجه نحو خمسة عشر مترا وبينها مسافات نحو سبعين مترا. وليس للسور الآن قيمة دفاعية ولم تبق له إلا مكانته التاريخية، وقد أخذت الصين في عمارته كأثر حضارى ومعلم سياحى.

أما عن استخدام الحديد والنحاس فيقول المفسر: كأن القصد إقامة أبواب من حديد في مداخل الردم لمرور سيول الماء في شعب الجبل حتى لاينهدم البناء، بأن جعل الأبواب الحديدية كالشبابيك تمنع مرور الناس، ولا تمنع انسياب الماء من بين قضبها. وجعل قضبان الحديد معضودة بالنحاس المذاب المصبوب على الحديد.

والصدف جانب الجبل. وهما جانبا الجبلين وهما السدان. ولايقال إلا صدفان بالتثنية. ولا يقال لأحدهما صدف، لأن أحدهما يصادف الآخر فالصدفان اسم لمجموع الجانبين مثل المقصات لما يقطع به الثوب ونحوه. ومن تفسير الصدف أنه كل بناء عظيم مرتفع.

وعن ختام القصة يقول المفسر بعد انتهاء البناء:

جملة ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًا لأنه لما آذن الكلام بانتهاء، كان هذا مثيرا سؤال من يسأل: ماذا صدر عن ذى القرنين حين أتم هذا العمل العظيم؟ فيجاب جملة: ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾

فالسد رحمة للناس لما فيه من رد فساد أمة يأجوج ومأجوج عن أمة أخرى صا لحة.

وفرع عليه ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ نطقا بالحكمة، لأنه يعلم أن كل حادث صائر إلى زوال. ولأنه علم أن عملاً عظيمًا مثل ذلك يحتاج إلى التعهد والمحافظة عليه من الانهدام، وعلم أن ذلك لا يتسنى في بعض أزمان انحطاط المملكة الذى لامحيص عنه لكل ذى سلطان.

وقوله تعالى: ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾.. الدكاء اسم للناقة التى لاسنام لها، وذلك على التشبيه البليغ. وجملة ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ تذييل للعلم بأنه لا بد له من أجل ينتهى إليه لقوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ و ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أى وكان تأجيل الله الأشياء حقا ثابتا لا يتخلف.

ويذهب المفسر في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ أى جعلنا يأجوج ومأجوج يومئذ مضطربين بينهم فصار فسادهم قاصراً عليهم. ودفع عن غيرهم لأنهم إذا لم يجدوا ما اعتادوه من غزو الأمم المجاورة لهم رجع قويهم على ضعيفهم بالاعتداء:

والنـــــار تأكـــــل نفـــــسها　　　إن لم تجـــــد مـــــا تأكلـــــه

وكأن المؤلف هنا يذهب إلى أن بناء السد سيعصم المستضعفين الذين تقووا به و بالعمل مع القائد المؤمن.. فانقلب الغزاة على أنفسهم يأكل بعضهم بعضا..

هذه خلاصة ما ذهب إليه الشيخ الطاهر في تفسيره..

وعلى هذا المذهب تعقيب، نكتفى الآن منه بأن سور الصين العظيم إن يكن بإشراف حاكم واحد فقد كان بين أمة متقدمة هى الصين وقبائل أقل حضارة في الشمال. وأن بناء السد أرهق أهل الصين هو وحفر القنوات وقتئذ مما أدى إلى ثورة شعبية وذهبت أسرة وجاءت أسرة..

المدى بين المشروعين كبير، والوثائق الصينية فيها تفصيل نرجو أن يلقى الضوء على هذا الأمر لنخلص بعد هذا إلى الشرح في حدود الآيات الكريمة.

٥٠ – نقد الآراء في تحديد ذى القرنين في ضوء القرآن

بقى رأى رابع رجحه أبو الريحان البيرونى(٤٤٠هـ) في كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية" بعد دراسة مقارنة وهو من الآراء التى نقلها الفخر الرازى في تفسير (١١: ١٦٥).

ويرى أن ذى القرنين من ملوك حمير (وهو أبو كرب شَمَّرُ يرعشُ بن إفريقش الحِمّيَرى) وسمى بذلك لذؤابتين كانتا تنوسان على عاتقيه وأنه بلغ مشارق الأرض ومغاربها وجاب شمالها وجنوبها ودوخ البلاد وأذل العباد وهو الذى افتخر به أحد الشعراء من حمير فقال:

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما ... ملكا علا في الأرض غير مفند
بلغا المشارق والمغارب يبتغ ... أسباب ملك من كريم سيد

ثم قال أبو الريحان ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن،وهم الذين لاتخلو أساميهم من ذى كذا.. وذى نواس وغير ذلك.[1]

ومن عرض الآراء ننتقل إلى نقدها نقدا تحليليا،ونقصد به تفكيك ناقص الأحداث و وزنها بالميزان القرآنى و هو الأساس في هذه الدراسة.

ونبدأ بالرأى الأخير، وهو أنه من ملوك حِمّيَر والأدلة أربعة: الأسم: ذو القرنين والسد وامتداد الملك وأبيات من الشعر تدل على قبول قومه ذلك.

وللاسم أكثر من تفسير فلا يستقيم وحده دليلا، والسد لا تنطبق مواصفاته. وامتداد الملك أمر مشترك، وكذلك أبيات الشعر.. وما وراء ذلك من تفاصيل القصة: إيمانًا بالله وعدلاً بين الناس وحوارًا مع أقوام في مطلع الشمس ومغربها..كل أولئك لا نجد له مكانًا في هذا الرأى. ولقد كان أبو الريحان متحفظًا في قوله (ويشبه أن يكون هذا الرأى أقرب).

صحيح أن اليمن تشتهر بالسدود والجسور وأبرزها سد مأرب.. ولكن مواصفات السد القرآنى ووصف مغرب الشمس ومطلعها مما لايتفق مع معطيات التاريخ العربى في اليمن والسد الذى وصفه البيرونى كان في وسط آسيا وقد

---

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيرونى ص ٣٦ – ٤٢

شك فيه أيضا[1]، فكفة التباين بين النص القرآنى وهذا الرأى أرجح من كفة التشابه، مما تقوى به حجة الذين استبعدوه وهم كثير..

ننتقل إلى رأى الإمام الطاهر بن عاشور. وما يذهب إليه من التفسير الصينى.. وسيحملنا هذا إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وإلى أسرة تشين (التى كانت تحكم الصين وقتئذ).. ماذا تقول الوثائق الصينية عن أقوى شخصياتها وإليه يرجع بناء السد وإقامة الدولة..؟

لنبدأ بالخيط الأول الذى شد الانتباه نحو هذا الرأى. إن سور الصين العظيم أشهر أسوار الدنيا.. وإلى جنوبه منطقة حضارة وإلى شماله منطقة قبائل رعوية أو متبربرة.. أو مفسدون في الأرض.

وحول هذا السد قام نسيج الرأى القائل بأن ذا القرنين من الصين وأن له علاقة بالسد..

والحديث عن الصين ينقلنا من مجال الأسطورة إلى مجال التاريخ، أقصد من شخصية لا سند لها من التاريخ ولا تحديد لها إلا الإطار العام الذى بيَّنه القرآن، إلى مجال تحدده الوثائق والوقائع..

ولنتوسع قليلا لنقول: إن تاريخ الصين على امتداده الطويل واتصاله تميزه ثلاث ثورات أساسية في نظامه وبنائه السياسى والاجتماعى.

كانت الأولى عام ٢٢١ ق.م وقد أنهت النظام الاقطاعى وأقامت الدولة المركزية، وكانت الثانية عام ١٩١١ وقد أنهت النظام الامبراطورى وأقامت الجمهورية، بينما الثالثة عام ١٩٤٩ وبها قام نظامها الشيوعى بصبغته الخاصة وتطوره المستقل وخصوصيته الحضارية.

وتعنينا هنا الثورة الأولى لأنها المرتبطة بالسور العظيم

قامت نواة هذا العهد في الركن الشمالى الغربى من الصين الحالية (فى حوض نهر WEI) حيث منطقة حصينة يسهل الدفاع عنها، وأخذ حكام الشين

---

(١) نفس المرجع ص٤١، ٤٢

يتوسعون شرقا دون خوف من أى هجوم غربى. وكانت قواتهم دائما على قدم الاستعداد لمحاربة برابرة الشمال.

وكان الشين من أول أهل الصين الذين استخدموا الأسلحة الحديدية بدلا من البرونزية، والفرسان بدلا من عربات الحرب التى تجرها الخيل واستطاع حكام الشين الاستيلاء على الولايات الأخرى واحدة بعد واحدة حتى أطلق عليهم معاصروهم اسم "وحش الشين البرى" وشبهوا توسعهم الذى لا تراجع فيه بدودة الحرير في التهامها ورقة التوت. وفى سنه ٢٢١ ق.م تم لهم السيطرة على الصين كلها، واتخذ القائد لقب، شيه هوانج تى Shi Huang-ti ومعناها الأمبراطور الأول، على أن يكون خليفته الامبراطور الثانى هكذا - كما قالوا إلى عشرة آلاف سنة ومعناها إلى الأبد.

ووضع الإمبراطور الجديد نظامًا وقانونًا يطبق على الصين كلها. وألغى جميع الولايات الإقطاعية والممالك. واعتبر مملكته وحدة لها أقسامها الإدارية، لكل منها جهازها الإدارى الذى تعينه السلطة المركزية وتراقب أعماله وهو مسئول أمامها. ونزع سلاح جميع المحاربين إلا جيشه. وأجبر الأسر الحاكمة القديمة على الإقامة في العاصمة تحت رقابته، ووزع حامياته وقواته العسكرية في كل مكان، وفرض نظامًا اقتصاديًا مركزيًا، حدد فيه الموازين والمقاييس والعملات.

كما وضع النظام الموحد للكتابة الصينية، بحيث يستطيع أن يفهمه أى صينى ومن طبيعة هذه الكتابة أنها لا تعتمد على عدد قليل من العلامات التى تعبر عن نطق معين. ولكنها تتكون من عدد كبير من الرموز، التى يبين كل منها شيئًا أو فكرة، وهو نفس الأمر المستخدم في الأرقام في لغاتنا.حين نكتب خمسة مثلاً ونضع رمزها يستطيع أصحاب اللغات المختلفة إدراكه، وإن أعطاه كل منهم في لغته نطقًا خاصًا..

هذه التغيرات الجوهرية التى قامت بها أسرة تشين، أصابت مصالح الكثيرين بالضرر، وأثارت موجات من الاعتراض، وبخاصة بين المثقفين. فماذا كان من أمر الامبراطور الأول - والذى أقام السور العظيم بعد ذلك؟

لقد أصدر أمره بإحراق الكتب، وأشعل النار في التراث القديم، إلا ما يتصل بفائدة عملية، كالطب والزراعة والعقيدة وفشلت الحملة لأن المثقفين

أخفوا كتبهم، مع ما يعرضهم هذا له من عقاب، وحفظ آخرون متون الكتب عن ظهر قلب قبل أن يسلموها إلى الحكومة، وأخيرا.. و بعد سقوط تلك الأسرة عاد أغلب هذه الكتب إلى الظهور من مخابئها أو من صدور الرجال. و قد ألقى هذا الإرهاب الفكرى بستار كثيف على الثقافة الصينية وعهدها الذهبى في أسرة تشو التى سبقت الشين.

تبقى قضية السور العظيم..حقا لقد تقدم الاقتصاد الصينى.. وامتدت شبكة من الطرق تنطلق من العاصمة إلى أطراف الصين. وحدد الامبراطور حتى المسافة بين العجلات في عربات النقل، حتى لا تفسد الطرق. وهاجم القبائل الرعوية في الشمال. ولكى يتقى شرهم بنى السور العظيم، ويمتد نحو ألف وأربعمائة ميل من قلب منغوليا إلى المحيط، وكانت الخسائر البشرية رهيبة في هذا المشروع حتى أنه الآن، وبعد مرور ألفى عام على إنشائه. لازال الصينيون يتحدثون عن مليون من العمال ذهبوا ضحية هذا المشروع وأن كل حجر دخل بناء السور كان ثمنه حياة إنسان. وكما لعن المثقفون الإمبراطور لإحراق الكتب، لعنه الشعب لبناء السور العظيم.

ومن انتشار المعارضة - ولها جذورها الفكرية والإنسانية - رغم التقدم الاقتصادى وتوحيد الدولة، ولحاجة الإمبراطورية إلى شخصية قوية تخلف الإمبرطور.. قامت الثورة العامة ضد أسرة تشين في عام ٢,٧ قبل الميلاد وذلك بعد أربعة سنوات من وفاة الإمبراطورالأول.

ومع أن حكم الشين كان قصيرا، فإنه ترك أثرا عميقا في التاريخ الصينى، نقل البلاد من مجموعة مفككة من الحكومات الإقطاعية إلى نظام مركزى ظل مستمرا إلى القرن العشرين، وإن الاسم الذى عُرفت به الصين في العالم الخارجى هو اسم هذه الاسرة(1)

وواضح من هذا العرض أن نظام الحكم كان استبداديا مركزيا. وأن يكن نابعا من رغبة القاعدة ولا بمشاركة طوعية منها وإنما هو

(1) Stavrianos ,L.S: THE world to 1500,Aglobal history, pp.145-147

أمر وقهر وضحايا لا يستقيم معها بناء السد كما جاء في كتاب الله: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾.

ولو انتقلنا إلى الجانب العقائدى والفكرى نرى فيه جانب القهر أيضا.

صحيح أن الكونفوشية - دين الصين - تدعو الحاكم إلى الفضائل الخمس: التماسك والعدل والوفاء لوطنه والإباء والمودة.

إلا أن أكثر عنايتها بالأرض والحياة ومن نصوصهم ((إذا كنت لاتعرف كيف تعيش فكيف تعرف مابعد الموت؟))

ولكن عقيدة التوحيد كما يوضحها القرآن لا تنطبق عليها الكونفوشية التى كانت دين القوم وقتئذ..

ولا نملك إزاء ذلك إلا استبعاد هذا الرأى الذى يقول: بأن ذا القرنين أحد ملوك الصين فلننظر مرة أخرى إلى الرأيين الفارسى واليونانى.

٥١- عودة إلى الرأيين الفارسى واليونانى

نعود إلى الرأيين اللذين يذهب أحدهما إلى القول بأن ذا القرنين هو قورش الفارسى، والثانى إلى أنه الاسكندر المقدونى.. وهما أقوى الرأيين في هذا الأمر.

وتستند قوة كل منها إلى أمور مشتركة بينهما، ولها سندها من التاريخ.

- أولاً: كان لكل من القائدين قاعدة حكم وامتداد شرقى وغربى.
- ثانيًا: كلاهما مؤسس كان يحترم الآخرين في ديارهم وعقائدهم. وله أساس أخلاقى يقيم عليه حياته.
- ثالثًا: لكل منهما صلة بالتاريخ اليهودى وهذه الصلة مسجلة وموثقة في العهد القديم وهى صلات إيجابية يذكرها العهد القديم بالإجلال ويعتبر كلاً منهما مخلصًا، رفع عن القوم الكثير من العنت.

ولقد كان من السؤال الذى رجع به وفد قريش، بعد لقائه أحبار اليهود في المدينة: سلوه عن.. رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبؤه ؟

ألا ترى أن في السؤال تعميما ينطبق على أكثر من رجل؟ لم يذكر التحدى أنه كان ملكا ولاحاكما.. وما ذكر شيئا عما لقي في مشارق الأرض ولا في مغاربها وما ذكر شيئا عن السد، والقوم الذين لا يكادون يفقهون قولا.. ولا عن يأجوج ومأجوج..

لقد جاء ذكر الرجل وصفا لا تحديدًا ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ وقد رأينا أن هذا الوصف ينطبق تاريخيا على أكثر من رجل ترك طابعه على التاريخ اليهودى والتاريخ الإنسانى وأن شارة القرنين وصلت حتى إلى أنبياء بنى إسرائيل.

من أجل هذا كان التفكير في التحديد. وله نظائره في مواطن أخرى من سورة الكهف..

يكفى أن نرجع إلى قول الله تعالى:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٢٢) ألم يكن يغنى عن هذا كله ذكر العدد؟.

لعل الحكمة في هذا، ألا يتبع الرسول والذين معه، منهج أحبار اليهود في تقصى التفاصيل، التى تصرف النظر عن العبر الكبرى في القصة. فالقرآن ليس كتاب تنافس تاريخى، ولاتكاثر في المعلومات يقول الأحبار ويسألون، ويجيب القرآن على تحدياتهم، وإنما أجاب القرآن إجابة تتجاوز أسئلتهم إلى الأهداف الكبرى للهداية، ذكر تفاصيل في قصة الكهف، هى إلى العبرة أقرب، وتجاوز أمورا لا تخدم العبرة.

كذلك في قصة ذى القرنين، لم تكن الإجابة بحجم السؤال، وإنما شملت أمورا غير طواف المشرق والمغرب، وكان عندها أطول الوقوف، وهى قصة السد: حوارا و إنشاء و هدفا، و من قبلها حوار آخر في مغرب الشمس، هذا إلى أوصاف قوم المشرق، وطبيعة أرض المغرب.

ألا ترى أن القرآن الكريم في وقفاته الثلاث، مشرقا ومغربا، وبين السدين، اختار من كل وقفة مشهدا محددا غير المشهد الآخر؟ وأن المشاهد جميعا تتجه إلى أهداف القصة، وتتجاوز مجرد التحدى إلى بناء الحياة الجديدة؟

من أجل ذلك يمكن أن تتعدد الآراء في تفسير هذا النص القرآنى، وأن يكون في كل منها جانب أو أكثر من جوانب التطابق، دون أن يصل إلى التطابق الكامل.

ثم إنك إذا عدت إلى العهد القديم، وجدت أكثر من شخصية يستطيع اليهود أن يقولوا، وأن يشجعوا قريشا على مجادلة الرسول بأنهم قصدوا كذا، ولم يقصدوا كذا، وعن هذا نأى القرآن أيضا، حين اكتفى بقوله ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ دون أن يذكر الاسم.

أمر آخر:

إذا كان الوصف ينطبق على أكثر من شخص - ونقصد الوصف العام المتعلق بالطواف وبلوغ مشارق الأرض ومغاربها، فقد يكون في تحديد الرجل تكريما لفريقه وقومه وأعماله، بينما لأعماله نظائر سبقت أو لحقت، قام بها رجل أو رجال من قوم آخرين..

وفى التعميم هنا تكريم للعمل ذاته، دون تكريم شخص بعينه..

ألا ترى هذا أيضا في قصة موسى والعبد الصالح.. دون ذكر اسمه، ولا تحديد مكان "مجمع البحرين" ولا قوم الرجل أو قبيلته.. ؟

هذا وقد سجل القرآن أن أهل الكتاب اختلفوا من بينهم في أمور وصلت حتى إلى العقائد، وعلاقة الألوهية والبشرية، واختلفوا في مكانة الملائكة، وبين القرآن والعهد القديم تباين كبير في قصص الأنبياء.

ولقد نأى النص القرآنى عن هذا الخلاف كله، وحدد لنا الخط الذى نتبعه:

﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ وتبين أن القضية المحورية هى الإيمان بالله تعالى، ومنها تنبثق كل القضايا الأخرى:

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٩)

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (البقرة ١٤٥ – ١٤٧).

ذكرت هذه الشواهد الثلاثة: أولها من سورة الكهف وهى مكية. والقول في مجادلة أهل الكتاب وقريش فيها موجز، وكان رجال قريش نقلة للأسئلة والتحدى بين اليهود والرسول، والشاهدان الثانى والثالث من سورة البقرة،وهى مدنية، وفيها مواجهة بين الرسول ويهود المدينة، وفى المواجهة يلقى الأضواء القوية على أساليبهم، يراهم ويرونه، ويغشون مجلسه، ويغشى ناديهم.

والعالم القديم فيه عدل وظلم، وقادة يهدون بالحق، وبه يعدلون، وقادة ظلمة باطشون، وقادة توسعوا في الفتح، ومناطق متعددة أنشئت فيها سدود، إما لأغراض اقتصادية كحجز الماء، أو لأغراض أمنية كحجز البشر المفسدين. وأنت واجدٌ سدودا متنوعة في اليمن والقوقاز، ووسط آسيا وعالم البحر المتوسط، والهند والشرق الأقصى.

وباب الأسئلة التفصيلبة إذا فتح، فليس من اليسير إغلاقه، وفى قصة البقرة والسؤال عنها، ثم عن لونها، وماهيتها، بعد أن تشابه البقر، تعطى صورة من فكر القوم في التقصى الذى لا طائل وراءه، ولقد كان يكفيهم من أول الأمر أن يذبحوا أى بقرة..

وعن هذا الاتجاه أيضا نأى النص القرآنى الكريم.

تبقى بعد هذا قضية العقيدة، وهى القاسم المشترك في المشاهد الثلاثة، وفى قاعدة الحكم، وهى التى تراها في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ و﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ و ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾

وتحديد الأسم يقتضى شهادة القرآن بسلامة العقيدة، ولاتزال قضية عقائد الأسماء المقترحة: قورش من فارس والإسكندر من اليونان، ومن الصين الأمبراطور الأول.. لاتزال هذه القضية من أبرز نقاط الضعف ا لتى تقابلها جميع المقترحات.

ولقد حاول الذين ذهبوا إلى هذه الآراء الدفاع، عن عقائد هؤلاء القادة.. ولكننا نجد أمامنا ثلاثة مذاهب واضحة القسمات: الكونفوشية في الصين، والزرادشتية في فارس، وتعدد وتجسد الآلهة في الفكر اليونانى وإن كان لهم كبير هو أيضا متجسد، وبين آلهتهم صراع كأنما نقل القوم مشكلات الأرض إلى السماء. واعتبروا حياة الآلهة عندهم صورة لصراعات الأرض وإن كانت على مستوى أرفع وهى جميعا آلهة أسطورية.

من أجل هذا كله لانملك بعد هذه الرحلة من أقصى الشرق في الصين إلى اليونان غربا مرورا بفارس بينهما واليمن جنوبا، لا نملك إلا أن نقف عند النص القرآنى، نحاول تعمق ما فيه من العبر..

ذلك لأن قصة ذى القرنين قد نقلها القرآن - كما سبق القول - من مستوى التحدى العلمى والتاريخى، إلى مستوى العبرة، الذى يلقى الأضواء على جوانب من حياة القادة والشعوب والتعامل بينهما، ومقابلة تحديات الحاضر بمشروعات تمتد إلى المستقبل.. ومهما كان امتدادها فإلى حين..

والآن إلى النص القرآنى دراسة وعبرة لعلها أن تكون عونا على مواجهة الحاضر و بناء المستقبل.

٥٢ – حتى إذا بلغ مغرب الشمس

نعود إلى قول الله تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ (الكهف: ٨٣ – ٨٥).

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

ونستطيع أن نفهم التمكين في الإطار العام للقضية.. لم يكن تمكينا سلبيا، ذو القرنين فيه هو المتلقى والمستقبل، دون عمل إيجابى، فالقصة مليئة بالحركة شرقا وغربا وبين السدين، متنوعة في الإنجازات ما بين الحوار العقلى والعدل والحساب والمؤاخذة، والتعاون في المشروعات.

فصورة التمكين القرآنى لقاء بين ما يوفره. الله لعباده من إمكانات طبيعية وبشرية، وبين الجهود والمبادرات التى يقوم بها القادة والشعوب وهذه الجهود تتعلق بالأهداف والوسائل معا، وفيها الاستمرار الذى يحمله إلى النفس قوله تعالى(فَأَتْبَعَ سَبَبًا) وفيها النشاط والقدرة على الحركة الواعية التى لا يصلح معها ترهل فكرى أوجسمى، أو ترف أو لامبالاة. هذه هى الصورة الأولى التى يرسمها النص القرآنى لذى القرنين فلتتقدم معه خطوة أخرى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ (الكهف: ٨٦ – ٨٩)

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾

يقول الفخر الرازى: ولنذكر أن حياته كانت بين عامى ٥٤٤ – ٦٠٤ هـ إنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة. وأن السماء محيطة بها. و لاشك أن الشمس في الفلك.. وأن ذا القرنين بلغ موضعا في المغرب لم يبق بعده شئ من العمارات و وجد الشمس كأنها تغرب في عين مظلمة و إن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر. إذا لم ير الشط وهى في الحقيقة تغيب وراء البحر. هذا هو التأويل الذى ذكره أبو على الجبائى في تفسيره(الرازى ١١: ١٦٧- ١٦٨)

فالقول بكروية الأرض كان متناقلا بين المفسرين في تلك القرون. وكان الذى يقول بذلك في العالم الغربى وقتئذ.. كأنه عارض النصوص المقدسة..

لقد أخذ المفسر بالرؤية المباشرة.. بالمشهد الذى رآه ذو القرنين وكل مشاهد يرى للشمس غروبا مختلفا: منهم من يراها تغرب في البحر، أو وراء الجبل، أو وراء النخيل، أو وراء الأفق إذا انبسطت أمامه الأرض.. وكما تتعدد المغارب مكانا تتعدد مشاهد..

ومن الممكن أن يمتد النص ويتسع ليشمل معنى تقتضيه الرؤية النظرية، ثم معنى آخر يقتضيه ما أثبته العلم إثباتا قاطع الدلالة..مثال ذلك الأرض في امتدادها وانبساطها الذى تراه العين والاستدارة التى يحملها قول الله تعالى:

﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ (الزمر: ٥)

لفظ يكور يحمل معانى التتابع، وهو الذى كان معروفا عند نزول القرآن، ويحمل معنى الاستدارة الذى كشف عنه العلم، دون تعارض بين التفسيرين، وإنما امتداد: كأن اللفظ نقطة مركزية، والتفسيرات المتعاقبة دوائر حولها، تأخذ في الاتساع، كل منها تصور مرحلة من مراحل علم الإنسانية. وصدق الله العظيم:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣).

نأتى إلى قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ أى عند الموقع الذى بدأ غروب الشمس فيه.. وعلامته في هذا المكان بالذات، أن يبدو الغروب كأنه في عين حمئة وهو عمليا وعلميا إذا أدرك هذا المكان.. كان له مغرب آخر أكثر منه بعدا. وقوما.. هنا منكرة.. لم تتحدد لهم صفة من علم أو جهل، ولا من طاعة أو معصية، ثم قال الله تعالى:

﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾

ولكن ألا يحمل التخيير وجود شواهد تبرر كلا من التعذيب والإحسان؟ لعل هذا هو الأقرب، وبه تتحدد جوانب من شخصية هذا القائد المؤمن.

ونستحضر هنا من القرآن موقفين قريبين نذكرهما:

الأول: ما كان بين يوسف وإخوته، وقصة صواع الملك الذى كان في رحل الأخ الأصغر..

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ (يوسف: ٧٨ – ٧٩)

ونقف طويلا عند هذا النص القرآنى ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾

فلم يعامل يوسف الإخوة جميعا على قدم المساواة، وأبى أن يستبدل أخا بأخ، أو يأخذ رهينة بدل الأخ الأصغر وذلك بعد أن أشهد الإخوة على أنفسهم قائلين في الحوار الذى دار بينهم وبين رجال يوسف: ﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ

﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٧٥) (يوسف: ٧٤ ـ ٧٥).

أذكر هذا، وأذكر العسف والجبروت الذى يلقاه الأحرار في عهود الظلم، والمطالبون بالحرية وهم تحت قهر الاستعمار الاستيطانى والأبرياء وهم تحت وطأة العقوبات الجماعية التى لا تفرق بين صغير وكبير، ولا بين إمرة ورجل وشيخ كبير.

والأمثلة أمامنا في الأرض المحتلة في فلسطين، وفى جنوب إفريقية حيث الظلم الجماعى، والعقوبات الجماعية، والقهر دون تمييز.. ولا هدف إلا التخلص من السكان وإخلاء الأرض لمستعمرين جدد..

وفى غير هذين القطرين أعرف ديارا يرفع بعضها أعلام العدل والإسلام والديموقراطية يتمنى أهلها أن يعيشوا في ظل الآية الكريمة:

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾

أو في ظل الآية الكريمة:

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

ولازلت أذكر تعقيب صديق عزيز سبق إلى الله وهو يقرأ هذه الآيات ويستعيد ذكريات حزينة:

جاءوا إلى الدار، ولم يجدوا الشخص المقصود فأخذوا إخوته وأباه الشيخ الكبير.. ودمروا البيت وهم يبحثون عن أى شئ، وأساءوا إلى النساء والبنات سبا وخرجوا وهم يقولون إذا أراد ابنكم فداء أهله، فهو يعرف الطريق إلينا..

* * *

وهناك موقف تخيير ثان جاء في القرآن عن الأسرى، فللقائد المن عليهم أو الفداء حسبما يرى من المصلحة.

والطريق الذى اختاره ذو القرنين أن وضع القاعدة السليمة، موضع التنفيذ. لم يطبق على الجميع حكما واحدا جماعيا وإنما ربط العمل بالجزاء على مستوى فردى:

﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ هذا أمر الخطاة الظالمين.

أما أمر الصالحين فقال عنهم:

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

ويأتى الجزاء هنا مثوبة على عمل، وقولا طيبا يوضح الجو الذى يتم فيه الجزاء.

ويلفتنا هذا إلى أن الأمر ليس تعاملا كأنه مع آلة حاسبة ولكنه تعامل إنسانى فيه العدل وفيه الإحسان. فيه الحق والكلمة الطيبة ولعل المقصود من الكلمة الميسورة، ما يكلفهم به من متابعة العمل الطيب، إحسانا لقومهم وأداء لحق الله في مالهم ومتابعة الطريق الطيب الذى سلكوه، ولم يصرفهم عنه ظلم الظالمين ولا إغراء أهل السوء..

وبعد أن أقام ذو القرنين ميزان العدل والخير بين القوم تهيأ لمرحلة جديدة من قصته..

فلنتجه معه إلى مطلع الشمس..

٥٣ـ مطلع الشمس وبين السدين

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ (٩٠ـ ٩٢)

وهذه رحلة إلى مطلع الشمس.. إلى الشرق، أقصى ملك ذى القرنين شرقا. وهذا التصوير يحمل أكثر من معنى:

- أولا: لا ستر لهم من الغطاء الصخرى كالجبال والكهوف.
- ثانيا: لا ستر لهم من الغطاء البنائى كالغابات والأحراج.
- ثالثا: لا ستر لهم مما يلبسون..

ولعل التفسير الثانى أو الأول أقرب.. وكأن الأرض ممتدة وراءهم شرقا، فإذا طلعت عليهم الشمس لم يجد بينهم وبينها ستر من ظاهرات الصخور أو الكهوف أوالنباتات.

ويقابل هذا الوصف العين الحمئة التى رآها في المغرب.

نقف قليلا عند قول الله تعالى (كَذَٰلِكَ).

ما المقصود منها؟

أولا: قد يكون: كذلك رأى سكانها، كمن لقيهم عند مغرب الشمس، ينطبق عليهم تخيير الله لذى القرنين ﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ وأن موقف ذى القرنين كان الإحسان إلى المحسن، ومجازاة المسىء.

ثانيا: وقد يكون المقصود: وكذلك أمر ذى القرنين كما نقص عليك، ونظيره قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أى أنه فيما آتاه الله من نعمة، وفيما يختبره به من عمل، وفى استقامته على أمر الله شرقا وغربا، بحيث يحمل ميزان العدل حيث يسير ذوالقرنين في كل هذا قد أحاط الله به علما..

ثم يقول تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾

ولقد سبق القول أن موضع ((بين السدين)) مما تعددت فيه الآراء، وكثرت محاولات الكشف عنه، والرحلات إلى المواطن التى تردد القول بأن فيها سدودا تشبه من قريب أو بعيد ماجاء في الوصف القرآنى.

ولا تكاد تخرج هذة الأقوال - أو على الأصح - أرجح هذه الأقوال عن وسط آسيا وجبال القوقاز

ونقف هنا قليلا مع أبى الريحان البيرونى بعقليته العلمية الناقدة فى كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية"..

ومع أنه لايرجح موضعا على موضع.. أى لا يحدد مكان السد أو ما بقى منه.. إلا أنه في نقده للآراء التى قيلت يقدم لنا نموذجا من البحث العلمى في هذا الأمر. يقول:

((فأما الردم المبنى بين السدين، فإن ظاهر القصة في القرآن لا ينص على موضعه من الأرض... وحكى محمد بن جرير الطبرى في كتاب التاريخ أن صاحب أذربيجان أيام فتحها، وجه إنسانا إليه من ناحية الخزر، فشاهده ووصفه ببناء باسق سام أسود، وراء خندق وثيق منيع. وحكى عبد الله بن خرداذبة في المسالك والممالك عن الترجمان بباب الخليفة أن المعتصم (الخليفة العباسى) رأى في المنام أن هذا الردم قد فتح، فوجه بخمسين نفرا إليه ليعاينوه، فسلكوا من طريق باب الأبواب واللان والخزر حتى بلغوا إليه وشاهدوه معمولا من لبن حديد، ومشددا بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل وحفظه من أهل البلدان القريبة منها (ولعلها حفظة). وأنهم رجعوا فأخرجهم الدليل إلى البقاع المحاذية لسمرقند، فهذان الخبران يقتضيان كونه في الربع الشمالى الغربى من المعمورة.

ثم ينقد البيرونى هذه القصة ويذكر ما يزيل الثقة بها. فقد جاء في صفتهم أنهم يدينون بالإسلام ويتكلمون العربية مع انقطاعهم عن العمران وتوسط أرض سوداء منتنة قدر مسيرة أيام كثيرة بينها وبين المعمور الإسلامى. وأنهم لم يكونوا يعرفون الخليفة ولا الخلافة ولا من هو وكيف هو.

وهو يستبعد أمة مسلمة منقطعة عن الإسلام غير البلغار وجيرانهم وهم بالقرب من منقطع العمران ونهاية الإقليم السابع وهم لا يذكرون من أمر هذا

السد شيئا، ولا يجهلون الخلافة والخلفاء، بل يخطبون لهم، ولا يتكلمون بالعربية بل لغة لهم ممتزجة من التركية والخزرية.

وإذا كانت شواهد هذا الخبر على هذه الهيئة لم يطمع منها في تعرف الحقيقة. وهذا ما أردت أن أخبر به من أمر ذى القرنين والله أعلم.[1]

والذى وضحته البحوث الأثرية، هو تعدد السدود في منطقة وسط آسيا وفى منطقة القوقاز. ومن قريب (شعبان ١٤٠٦هـ/ إبريل ١٩٨٦م) كنت في المؤتمرالسنوى الخامس للحضارة الإسلامية في عمان /الأردن. ولقيت زملاء من علماء أذربيجان، ودار الحديث عن سورة الكهف، فذكروا أن الكهف عندهم، وأن السد عندهم. وأن القوم هناك يزورون الكهف، ويذبحون عنده الذبائح..

وتعدد المواقع للقصة الواحدة أمر مشاهد، خصوصا وأن القرآن، كما سبق القول لم يحدد الموضوع تحديدا محكما إلا فيما يتصل بالعبادات كشعائر الحج والقبلة..

لاخلاف بين المسلمين على تحديد المعالم الأساسية من البيت الحرام إلى عرفات، ولا خلاف على تحديد ما جاء في الأحاديث الشريفة وتواتر العمل به في تحديد مواقيت الإحرام، وكذلك مسرى المصطفى عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

أما ما وراء ذلك ففيه تعميم، يكتفى فيه باسم إقليم أو قطر، أو صفة لمعلم من معالم القصة يخدم هدفها دون أن يدخل في التفاصيل المكانية والزمانية.

أمر آخر يتعلق بوسط آسيا يبدو في الآية التالية:

﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

وهنا تتضح أمامنا ظاهرة تواتر حدوثها في التاريخ وهى العلاقة بين الجماعات المستقرة والجماعات الرعوية، ويبدو بها وجه من الأحداث التى عنى بها القرآن

(١) البيرونى: الآثار الباقية ص ٤١، ٤٢

الكريم. ولنذكر أن سؤال كفار قريش كان عن رجل جوال بلغ المشرق والمغرب كان عن اتساع الرحلات فقط.. ولكن النص القرآنى أطال الوقوف عند أمر السد الحاجز بين مستويين من الحضارة:

لو صور في جانب قوما لا يكادون يفقهون قولا وتحمل هذه اختلاف اللغة، كما تحمل اختلاف المستوى الحضارى والفكرى.. وفى الجانب الآخر مفسدين في الأرض..

وعند خطوط العبور بين الحضارتين، إما أن يكون هناك معبر تمر به المؤثرات بين الحضارتين في تفاعل وإما أن يقام حاجز بشرى أو مادى يحبس الحضارة المفسدة فيما يمكن أن نسميه خزانا بشريا يموج بعضه في بعض ويحول دون تدفقها إلى مناطق الحضارة المستقرة.

خط اللقاء إذن إما أن يكون معبرا أو حاجزا قد يكون حاجزا منظم المرور السلمى في بعض الأوقات، وقد يكون حاجز عسكريا عليه القلاع والحصون وخطوط الدفاع ولهذا كله نظائر في التاريخ القديم والحد يث.. ولعل من أوسع نماذجه في العصور القديمة سور الصين العظيم بين حضارة الصين المستقرة وبين القبائل المغولية المائجة إلى شمال السور..

وقد يكون السد بين حضارتين متنافستين تخشى إحداهما الأخرى وتترقبان الفرص السانحة للانقضاض.

تطورت خطوط الدفاع إلى ما رأيناه قبيل الحرب العالمية الثانية في أوربا (خطى ماجيتو وسيجفريد).. وما نراه الآن في حرب النجوم والدفاع والهجوم النووى والاكترونى..

الأساس واحد، وإن تطورت الأساليب.. هل العلاقة بين المتجاورين معبر أم سد؟

ولقد شهدت أرضنا العربية ولا تزال تشاهد، نماذج من هذه الخطوط.. خط بارليف الإسرا ئيلى على شاطئ قنال السويس والذى دمرته القوات المصرية في حرب رمضان/ أكتوبر ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م. خطوط الرقابة الألكترونية التى أحاطت بها إسرائيل ما استولت عليه من الأرض العربية...

وفى العصر العباسى كانت هناك العواصم أو نقاط الحراسة والرقابة الأمامية بين الدولة الإسلامية والروم..

والحراسة واجبة ولكن القرآن أشار إلى جوانب في السد تستوقف النظر.. فلنحاول أن نتعمق فى الآيات لنرى بعض هذه الأبعاد..

٥٤- فأعينونى بقوة

ما الذى عرضه القوم على ذى القرنين ليحميهم من أعدائهم؟

﴿ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

وماذا كان رده:

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

وتتجه أكثر الآراء إلى أن يأجوج ومأجوج قبائل متبربرة تعيش في السهوب الآسيوية. وأنها كانت مثار تهديد مستمر للحضارات المستقرة التى قامت إلى جنوبها أو شرقها أوغربها.

ولك أن تتصور المنطقة الوسطى وامتدادها الشمالى (ونقصد هنا الشمال الجغرافى) ينبوعا بشريا فوارا، أوخزانا بشريا يمتلئ بالسكان، ويفيض على مناطق الحضارات المستقرة نحو الصين شرقا، ونحو مناطق الاستقرار في غرب آسيا وشرق أوربا و وسطها وأجزاء من غربها.

واستطاعت بعض أمواجه أن تعبر الجبال إلى أجزاء من الشرق الأوسط والهند.

وقد يكون هذا الفيض السكانى، وتحوله إلى غزو كاسح، راجعا إلى دورات جفاف تقل معها الأمطار والمراعى والمواد الغذائية، فتضطر هذه الجماعات إلى النزوح إلى ما حولها. وهذا النزوح قد يكون كسربا هادئا أحيانا، وقد يتخذ شكل موجات عنيفة منظمة أوغير منظمة..

وقد تتعاظم قوة السهوب وتجد القيادة القادرة على تجميع قواها البشرية فتنطلق كالإعصار الجامح كما حدث في الغزو المغولى الذى اكتسح الدولة

الخوارزمية وأسقط الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ولم يقف إلا في معركة عين جالوت بعد ذلك بعامين فوق أرض فلسطين وكان الجيش المصرى فيه بقيادة قطز..

ولقد شهد التاريخ قبل هذا غارات القبائل المتبربرة التى استطاعت إسقاط الامبراطورية الرومانية عام ٤٧٦م أمام زحف القبائل الجرمانية ومهما تكن الأسباب التى قيلت في سقوط الامبراطورية الرومانية أمام الجرمان: هل كانت عسكرية أواقتصادية وبخاصة نقصا في الإنتاج..

ومهما تكن الأسباب التى قيلت في سقوط الخلافة العباسية.. هل كانت تفككا في الدولة وضعفا في الروح الحربية واعتمادا على القوى المشتراة.. فإن الأمر الثابت هو أن مناطق الحضارة المستقرة اكتسحتها مناطق البداوية، وأن أبناء الحضارة عجزوا عن حماية أرضهم وأعراضهم وأموالهم وأرواحهم..

هذه هى القضية المحورية في الصراع بين مستويات الحضارات..

وإذا كانت الصيغة قد تغيرت في عصورنا الحديثة فأصبح قلم التاريخ في يد الحضارات الأكثر علما وقدرة عسكرية.. فلنذكر أن هذا العلم إنما هو جهد دائب وإبداع لا ينبتان إلا في قاعدة عريضة قادرة على تغذيتها بشريا وماديا..

وهذا لايقلب المعادلة بل يزيدها تأكيدا.. من هو الأقدر على حسم المعركة لصالحه، مهما يكن مستواه؟

ونعود إلى مشهد ذى القرنين وأمامه طرفا الصراع ماذا قدم الطرف الذى بدأ معه القول:

إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض هذه هى الحيثيات التى سيبنون عليها الاقتراح:

- فهل نجعل لك حرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا؟ الذى عرضوه هوالمال وكأنهم يريدون أن يحتموا وراء أرصدتهم. خط الدفاع هو أوراق من دفتر الشيكات

- إذا شئنا اصطلاحا معاصرا- أو تحويلا من الأرصدة..

لا نرى في عرضهم مبدأ المشاركة البشرية ولا التعاون في إقامة السد. مجرد دفع تكاليف السد. لا أكثر.

والقائد الحكيم لايعترض، ولا يسفه الرأى، وإنما يتناوله برحمة ولين وتوجيه:

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

وهذا قول يحتاج إلى تأمل كبير.. فهو خطة تكوين شعب قبل أن يكون خطة حماية شعب..

الحماية وقت القول قائمة بوجود جيشه وقواته وعدته.. وهو لا يحدث القوم عن شئ مجهول ولا عن غيب حين يقول لهم:

ما مكنى فيه ربى خير. نعم إنه خير مما تعرضون وهو خير في ذاته. وهو يقود إلى خير..

﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ ما بمعنى الذى تفيد الشمول. ولقد مكنه الله من قوى مادية وبشرية وفكرية وتنظيمية. عنده القدرة كما سترى- على اقتراح المشروع وتصميمه والإشراف على تنفيذه وعلى اختباره.

- فأعينونى بقوة.

إنه يطلب منهم العون وهو القائد الذى يطلبون منه العون. فمن يعين من؟ هنا يجلى مفهوم المشاركة. سيكونان كاليدين تغسل إحداهما الأخرى. سيحدث الالتحام بين القيادة والقاعدة. وبين الفكرة والعمل. ستتحول الأفكار إلى حقائق ملموسة يشاركون جميعا في صياغتها، ويستطيع كل مواطن من القوم أن يقول: لى في هذا السد نصيب..

ترى هل استعيد جانبا من قصة السور في الكويت وكيف تعاون الجميع في عام ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م على إقامته في وقت قياسى. وكيف كان السور هو التجسيد الناطق بالإرادة الواحدة للشعب الواحد من أجل الهدف الواحد؟ هل أقول كيف أصبح السور وساما على كل صدر، وشرفا لكل فرد، وحصنا لكل مواطن.. هل أقول كيف كانت لبناته بنيانا مرصوصا..

لا يتحقق إلا في أمرين: صف الجهاد وصف الصلاة.. هنا الإرادة عبادة. والعبادة إرادة. هنا تستطيع أن تسمع صوت العزة يتحدث بغير لسان و يعبر بالصمت فوق تعبير الكلام..

فالقصة قديمة ومتجددة. قصة الإرادة حين تتحقق في الحجر والحديد والقطر المذاب.. كما تتحقق في الجيش والسلاح والعين الحارسة والقدم الثابتة..

وقال القائد: ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾.. والقوة هنا نكرة لتدل على العموم وهنا نذكر قول الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال:٦٠)

فمع كل مصادر القوة في الآية نرى تخصيصا لرباط الخيل باعتبارها أقوى القوة الضاربة وقتئذ.. ويقابلها في عصرنا الأسلحة الأكترونية برًا وبحرًا وجوًا.

كذلك كان قول القائد قوة من كل مظانها ثم تحديدًا لأبواب معينة يريدها في المشروع.

ولماذا يريد هذه القوة ؟ إنه حدد الهدف: ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾.

إنهم سألوه سدًا، فقال ردمًا. فما الفرق بين السد والردم؟ إن السد مجرد حاجز يبنيه بين الصدفين (والصدف منقطع الجبل المرتفع) وذلك ليسد الممر بينهما.

ولعل ذا القرنين أطال التأمل في قولهم: إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض..

يأجوج من الأج وهو اشتداد لهيب النار. ومأجوج من المج وهو اشتداد الموج.. الاسم يحمل صورة اللهب والاندفاع معًا.. البركان والفيضان.. زفير النار وهدير الموج.. ومفسدون.. اسم الفاعل الدال على الاستمرار.. الأرض: وهم قيد البصر ووراء الصدفين.. والطريق بين الجبلين هو طريق الخطر الملتهب المتدفق.. فلابد من

مزيد من الحرص. أى سد لايكفى. لابد من سد مضاعف قوى.. وهنا تبرز أهمية قوله: ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ وما الردم؟ نعود إلى لغتنا العربية نسألها:

الردم: البناء المردم. شبه بالثوب المردم المؤتلف من رقاع فوق رقاع، أى سدا مضاعفا. ولعله بنى جدارين متباعدين وردم الفراغ الذى بينهما، ليتعذرنقبه.

ولما كان هذا يستدعى عمله كثيرين قال لهم: ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾

هنا نجد أن الإجابة تخطت السؤال، ودخلت في تفاصيل تجمعها كلمة واحدة هى الردم،. وأن أى مشروع يقام ينبغى أن يحدد أصحابه الهدف المقصود منه، والمستوى الذى ينبغى الالتزام به، والمقاومة التى يستطيع الردم أن يتحملها، وأن يكون هذا كله خاضعا للاختبار، كما سنرى فيما نستقبل من القول.

لم يكن هدف ذى القرنين مجرد الاستجابة لما أرادوا وإنما تصميم المشروع وتنفيذه من أجل الهدف الأساسى، وهو قدرة الردم على تحمل مسئولياته..

وهذا درس آخر في العلاقة بين المشروعات وأهدافها تستطيع أن تستقرئه من قصة ذى القرنين.

وبقيت بعد هذا دروس أخرى.. فلننظر هنا في الآيات التالية.

٥٥- قال هذا رحمة من ربى

﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (٩٦ – ٩٨)

ونبدأ أولا بمعانى الألفاظ. زبر الحديد قطع الحديد الكبيرة جمع زبرة. والصدفان: جانبا الجبل. والنفخ في الكيران المصفوفة لصهر الحديد. والقطر: النحاس المذاب. والظهور هو العلو. والنقب: كسر الردم.

وتحس وأنت تقرأ الآيات أنك في موقع العمل. حديد. نحاس. صهر. مراقبة للإنتاج. مساواة بين الصدفين. اختبار للارتفاع وللسمك. ربط بين العمل والعقيدة. وبين العمل وهدفه وبين العمل ومنتهاه..

صورة مكثفة يتحرك فيها الإنسان، ويتحرك فيها المعدن وتتبدل بها صورة الأرض أمام الإيمان والعمل.. فلنحاول أن نتتبعها بشئ من التفصيل.

ونعود إلى كلمة (قوة)، لنرى فيها عموم القوة، التى لا تشترط أن يكون السد أو الردم من حديد ونحاس فقط.. ففى قول القائد: ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ يحمل إلى النفس والفكر تعدد المواد التى استخدمها دون الاقتصار على الحديد والنحاس.. تماما كالتنوع في القوة الذى نجده في قول الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ ففى الغزوات والحرب يحتاج الجيش إلى إمدادات وتموين متنوعة ومتكاملة يدخل فيها العديد من المواد.. وذلك كذلك.. ولعل ذكر الحديد والنحاس هنا يقابل ذكر رباط الخيل بعد القوة في سورة الأنفال. ولنذكر ارتباطها بغزوة بدر في العام الثانى للهجرة.. أى في مطالع حياة المدينة. وهى أمر دائم بدوام وتكامل واتساع الاستعداد والإعداد.

ولعل في قول القائد آتونى زبر الحديد ما يحدد أبرز معالم الردم في مرحلة التسوية ومن بعدها إفراغ القطر في مرحلة الإكمال.. وتبقى العبرة الكبرى في المشاركة الفعلية: ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾، ثم ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾. وتتسع الآية لتشمل إحضاره إلى موقع الردم من أى مكان فيه المعدن. على القوم أن يحضروا الحديد وأن يحملوه إلى موقع العمل..

وتحول القوم الذين كانوا يقولون: ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ إلى قوم متعاون يحملون حجارة الردم وحديده، وينتظمون جماعات متعاونة يختلط عرقها ببناء السد، وتساهم سواعدها في الإنشاء، فيتكون الترابط العضوى بين القوم ومشروعهم..

كان من ذى القرنين القيادة التى فجرت في عقولهم وأيديهم وقلوبهم ينابيع القوة والثقة بالنفس، وبرهنت لهم عمليا على أنهم قادرون على حماية أنفسهم لو توفرت لهم القيادة الحكيمة والقاعدة المتعاونة، وأحسنوا استغلال مافى ديارهم من مصادر القوة البشرية والمادية..

ويرتفع الردم شيئا فشيئا. يدعمه الحديد المستخدم بأسلوب، يتمكن معه المسئولون عن الصهر من القيام بعملهم في وقت محدد.. لن ندخل في تفاصيل الصهر، وما يحتاج إليه من إيقاد النار.. وما تحتاج النيران من أخشاب أو فحم أو مواد سريعة الاشتعال كانت قريبة منهم (ولنذكر أننا هنا لسنا بعيدين من موارد النفط، وكيف كان يتفجر في بعض المواطن ويشتعل.. لن ندخل في تفاصيل ذلك، وما حدثنا القرآن عنه.. وإنما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴾.. أمامنا عمل علمى جماعى بخطوات مدروسة، ولعلها - والله أعلم - لم تكن التجربة الأولى لذى القرنين في إقامة سد أو ردم.. خطوات العمل كما تمثلها الآية الكريمة مدروسة متتابعة تحمل روح الثقة فيما يعمل، وروح التجارب السابقة التى حدد بها الانتقال من مرحلة إلى أخرى.

والعمل - بهذه الصورة - مدرسة لهؤلاء القوم.. وكأنه يقول: هكذا يبنى الردم.. وهكذا تستطيعون صيانته وحمايته، وجبر أى كسر فيه أو استدراك أى صداع أو استبدال أى جزء يتآكل مع الزمن..

وكأنه مع بناء السد، كان يبنى في نفوسهم الثقة والعزيمة، وتناسق البناء المادى مع البناء النفسى.. وتم إنشاء الردم..

ولكن ماذا كان موقف القائد؟

لقد علمهم درسا آخر، هو أن يختبروا العمل بعد إنجازه ولا يفرحوا بمجرد النظر إليه..

هل أتابع التصور فأقول: إن العمل وقت البناء كان مقسما على الأقل بين ثلاثة فرقاء..

الأول: عليه العمل. والثانى: عليه إحضار المواد والطعام والشراب. والثالث: عليه الحراسة.. هذا أقل وأبسط تقسيم يمكن تصوره في إنجاز هذا العمل، ويرتبط به درس آخر هو تقسيم وتوزيع المسئوليات قبل العمل وفى أثنائه.

كان لابد من اختبار قوة الردم و تبدو في أمرين:

امتناعه على أن يظهره العدو أو ينقبه.. الصعود أو الاختراق. وأيهما أصعب؟ لاشك في أن الاختراق والنقب أصعب من التسلق والظهور.. ومن هنا تبدو حكمة النص القرآنى في استخدام صورتين من فعل واحد:

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ وزيادة المبنى في الكلمة تدل على زيادة معناها. والجهد المبذول في النقب أكبر من المبذول في الظهور.. من أجل هذا قال عن الظهور: فما اسطاعوا. وعن النقب: فما استطاعوا بزيادة التاء.

وفى خشوع المؤمن نسمع صوت القائد:

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾

ما المقصود من ((هذا)) اسم الإشارة الموجز الذى لخص الأمر كله.

ولنتصور القوم وأمامهم القائد وهم يقفون خلف الردم الذى بنوه.. يقفون بعد أن ارتفع البناء وتماسكت أركانه وامتد بين الصدفين.

ولعلهم قد استعادوا أيامهم السابقة وهم تحت تهديد يأجوج ومأجوج، وإندفاعهم بين الصدفين كالسيل الهادر يفسدون في الأرض ويأخذون من خيراتها ومن الخرج ما يشاءون، ثم يعودون إلى سهولهم الواسعة، ويتركون وراءهم هؤلاء القوم يعملون ويكدحون.. ليعود المفسدين ليشاركوهم جهودهم ورزق أولادهم..

ولعلهم يستعيدون كيف سرت روح القوة في نفوسهم، وإعانتهم القائد على التغلب على نوازع الضعف، والتخاذل أمام العدو، وشراء الأمن المؤقت بالبذل الدائم من أموالهم و أرزاقهم.

ولعلهم الآن يحسون لذة العمل، و لذة الإنجاز. ويحسون الأمن والأمان. بل يحسون القدرة على الدفاع عن أنفسهم بعد رحيل القائد عنهم..

كل هذا لخصه القائد في جملة واحدة ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ العمل رحمة. التعاون رحمة الإنجاز رحمة. العزة في الوطن رحمة. صيانة المكتسبات رحمة. الإيجابية رحمة. تنشئة الجيل الجديد على العمل والكرامة رحمة..لقاء الفكر واليد وإرادة القيادة والاستماع إلى صوت القاعدة رحمة..

ألا تحس أننا الآن في عالمنا العربى محتاجون إلى هذا الأسلوب الذى تتصالح فيه الأيدى مع الأفكار، وتتحول الجموع إلى إنتاج مشترك تشرف فيه اليد بأن تعمل، والفرد بأن يتعاون، ويعتبر فيه حمل المواد الأولية إلى مواقع حماية الأوطان وبنائها كرامة وعبادة؟

لقد ابتعدنا بعض الشئ - أو كثيرا - عن الاعتماد (على أيدينا، والمال ليس عوضا عن اليد.. والفكر ليس عوضا عن اليد. إن اليد هى القادرة على ترجمة الفكر وتجسيده. ومن هنا تأتى ضرورة العناية بتكامل التربية لتجمع بين الفكر واليد والإبداع فيهما معًا.

ألا نحس أننا في تطوير التعليم والتربية نقترب شيئا فشيئا من منهج ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾.. وأن تكوين الفرد على هذا المنهج إنما هو بناء للحياة وصورة من رحمة الله؟..

ثم يختم القائد نجواه لله وللقوم قائلا:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ متى هذا الوعد؟ هل إذا أهمل القوم حماية أنفسهم؟.. هل إذا تركوا الردم لذاته تأكله الأيام وتنقصه من أطرافه؟ إن أعين المفسدين أمام الردم لا ترقيه.. فإذا ظلت الأعين الساهرة ترعاه فسيظل حارسا، وإذا اغفلت عنه مال عليهم المفسدون ميلة واحدة.. هذا هو الوعد الذى يندك فيه الردم..

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ أى سنة الله في خلقه تأييدا للعاملين، وجزاءا وفاقا للمتهاونين..

٥٦ـ الناس بين الموج والجمع

يقول الله تعالى:

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾

ما مفهوم الترك في هذه الآية؟ وما اليوم المقصود فيها.. يوم يموج بعضهم في بعض؟

حقيقة الترك مفارقة شئ شيئا كان بقربه، ويطلق مجازا على جعل الشئ بحالة مخالفة لما كان عليه[1].

جاءت هذه الجملة بعد أن أتم ذو القرنين بناء السد واختبره ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾

تركنا هنا تفيد تغير الوضع عما كان عليه وتحمل أكثر من معنى.

الأول: عندما بنى ذو القرنين السد استطاع أن يقيم حاجزا بين القوم وبين يأجوج ومأجوج الذين أصبحوا يومئذ محصورين وراء السد، يموج بعضهم في بعض هذه الصورة هى الهدف الأول من بناء السد. ولها نظائر كثيرة في العلاقة بين مناطق الرعاة ومناطق الاستقرار والزراعة، أو بين مناطق الحضارات المتباينة أو المتنافسة.. عندما تتحول المعابر إلى حواجز.

ومع أن الحاجز ـ بطبيعته ـ تعديل لظاهرة طبيعية أو على الأصح، إيجاد لطبيعة جديدة أو إذا أخذنا اللفظ القرآنى. ترك صورة من الطبيعة إلى صورة أخرى.. إلا أن هذه الصورة الجديدة بحاجة دائمة إلى الرعاية، لأن أمل القبائل التى كانت مستفيدة من الغارة والإفساد، هو أن تزيل السد الذى أنشأه القوم ليحمى أمامه ممتلاكتهم وأرواحهم.. وكأن السد أصبح هدفا متنازعا عليه بين قوم يريدون حمايته وقوم يريدون دكه.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦: ٤٠

المعنى الثانى: أن هذا السد سيظل قائما إلى أجل معلوم يحدده حرص المنتفعين منه عليه، وصيانتهم له، وترميمه كلما ظهر فيه شق أو صدع.. فإذا ضعفوا عن ذلك أو انصرفوا عنه استطاع المفسدون اقتحامه وفاض بهم الفج بين الصدفين. وماج المفسدون في القوم، ويبدو بهذا وجه في التأويل

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾.

وإلى هذا الوجه من التأويل ذهب بعض المفسرين، بل ذهبوا إلى أبعد من هذا عندما فسروه بغارات المغول على الدولة الخوارزمية وبغداد عاصمة الخلافة العباسية واكتساح أجزاء كثيرة من المشرق الإسلامى ولكل من الوجهين ما يستند إليه من أحداث التاريخ.. وبهذا يكون السد قد أصبح دكا.. والبحث عنه - في صورته التى رسمها القرآن - بحثا عن صورة طوتها أحداث التاريخ.. وإذا بقى شئ فهى آثار محددة يمكن أن تشتبه مع غيرها، ويصعب معها الوصول إلى يقين تؤيده الشواهد ولا تنفيه شواهد أخرى.

المعنى الثالث: أن يكون المقصود من قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ ربط هذا الدك بمقدمات القيامة.

ولعل المعنى الأول والثانى أقرب إلى سياق القصة، ذلك لأن المعنى الثالث يحمل التأييد، ويجعل عمر السد من عمر الدنيا، ويورث في النفس هدوءًا يقرب من التواكل الذى ينهى عنه الإسلام..

إن المشروع من أوله مشروع يقظة وتعاون وعمل، ومن المنطقى أن تنعكس آثاره على حياة القوم يقظة وصيانة للسد، وقدرة على حجز المفسدين يموج بعضهم في بعض، هذه صورة أولى.. ويحدث الموج الخطر إذا اندك السد وماج المفسدون في القوم.. والوعد هنا ترتيب النتائج على المقدمات..

ننتقل إلى قول الله تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ عطف على صدر الآية وهو قوله تعالى ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾

ولكن هنا وقفة..

يقول الإمام الطاهر بن عاشور فيها:

هذا: تخلص من أغراض الاعتبار بما في القصة من إقامة المصالح في الدنيا على أيد من اختاره الله لإقامتها من خاصة أوليائه، إلى غرض التذكير بالموعظة بأحوال الآخرة. وهو تخلص يؤذن بتشبيه حال تموجهم بحال تموج الناس في المحشر، تذكير للسامعين بأمر الحشر وتقريبا بحصوله في خيال المشركين، فإن القادر على جمع أمة كاملة وراء هذا السد، بفعل من يسره لذلك من خلقه، هو الأقدر على جمع الأمم في الحشر بقدرته، لأن متعلقات القدرة في عالم الآخرة أعجب. وقد تقدم أن من أهم أغراض السورة إثبات البعث[1].

واستعمل الماضي موضع المضارع تنبيها على تحقيق وقوعه. والصورة التى تذكرها الآية ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ من غيب الله الذى تراه الخلائق يوم القيامة.

وحين تقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ تحس رهبة وتساؤلا.. نفخ فعل مبنى للمجهول.. بينما الصور معرف. وعلى من يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿ فَجَمَعْنَٰهُم ﴾.. البشر جميعا من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة؟ وهل نحن وحدنا في هذا الكون؟ هل هناك عوامل أخرى يشملها ضمير. فجمعناهم.. البشر؟ الجن؟ العابدون؟ المعبودون؟ الشياطين؟ الملائكة؟ ألسنا نقرأ في القرآن

---

(١) التحرير والتنوير ١٦..٤١.

الكريم ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ وتأكيد الجمع بقوله تعالى: ﴿ جَمْعًا ﴾ هو جمع لايغادر عالما من العوالم التى خلقها الله ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾ جهنم هى التى يعرضها الله للكافرين. وكيف عرض نار وقودها الناس والحجارة ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ (الفرقان: ١٢ –١٤) وهذه المقابلة في وصف الكافرين بين قوله تعالى:

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾ وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى ﴾

الآن تفتحت الأعين ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق: ٢٢) وفى الدنيا كانت هناك الفسحة في الوقت، وأصوات الحق تتردد وبيوت الله مفتوحة وآيات الله في الأنفس والآفاق تملأ الكون.. بل الكون كله آية.. وآيات. فصرف الكافر عينه عن هذا كله. غطى العين بحجاب الهوى والشهوة والمنصب والجاه والتنازع على الفانى مما ظنه من الطيبات.. فعاش الكافرون ولهم أعين لا يبصرون بها..

ولفظ الكفر يفيد الغطاء. والزارع سمى كافرا لأنه يكفر البذر في الأرض. وكان الإيمان مغروس في كل نفس.. والإنسان إما أن يرعاه ويزكيه ويتبع سبيل المؤمنين، وإما أن يكفره ويغطيه ويدوسه في تراب أهوائه.. هو موجود. ولكن تحت أطباق المطامع والشهوات والجحود.. ثم قوله تعالى: ﴿ وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ لم تقل الآية وكانوا لايسمعون. آلة السمع موجودة. ولكن لهم آذان لايسمعون بها. هم الذين وضعوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا. فنفى استطاعتهم السمع يفيد أنهم لشدة كفرهم لا

تطاوعهم نفوسهم للاستماع. وحذف مفعول ﴿ سَمْعًا ﴾ لدلالة قوله تعالى ﴿ عَن ذِكْرِى ﴾ عليه. والتقدير. وكانوا لايستطيعون سمعا لآياتى. ونفى الاستطاعة مستعمل في نفى الرغبة وفى الإعراض كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أعين حجبت نفسها عن نور الحق، وآذان حجبت نفسها عن صوت الحق، تجد أنها تواجه جهنم ولا تستطيع إلا أن تراها وتسمع زفيرها.. أعاذنا الله منها.

فماذا بعد العرض؟ إنه مواجهة الكافرين بما كانوا يعبدون ثم نرى صورة كريمة لثواب المؤمنين.

٥٧ـ ختام السوره: طريق الكافرين

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾

الكلمة الأولى في الآية هى قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبَ ﴾ وحرف الاستفهام فيها وهو الهمزة مقدم على فاء العطف لأن للاستفهام صدر الكلام. ومن نظائره قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٧٥).

وهذا الاستفهام في صدر الآية إنكارى فالله تعالى ينكر عليهم ما يحسبونه ويقتضى هذا أن يكون ما ظنوه باطلا.

ولكن ما الذى ظنوه؟ إنه اتخاذهم عباد الله من دونه أولياء.

ومن عباد الله الذين تقصدهم الآية؟ نستطيع أن نفهم المقصود من العودة إلى قول الله تعالى في وصف مشهد القيامة:

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (مريم: ٨٨ – ٩٥)

ولقد عبد الناس من دون الله الملائكة والجن والشياطين والأنبياء.. بل عبدوا مما عملت أيديهم أصناما، وظلوا عليها عاكفين.. ومادة هذه الأصنام هى من صنع الله تعالى، هو خالق معادنها وأحجارها، فكل ما في الكون من دون الله خلقه، وهو عبد لله لا يخرج عن طاعته والولاية هنا لا تقتصر على العبادة بمعناها المحدود من قيام وركوع وسجود، وإيمان بأنها تنفع أو تضر، ولكنها تشمل الاتباع والطاعة، وإن خالفت أمر الله تعالى، فطاعة الظالم والباغى والسير فى ركابه.. هى في نظر الإسلام عبادة، وطاعة الهوى عبادة، وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (الفرقان: ٤٣) وقوله تعالى (﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

هؤلاء الذين عاشوا في دنيا غيرهم، واتخذوهم أربابا من دون الله ما موقفهم في الآخرة إن الله سبحانه وتعالى يسجل تخاصمهم في هذا اليوم المشهود بقول الله تعالى:

﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ

كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾
(البقرة: ١٦٥ –١٦٧)

وما مصير هؤلاء الذين اتخذوا عباد الله من دونه أولياء؟ نسمع النذير في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلاً ﴾ ذلك لأن هؤلاء الأولياء ما نفعوهم في الدنيا. ولن ينفعوهم في الآخرة.

وأعتدنا "هى: أعددنا" أبدلت الدال الأولى تاء لقرب الحرفين. والاعداد والتهيئة.

والنزل. ما يُعد للنزيل والضيف من القرى والطعام.. ولا زال لفظ "النزل" يطلق على الفندق.. أو دار الضيافة.. وكأن ضيافة الكافرين النار.. وسنرى أن لفظ "نزل" سياتى في مستوى المؤمنين.. ولكل نزل ما فيه من استقبال يليق بمن يحل فيه.. للكافر العذاب، وللمؤمن دارالخلد والمقامة لا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب.

ثم يؤكد القرآن هذا المعنى فيما نستقبل من آيات في خواتيم سورة الكهف، حيث يبدو مصير كل من الإيمان والكفر وتحديد الطريق الذى يسلكه من كان يرجو لقاء ربه.. هنا في هذه الخواتيم، يترابط مدخل السورة بما جاء فيها من القصص، في نسق يهدى إلى الإيمان، والإيمان في سورة الكهف- كما هو في القرآن كله مطلع وغاية وطريق، يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلاً ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾

((قل)) تدعونا جميعا إلى التنبيه إلى أمر عظيم بعدها.. وهذا أسلوب آخر في إبراز أهمية المقول، كما رأينا في الآية السابقة الاستفهام الإنكارى في قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ﴾.

في خواتيم الكهف ستتوالى البشارات والنذر، وتتنوع أساليبه، كأنها طرقات قوية توقظ الغافل، وأضواء كاشفة تنير الطريق، وأعلام مرفوعة تجذب النظر، في خواتيم الكهف تحس قوة النبض في الآيات، وتكثيف المشاهد وسرعة تتابعها، كأنها تلخص السورة كلها بكل ما فيها من قصص وعبر ومشاهد وكأن المؤمن قد أصبح عينا تنظر، وأذنا تسمع وقلبا يعى، وتركز وجوده كله في هذه الثلاث: السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا..

ثم تأتى كلمة ((هل)) استفهاما يدعو إلى مزيد من الاهتمام وإذا أمر الله رسوله أن يقول: كأن الاستفهام هنا دعوة إلى الاستماع ويأتى بعدها قوله تعالى: ((ننبئكم)) بنون العظمة الإلهية.. ثلاثة تأكيدات متوالية في ثلاث كلمات.. يأتى بعدها موضوع الإنباء((الأخسرين أعمالا)) ولم تقل الآية الخاسرين.. هكذا بالمبالغة في الخسران.. وياليتهم يشعرون به. إنهم في ضلال.. ضلال مستمر ضل سعيهم في الحياة الدنيا، ليس يومًا ولا عامًا ولكن أسلوب حياة، ورغم ما يلقون من عواقب الخسران يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وهنا يبدو التناقض في الموازين: لهم ميزان يرون به القبيح حسنا، والضلال هدى. وعندهم الاستعداد للدفاع عن مسارهم باعتباره حسنا. وهم عليه عاكفون وتأمل قوله تعالى: ((سعيهم)) والسعى المشى في شدة. أى أنهم كانوا يجدون، ويبذلون الجهد في ضلالهم، دون أن يشعروا بأى خطأ..

وانظر إلى عباد الأصنام القديمة والجديدة، والصنم القديم كان من حجر أو معدن جميل القسمات أو مرعبا.. أما الأصنام الحديثة، فأكثرها أفكار يصوغونها في مناهج وخطط يعكفون عليها عكوف العابد القديم أو أكثر ولها أيضا أعيادها، ولها كهنتها، و لها حتى كتبها المقدسة أو شبه المقدسة وحاول أن تقلب النظر حولك، سترى حتى الذين يدعون الكفر بكل دين قد اتخذوا لأنفسهم طقوسا ومناسك، كأنها أديان جديدة. ولهم قبور يحجون إليها، ولزيارتها تقاليد. ولهم كتب يدرسونها ولها كهنة وأحبار. ولهم حتى شياطين يعادونهم ولكل مذهب من هؤلاء ملائكة وشياطين، تغيرت الأسماء كأنها معادلات رياضية غيرت رموزها لا أكثر..

هؤلاء الذين حاولوا جذب الآخرة إلى الدنيا، فجعلوا من دنياهم دنيا وأخرى، وجعلوا من قادتهم أشباه آلهة، شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله وجعلوا رضاهم على الأنصار جنة، وغضبهم على الخصوم والأعداء نارا..

ستجدهم حولك في الدنيا كثيرين، يجمعهم قول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ ﴾ إنه ربهم رضوا أو كرهوا، اعترفوا أو أنكروا.. وسيعودون إليه ولا بد من لقاء، لقاء بينهم وبين ربهم، وأعمالهم هذه خاسرة- رغم الجهد المبذول فيها. وهى عند الله لا وزن لها، ليس معنى هذا أن الله لا يحاسبهم ولا يزن أعمالهم وإنما المقصود - والله أعلم - أن الصورة يوم القيامة من الوضوح بحيث لاتحتاج إلى وزن أو أن نتيجة الوزن معروفة سلفا، أو أن لاقيمة لها.

ثم بين الله تعالى من أمر الكافرين أنه لم يكن مقتصرا على ضلال السعى وإنما امتد إلى الإساءة إلى المؤمنين وإلى الحق وأنهم اتخذوا آيات الله ورسله هزؤا.

ولكن لنذكر أن القرآن سجل لهؤلاء في الدنيا سعيا وعملا.. وأنهم لم يكونوا سلبيين في الحياة، وإنما كان منهم الضلال في الطريق، وإذا كان الكافر في الحياة إيجابيا، فأولى بذلك المؤمن، فلننظر صفته في الآيات التالية.

٥٨- وطريق المؤمنين

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴾ آيتان عن المؤمنين، بعد ست آيات عن الكافرين، نستعيد بها ما جاء في صدر سورة البقرة من تركيز وصف المؤمنين، والإفاضة في نسق يصف الكافرين المنافقين..

فلنتأمل هاتين الآيتين، وما تحملان من معانى غزيرة ترتبط بسياق السورة، وبالسباق القرآنى في الهدى.

جاءت أولا إرادة التأكد "إن". وهذه تقابل التأكيد الذى جاء في وصف ومصير الكافرين.

الذين آمنوا: تعطى أمرين: الأول الإيمان في ذاته، والثانى: الاجتماع عليه.. وهذا الاجتماع يتخطى حدود الزمان والمكان. هو أولا مصالحة بين الإنسان وربه. وهو رباط يجمع أفراد الأسرة المؤمنة.. بروابطها الأفقية بين أبناء الجيل الواحد، والرأسية في أجيالها المتتابعة، وهو الذى يجمع أبناء الحى على المودة والتراحم ويجمع أبناء الوطن على كلمة سواء، بعد حوار وتشاور يستهدفون به الخير، ويجمع أبناء العقيدة على التعاون فيما بينهم، ومع غيرهم، من أجل خير يعمهم، ودمغا لشر يراد بهم، وفتحا لآفاق جديدة في الحياة..

من أجل ذلك سمى الله الإيمان في القرآن نورًا:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

والنور في الآية، واحد والظلمات كثيرة، ضع كلمة الظلمات من هذه الآية مع قول الله تعالى في وصف الكافرين في الآيات السابقة من سورة الكهف: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ وقف قليلا عند ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾، واذكركم اتجاها يسلكها الإنسان إذا ضل عن طريق الصواب وهو يظن أنه على هدى الطريق..

تأمل هذا مع قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

فالصراط المستقيم واحد، والسبل سواه كثيرة.. تماما كالنور المفرد والظلمات المتعددة.

ننتقل مع الآية خطوة أخرى وهى قوله تعالى: ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وما الصالحات؟ نستعيد التقسيم التقليدى لأعمال الإنسان:

العبادات، المعاملات، الأخلاق، ونأخذ من نسيجها ثمرة. هى صياغة الحضارة محافظة على الأصالة وتفتحا على الجديد وإبداعا في الحياة دون جمود أو إنغلاق أو انفلات.

فى الصالحات، جزء ثابت وجزء متغير، وأبرز الثوابت العبادات، وأسس المعاملات، وأبرز المتغيرات أساليب المعاملات، وآفاق الاجتهاد في العلم والسياسة والاقتصاد، ومناهج الفكر وأساليب الحياة.

والإسلام قام على تفصيل ما لا يتغير، كالعبادات وعلى إجمال ما يتغير، وهى أساليب الحياة فكرا وتنفيذا..

من أجل ذلك ينبغى أن تتسع الآفاق، لتقبل متغيرات الصالحات، فما كان صالحا في عصر قد يصبح متخلفا في عصر آخر، ويحتاج فيه إلى صالحات جديدة متطورة.

وإن تقدم أى مجتمع يقوم على أساسين عريضين: تمسكه بالثابت من العقيدة، والإطار السلوكى العام، وقدرته على تطوير الصالحات، لتتلاءم مع الحياة الجيدة.. بل لتصنع وتدفع الحياة الجديدة..

ولنأخذ لذلك مثالا قريبا، تعانى منه الدول الإسلامية بدرجات متفاوتة، وهو أساليب إعداد الجيل الجديد للحياة الجديدة.

ولعل التربية من أبرز التحديات التى تقابل أى مجتمع، ذلك لأنها تجمع بين الأصالة والتجدد بين المحلية والعالمية، بين تحصيل معرفة سابقة وفتح الطريق أمام الإبداع، إنها الحياة في استمرارها. والعلم لا يعرف حدود الزمان والمكان ولا الإقليمية وصدق الله العظيم:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣)

والأنفس والآفاق هما المجالان الرئيسيان لتجلى قدرة الله.. وتجلى إبداع الإنسان في طلب العلم، والعلم – في أبسط تصويره- مزيد من الفهم لما في الأنفس والآفاق، الإنسان والبيئة. الوجود الصامت والناطق والفكر..

وكل تطوير في أساليب التربية من الصالحات، ذلك لأنه يعين على تكوين المواطن الصالح، القادر على التعامل مع الحياة بنجاح. ومن هذا التعميم ننتقل إلى شئ من التخصيص، عرضت له في إجمال عند عرض قصة ذى القرنين، وهو التعاون بين الفكر واليد في الإنتاج، وبين القيادة والقاعدة في التنظيم، وبين التخطيط والتنفيذ والابتكار في حماية المجتمع، وكان التركيز على توثيق الصلة بين العمل اليدوى والفكرى، وعلى مزيد من العناية بالتعليم التقنى والمهنى.

وكل تطوير يلقى بعض المقارنة ممن عاش الأساليب السابقة، ولم يشرح صدره للجديد. وقد يكون المجتمع راغبا في التغيير، وتحول قدراته المالية دون ذلك، وقد يتوفر المال وتقعد الهمم عن تحمل مسئوليات التغيير وقد تنهض الهمم ولا تتضح الخطط وقد تتضح الخطط ولا يتوفر الصبر الطويل على التجربة حتى تؤتى ثمارها.. وكل عقبة نزيلها من الطريق، هى من الصالحات، وإزالة العقبات بالتفاهم والحسنى، من أفضل الصالحات، والله تعالى يخاطب رسوله بقوله:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

وما نقوله عن التعليم، ينطبق على آفاق الحياة الأخرى: اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا. إن حماية الوطن بحصون العلم وشبكات الدفاع. وطلب العلم والخبرة المعينة على هذا كله من الصالحات، وقيام الدول الإسلامية ببذل المزيد من الجهد العلمى والتقنى والمهنى، حتى تستطيع أن تنتج سلاحها الذى تصون به حريتها وأرضها واستقلال إرادتها.. كل أولئك من الصالحات.

بهذا الفهم الواسع نستطيع أن ندرك بعض أبعاد قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

وأن نرى الكرامة التى أعدها الله لهم في الدنيا في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور:٥٥)

وفى قوله تعالى: ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ما يوضح أن هذه من سنن الحياة التى يوضحها القرآن.. وتأمل تأكد الأفعال في الآية: ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ﴾، ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ هذا جزاؤهم في الدنيا لو أحسنوا الإيمان والعمل. فما جزاؤهم في الأخرة؟ نعود إلى الآية الكريمة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ كانت بالفعل الماضى تدل على أن استحقاقهم لهذا الجزاء أمر مستقر من قبل. واللام في قوله تعالى: (لهم) تدل على الصلة بين العمل والجزاء والجنات بالجمع تقابل تنوع الصالحات التى قدموها في الحياة، وهذه الجنات في تنوعها هى كلها نزل المؤمنين، فهناك وحدة النزل وتنوع الجزاء فيه.. تماما كوحدة الإيمان وتنوع الأعمال، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ : تدل على البقاء المستمر الذى مات فيه الموت وأكرم الله فيه عباده بالخلود.

هذه عطايا الله، وما أعده لعباده، ولكن هنا جملة تستوقف النظر في الآية وهى قوله تعالى: ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ لا يريدون عنها تحولا.

وإذا كان الإنسان ملولا، كثير الرغبة في التحول، فإن في جنات الفردوس من التنوع والسعة، وما تقر به العين، ونعم الله.. فيها من كل هذا ما ينفى عن المؤمن آي رغبة في التحول عنها..

جعلنا الله من العاملين لها في الدنيا ومن أهلها يوم لقائه.

٥٩ ـ كلمات ربى

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾

وهذه أيضا من الآيات الجامعة في خواتيم سورة الكهف، ومن قبلها جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين، ومن بعدها الآية الخاتمة، وفيها التوحيد والرسالة والوحى والعمل الصالح والجزاء في نسق واحد. وترتبط هذه الآية بما جاء في صدر السورة، وذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ ثم قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾

ما في السورة من قصص وما في الكون من آيات كلها من كلمات الله وكلمات الله لا تنفد..

ومع هذه الآية نذكر ما جاء في سورة لقمان: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان:٢٧)

وأول ما نلحظه في الآية الكريمة عن كلمات الله في سورة الكهف أن كل ما فيها من أسماء جاء مفردا إلا لفظ كلمات.. ولنستعدها معا:

الأسماء المفردة: البحر. مدادا. وقد تكررت كل منهما مرتين.. وكلمات: هى اللفظ الوحيد الذى جاء جمعا.

والمداد اسم لما تمد به الدواة من الحبر، وما يمد به السراج من الزيت. والمعنى لو كتبت كلمات علم الله وحكمه، وكان البحر مدادا لها. والمراد بالبحر الجنس ـ أي جنس البحر ـ لنفد قبل أن تنفد الكلمات وتقرير الكلام ـ كما يقول الفخر الرازى: "أن البحار كيفما فرضت في الاتساع والعظمة فهى متناهية ومعلومات الله غير متناهية. والمتناهى لا يفى البتة بغير المتناهى..أهـ

ولكن ما المقصود بقوله تعالى: ﴿ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ ولماذا جاءت في هذا السياق بهذا النسيج: كلمات والرب والضمير المتصل..

نعود إلى سبب النزول:

إن المشركين لما سألوا الرسول عن أشياء يظنونها مفحمة له، ولا قبل له بعلمها، علمه الله إياها. وأخبر عنها أصدق خبر، وبأقصى ما تستطيع أفهامهم أن تقبله، وبما يقصر عنه علم الذين أغروا المشركين بالسؤال عنها، أتبع هذا بما يعلم منه سعة علم الله تعالى، وسعة ما يجرى على وفق علمه من الوحى، إذا أراد إبلاغ بعض ما في علمه إلى أحد من رسله. وفى هذا ربط خواتيم السورة بصدرها.

وقال الترمذى عن ابن عباس: قال حيى بن أخطب اليهودى: في كتابكم ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.. ثم تقرأون ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾، فنزل قوله تعالى ((﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى ﴾.. الآية)) (التحرير والتنوير ١٦:٥١ ـ٥٤)

والمداد في الآية يمكن أن يكون مداد البحر أو زيت السراج.. الأول يمد الأقلام بما تكتب والثانى يمد السراج بما يضىء به.

ولو كان البحر مدادا لكلمات الله المقروءة.. وكلمات الله المنظورة في الكون.. وكلمات الله وهى قوانين هذا الوجود، وهى ما يحاول العلم والجهد السعى وراء كشفه.. وما وراء ذلك من عوالم وغيوب.. لو كان البحر مدادا لتسجيل ذلك لنفدت مياه البحار جميعا، ولو توالى إمداد البحار ببحار..

وإذا انتقلنا إلى المعنى الثانى وهو زيت السراج، اقتربنا من قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ (النور: ٣٥)

فنتصور هذه البحار زيتا يضىء سراجا ويمده من بعدها بحار مثله، سيظل السراج مضيئا.. وله من عند الله مدد غير ما تحسه أذهاننا حتى من هذا التشبيه.

كلمات الله علم مطلق لا حدود له، ونور مطلق لا قيد له، ومع جمال الكلمات وجلالها، وامتدادها وإحاطتها، يحس الإنسان الأنس وهو يقرأ هذا الجزء من الآية ﴿ كَلِمَٰتُ رَبِّي ﴾. نعم بهذا الضمير المتصل الدال على القرب واسم الربوبية الدال على التربية والرعاية والتكوين والتسديد.

فمع الإحاطة والعظمة الإلهية قرب وتقريب إنسانى.. والخطاب الإلهى للرسول المصطفى عليه الصلاة و السلام - قل يا محمد أخبرهم: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي ﴾

وتأمل الأثر الذى تتركه في النفس والعقل تكرار (كلمات ربى) في موقف التفضل على المؤمنين، والتحدى للكافرين، والدفاع عن رسوله وتأييده بالوحى..

ولا تقف الآية عند هذا المدى،وإنما تنتهى بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾

إن نفاد كلمات الله مستحيل. وتقييد نفاد كلمات الله بقيد الظرف الزمانى وهو نفاد المداد (قبل) نفاد الكلمات، ينبغى إدراكه في ضوء الغرض الذى يبينه عجز الآية،ولو جئنا بمثله مددا.. أي مددا لا ينقطع ومهما زاد المداد والمدد فكلمات الله لا نفاد لها ومن بينها المعلومات أو الأسئلة التى حاولت قريش بعون من اليهود تحدى المصطفى بها ﷺ.

الإحاطة بعلم الله هى من صفات الله جل وعلا أما نحن البشر فبين أيدينا ما أفاض الله علينا من كلماته،وما فتح لنا منها في علوم الأنفس والآفاق. فماذا نحن فاعلون بها؟ هذا ما تبينه الآية الخاتم في السورة.. وقبل أن ننتقل إليها، نقف قليلا عند المقارنة بين الآيتين اللتين تصفان كلمات الله.. وقد عرضنا آية الكهف، فلننظر في آية سورة لقمان: يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

ويستوقف نظرنا أن سياق سورة لقمان جاء في سياق الصراع بين الحق والباطل، وشدة عناد الكافرين، وسوء العذاب الذى ينتظرهم، مع اعترافهم بأن السماوات والأرض من خلق الله..

موقف هذا الصراع العنيد يختلف عن موقف التحدى العلمى في سورة الكهف..وحاجة الرسول والذين معه إلى الربط على قلوبهم وإيناسهم في سورة الكهف تقابل حاجتهم إلى قوة الله في الدفاع عنهم وتثبيت الإيمان في قلوبهم في سورة لقمان.

وتسمع آيات سورة لقمان قبل هذه الآية فكأنك في معركة الدعوة بلفحها والثبات فيها ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ ثم بعدها: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

ثم تتوالى بعد هذا الآيات المظهرة لقدرة الله وعظمة الخلق..

هنا موكب من الجلال تخشع له النفوس وتعنو للحى القيوم وأنت ترى تعدد مكونات التشبيه، الشجر، الأقلام، البحر سبعة أبحر، المدد..

ولك أن تتصور تحول أشجار الأرض جميعا إلى أقلام والبحار جميعا إلى مداد.. ووراء البحار سبعة أمثالها، ورقم سبعة هو أكبر الأرقام الصماء بين الواحد والتسع، الذى لا يقبل القسمة، ثم هو الرقم الذى يدخل في تكوينه الواحد الصحيح، ومضاعفات من الأرقام الفردية، والزوجية من قبله ففيه صفات لا تتوافر في الأرقام قبله وبعده..

وإذا كان الواحد الصحيح رمز التوحيد والوحدة، فإن سبعة رمز الكثرة هى ومضاعفاتها..

هذا التشبيه يستبعد أن يكون المدد فيه زيت السراج كما يسمح بهذا تشبيه سورة الكهف..

وتأمل بحارا متتابعة تمد أقلامها كل أشجار الأرض.. وشجر الأرض نبات متجدد.. والبحار وراءها بحار..

ثم تأمل الجملة الخاتم فيها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ هكذا بلفظ الجلالة ويأتى في الآية مرة ثانية بعد قوله تعالى: ﴿ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ هنا يبدو جلال الله وعظمته وفى سورة الكهف يبدو علم الله ورحمته: تحسها في تكرار لفظ ﴿ كَلِمَٰتُ رَبِّي ﴾ وتكرار لفظ الرب، بالضمير المتصل، ومن صفات الجلال والجمال تمتلىء النفس حبا لله، وتطلعا إلى رحمته، وخشية من مؤاخذته وعذابه..

فلكل من الآيتين هدف، ولكل منهما في النفس تأثير، وكل منهما تتكامل مع السياق الذى جاءت فيه.. وصدق الله العظيم:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

٦٠- العقيدة والحياة في آية

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

نصل إلى الآية الخاتم في سورة الكهف وفيها خلاصة السورة كلها، بل خلاصة الدعوة الإسلامية في شمولها.. ولننظر إلى هذه الركائز:

أولا: قل: والرسول ﷺ يتلقى الأمر من ربه. ولفظ قل يحمل الإيمان بالألوهية. فالله خالق كل شىء وبالربوبية، فهو الذى أنشأنا، ورعى الإنسان وهو جنين في بطن أمه وجعل له السمع والبصر والفؤاد، فأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

ثانيا: إنما أنا بشر مثلكم، فمحمد ﷺ بشر، يصدق عليه ما يصدق على البشر من حمل وميلاد وحياة وموت، ومر كما يمر أي إنسان في مراحل الطفولة والشباب والكهولة، حتى توفاه الله، وعاش حياته ابنا لأب وأم، وزوجا، وأبا، وجدا، وصديقا، وعاش حياته العامة شابا طاهرا، وتاجرا أمينا، حتى عرف بين

قومه بالصادق الأمين.وعاش في الدعوة بعد هذا يحمل المسؤلية التى يبينها الجزء الآتى من الآية.

ثالثا: يوحى إلى ولم يكن هذا منه اختيارا ولا رغبة، فالله تعالى يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس.

واستمر هذا الوحى في حياته من سن الأربعين إلى أن لقى ربه في الثالثة والستين.. ثلاثة وعشرون عاما، ينزل على قلبه وحى السماء، يبلغه أصحابه ويكتبونه ويحفظونه ويطبقونه.. فكان القرآن الكريم، هو الكتاب الوحيد الذى قامت دولته والوحى ينزل. وكان أصحاب محمد هم المجموعة التى تطبق القرآن آية آية، وكان المجتمع الإسلامى الأول هو التفسير الحى الناطق للقرآن الكريم.

ولقد جاء هذا الوحى، ليربط الإنسانية من مبدئها إلى غايتها والوجود من فجره إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، ويربط جوانب المجتمع: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والداخلية والخارجية،يربط الفرد بالأسرة والأسرة بالمجتمع والمجتمع بالإنسانية كلها، في إخاء شامل، ويدعوها إلى عمران الحياة بنور الوحى، ونور العلم، في جو من التعاون على البر والتقوى.

إن القرآن هو كتاب الحياة والإحياء: إحياء النفوس والأمم: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الانعام: ١٢٢)

رابعًا: إن مدار هذا الوحى هو التوحيد وذلك قوله تعالى: ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ هذه شهادة الحق التى قامت بها السماوات والأرض وصدق الله العظيم: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ إسلام النفس لله تقتضى التحقق بأوامره ونواهيه، والسير في الحياة، مع التحرير من كل عبودية دون عبودية الله، والتخلص من رق الشهوات والأهواء وعبادة الأفراد والمناصب، بحيث

لا تبقى فوق الفرد المؤمن إلا قوة الله تعالى.. وهنا تلتقى الحرية مع العبودية.. يلتقى التحرر من كل هذه القيود مع طاعة، الله واتباع النور الذى جاء به.. إله واحد.. فرد صمد لا والد ولا ولد ولم يكن له كفوا أحد.. رب السماء والضياء.. رب كل شئ ومليكه.. له الخلق والأمر.. تبارك الله رب العالمين.

خامسًا: الدعوة إلى الله: وهذا قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ وهنا مرة أخرى تحس الإيناس في قوله تعالى: ﴿ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ وكأن الإيمان تعاقد بين الخالق الواهب، والمخلوق الذى أكرمه الله بنعمة الوجود والحياة والعقل والتفكير وكأن الآية تنادى كل إنسان أن أقبل على ربك.. إنه لقاء الرحمة والهداية في الدنيا، ولقاء المغفرة والرضوان في الآخرة.. و﴿ يَرْجُواْ ﴾ هنا فيها الأمل والتوجه والتطلع إلى لقاء الحى القيوم الذى لاتأخذه سنة ولا نوم.

سادسا: العمل الصالح: وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ وقد تحدثنا عن العمل الصالح. إنه كل جهد فكرى أو إبداعى أو يدوى أو تنظيمى أو تطويرى يزكو به وجه الحياة. العمل الصالح ليس قوالب مسكوكة ولا أنماطًا مرسومة كأنها خلايا النحل السداسية، أو هجرة الطيور الفصلية. العمل الصالح جهد متطور يستجيب لحاجات المجتمع: محافظة على خير ما فيه من القيم الأصيلة، وتفتحًا على العالم حوله، ومشاركة في ركب الحياة المتدفق، مشاركة تقوم على الفهم والإبداع، دون الاقتصار على الاستهلاك والرضا بقشور الحضارات الأخرى والوقوف عند ظواهرها.

وإن أكبر ما أصابنا أننا أخذنا ناتج الحضارات الأخرى دون أن نأخذ أساليبها أخذنا السلعة وتركنا المنهج وهذا الذى بين أيدينا القلم الذى أكتب به، والورق الذى أكتب عليه، وأوراق كتاب الله أمامى.. بل حتى المداد الذى طبع به كتاب الله، والغلاف الذى يحفظه، والنور الذى أستضئ به..

وبعض ما أرتدى من ملابس الصيف والشتاء.. وأداة الانتقال التى أتحرك بها في بلدى أو من قطر إلى قطر، أكثر هذا من إنتاج أيد غريبة لا تدين بالإسلام.. والعمل الصالح يقتضينا أن ننتج هذا كله أو أكثر، وهنا يحتاج إلى تغير جوهرى

في برامج التعليم والتربية وإعداد النشء للحياة الجديدة. إنه محتاج إلى عزيمة وصبر، وحب لبذل الجهد وسعادة بالعمل والإنتاج والإبداع.

ولقد مر المصطفى ﷺ يومًا على بعض المهاجرين إلى المدينة، وكانوا في مكة تجار. وأصبحوا بعد الهجرة يزرعون، وأصبحت أيديهم خشنة من آلات الزراعة ومعالجتها فأمسك بيد أحدهم ووضعها بين يديه وهو يقول: "هذه يد يحبها الله ورسوله"، ولقد استجاب الصحابة للتحدى الحضارى الذى واجهوه وهم يكونون قاعدة الإسلام في المدينة فكان منهم العمل الصالح، ترجموا هذه الكلمة إلى تكوين الفرد والأسرة والمجتمع والجيش.. ترجموها إلى حفظ القرآن والحياة به.. ترجموها إلى صياغة مجتمع جديد غير مسبوق.

كل هذا من العمل الصالح الذى يرضى عنه الله.. وكل مراحل الحضارة الإسلامية في امتدادها المكانى أو امتدادها الفكرى واتصالها بالحضارات العالمية وقيامها بالترجمة عنها والإفادة منها، وإخضاعها لقواعد النقد العلمى والإضافة إليها.. كل أولئك عمل صالح.. وما تقوم به مجتمعاتنا المعاصرة من محاولات التعاون على صعيد الوحدة الوطنية، أو العمل الإقليمى أو العربى أو الإسلامى أو العالمى.. كل أولئك من العمل الصالح.

سابعا: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ وفى شرح هذا الجزء من الآية نعود إلى حديث رسول الله ﷺ

قيل: نزلت هذه الآية في جندب بن زهير.قال لرسول الله ﷺ إنى أعمل العمل لله تعالى فإذا أطلع عليه أحد سرنى..فقال عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا يقبل ما شورك فيه" وروى أيضا أنه قال: "لك أجران أجر السر وأجر العلانية" ويعقب الإمام الفخر الرازى على هذا بقوله: الأولى محمولة على ما إذاقصد بعمله الرياء والسمعة،والرواية الثانية محمولة على ما إذا قصد أن يقتدى به.والمقام الأول مقام المبتدئين،والمقام الثانى مقام الكاملين. اهـ.(١١:١٧٧ –١٧٨)

فصورت الآية ثلاثية الأبعاد.. وما جاء به الوحى هو:

- أولاً: وحدانية الإله.
- ثانيًا: إثبات البعث.
- ثالثًا: الأعمال الصالحة.

ونستطيع أن نراها بصورة أخرى: تصور الإنسان طائرًا محلقًا: وجهته لقاء الله، وأحد جناحيه التوحيد، وجناحه الآخر العمل الصالح، وفى تحليقه يتجنب الشرك كما يتجنب الطائر عقبات الطريق..

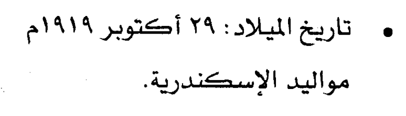
بقيت بعد هذا كلمة ختامية في سورة الكهف تتعلق بتسلسل القصص فيها.. لقد بدأت بقصة أهل الكهف والغالب فيها هو الجانب الإلهى الغيبى ولم يكن من الفتية إلا الاعتزال بإيمانهم، ثم تولت يد القدرة بعد هذا أمر النوم واليقظة، ثم كان منهم التشاور والتلطف، ثم توفاهم الله.. وفى قصة الصاحبين والحوار حول الجنة وإغراء المال، كان من الرجل المؤمن الدفاع عن إيمانه في مواجهة صاحبه غير المؤمن، وكان الانتقام من الله بأن أرسل على الجنة حسبانًا من السماء..

وفى قصة موسى والخضر، نجد أدب العلم والتعلم، وفى قصة ذى القرنين نجد الجانب الإيجابى من العمل المشترك هو الغالب والبارز، ولعل هذا هو الهدف الأكبر أن يتحول المؤمنون إلى مجتمع من العاملين القادرين على حماية عقيدتهم وأنفسهم وديارهم بجهودهم وإيمانهم، ويأتى ختام القصة مؤكدًا مصادر القوة في بناء الحياة: الإيمان بالله، والبعث، والعمل الصالح.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف فى سطور



الدكتور عبد العزيز كامل

- تاريخ الميلاد: ٢٩ أكتوبر ١٩١٩م
  مواليد الإسكندرية.
- تخرج في كلية الآداب سنة ١٩٣٩م.
- المناصب العلمية والتنفيذية:

١) أستاذ الجغرافيا البشرية- جامعة القاهرة.

٢) مدير جامعة الكويت ١٩٧٢-١٩٧٣م.

٣) نائب رئيس الوزراء للشئون الدينية ووزير الأوقاف ووزير شئون الأزهر. القاهرة.

٤) المستشار بالديوان الأميري -الكويت.

٥) عضو اللجنة العالمية لتاريخ الإنسانية الثقافي والعلمي اليونسكو- باريس.

٦) عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية مؤسسة آل البيت. عمان- الأردن.

٧) عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة.

الأوسمة والجوائز التقديرية:

١) وسام الجمهورية من الطبقة الأولى من الرئيس محمد أنور السادات.

٢) وسام الجمهورية من الطبقة الأولى من الرئيس محمد حسنى مبارك.

٣) وشاح الملك عبد العزيز من الطبقة الثانية من الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية.

٤) علامة إقبال وجائزة تقديرية من الباكستان عن إسهاماته فى الكتابة عن إقبال.

٥) جائزة أرسطو من اليونسكو عن المشاركة فى كتابة الجزء الرابع من مجلدات التطور العلمي والثقافي لتاريخ الإنسانية وذلك بعد وفاته. وذلك ضمن ٤٠ كتاب من العالم كله.

٦) أوسمة مختلفة من جامعة الأزهر وجامعة القاهرة والدراسات العليا لضباط الشرطة.

- له مؤلفات ومقالات كثيرة نشرت بمصر والكويت هذا بخلاف أحديث مسجلة بالإذاعة المصرية

- توفى إلى رحمة الله تعالى يوم الأربعاء ٢ أبريل ١٩٩١م- ١٧رمضان ١٤١١هـ.

الفهرس

رقم الإيداع
٢٠٠٦/١٧٣٠
الترقيم الدولى
977 - 209 - 137 - 2